مريم

المرأة المتحفة بالشمس

(رؤيا ١٢: ١)

طبعة ثانية مجدَّدة

٢٠١١

فليُطبَع

† الأرشمندريت جان فرج

الرئيس العام على الرهبانيّة الباسيليّة المخلِّصيَّة

دير المخلِّص ٢٠١١/٤/٧

طباعة: الحكيم للطباعة والنشر م.ض

الناصرة – تلفون: ٠٤-٦٤٦٦٣٣٣

الافتتاحيّة

إنّ مَن يقرأُ ما كَتَبَهُ الأرشمندريت أغابيوس أبو سعدى يكتَشِفُ شخصيّةَ الأرشمندريت وعمقَ حياتِه الروحيّةِ المبنيةِ على التأمُّلِ في الكتاب المقدّس وفي مُعطياتِه الثمينة. فلقد جدَّدَ فينا رغبةَ التَعَمُّقِ لقراءةِ ما بين السطور من حقائقَ روحيّةٍ ومن أحداثٍ خلاصيَّةٍ روحيّةٍ تتعلَّقُ بالتّدبيرِ الإلهيّ أي المتعلِّقِ بخطّةِ الله لخلاصِ البشر.

مريمُ والدةُ الإله ليست غريبةً عن مجتمعِنا ولا عن شعبِنا وخاصّةً أنّها ليست غريبةً عن عقليَّتِنا وعن ثقافتِنا. فهي مريمُ ابنةُ النّاصرة الجليليّة. وأسمحُ لنفسي أن أسبرَ قليلاً أعماقَ هذه السيِّدةِ الجليليّة، وأستَوحي ما سأقولُه من تصرُّفاتِ جدّاتِنا الفاضلات، خاصّةً من تصرُّفاتِهنَّ أثناءَ الأفراحِ والأحزان، من تصرُّفاتِهنَّ أمام المفاجآتِ الاجتماعيّة سارةً كانت أم مُحزِنة. أُلَمِّحُ في هذا إلى زيارة مريم العذراء وهي حامِلٌ لنسيبتِها أليصابات، هذه في عين كارم وتلك من النّاصرة.

عند بشارةِ مريم من الملاكِ جبرائيل وكان قد أخبرَها أنّ نسيبتَها أليصابات حُبلى: "وها هي أليصاباتُ نسيبتُكِ قد حَبلَتْ هي أيضًا بابنٍ في شيخوختِها وهذا الشهرُ هو السادسُ لتلك الَّتي كانت تُدعى عاقِرًا" (لو ١: ٣٦). فقامتْ مريمُ مسرعةً، أي هيَّأتْ نفسَها دون توانٍ، مما يتطلّبُ بضعةَ أيّام. لا شكّ أنّها فتّشتْ عن أُناسٍ مسافرين نحو القدس لترافقَهم: "في تلك الأيّام، قامَتْ مريمُ وذهبَتْ مُسرِعةً إلى البلدِ العالي – أي إلى عين

كارم قرب القدس – إلى مدينةٍ في يهوذا. ودَخَلَتْ إلى بيتِ زكريّا وسلَّمَتْ على أليصابات" (لو ١: ٣٩-٤٠). لم تَكُنْ أليصاباتُ تَعلَمُ أنّ مريمَ آتيةٌ لزيارتِها. مفاجأةٌ كبيرة وصدمةٌ هائلة وغيرُ منتظَرةٍ وشعورٌ غريبٌ وإيحاءٌ من الرّوحِ القدس. إنفجَرَتْ أليصاباتُ بفرحةٍ كبيرةٍ تَصرُخُ حالما رأتْ مريمَ وقبل أن تُقبِّلَها قائلةً أربع "آويهاتٍ" مميّزةٍ ونبويَّة:

١. آويها... مبارَكةٌ أنتِ في النِّساء، ومبارَكةٌ ثمرةُ بطنِكِ؛
٢. آويها... كيف أُوتيتُ أن تأتي أمُّ ربِّي إليّ؛
٣. آويها... فإنّهُ لما بلغَ صوتُ سلامِكِ في أُذنيَّ حتّى ارتكضَ الجنينُ من الابتهاجِ في بطني؛
٤. آويها... فطوبى للَّتي آمنَتْ بأنّه سيتِمُّ ما قيلَ لها من لَدُنِ الرَّبّ.

وبدأتْ أليصاباتُ ومريمُ بالزغاريد. ثم انطلَقَتِ ابنةُ الجليل تُجاري نسيبتَها وتَشرَحُ ما حَدَثَ لها، قائلةً:

١. آويها... تُعظِّمُ نفسي الرّبّ وتَبتَهِجُ روحي بالله مخلِّصي، لأنّه نَظَرَ إلى حقارةِ أَمَتِهِ؛
٢. آويها... ها إنّ جميع الأجيال تُطوِّبُني، لأنّ القديرَ صَنَعَ بيَ العظائمَ واسمُهُ قدّوس؛
٣. آويها... إنّ رحمتَهُ إلى جيلٍ وجيلٍ للَّذينَ يتَّقونَه. بَسَطَ قدرةَ ساعدِهِ، فشَتَّتَ المتغطرسينَ بأفكار قلوبهم؛
٤. آويها... إنّه حَطَّ المُقتَدِرينَ عن عروشِهِم ورَفَعَ المتواضعين، أشبعَ الجياعَ خيرًا والأغنياءَ أرسلَهم فارغين؛
٥. آويها... عَضَدَ إسرائيلَ فتاه، كما كلَّمَ أبانا إبراهيم ونسله إلى الأبد.

أربعُ آويهاتٍ من أليصابات وخمسٌ من مريم، أي تسع آويهاتٍ وهذا يعني ٣ × ٣ العدد الكامل أيِ الحاويَ الكمال. أمّا زكريّا، فكان يَسمَعُ ويحترِمُ الموقف؛ وبعدما انتهَتْ مريم من نشيدِها... ومكثَتْ عند أليصابات وساعدَتْها، "عادتْ إلى بيتِها" وزكريّا كان يَحفَظُ ما يَسمعُه ويدورُ في خلده، إلى يوم ولادة الطّفل الموعود أي يوحنّا المعمدان، حيث أخذ يَعِظُ مُستَوحِيًا ما سَمِعَهُ من زوجته أليصابات ونسيبتها مريم بنت النّاصرة يوم التَقَيا فجأةً وعلى غير موعد. فلقد أضافَ زكريّا نورًا نبويًّا على ما حدثَ لأليصابات مُتَعَجِّبًا ومُتَهلِّلاً بالله "وأنتَ أيُّها الصَّبيّ – أي أنتَ الجنينُ الَّذي وُلِدَ من بطنِ أليصابات – إنَّكَ نبيُّ العليِّ تُدعى، لأنّكَ تَسبِقُ قدَّامَ وجهِ الرَّبّ – أي وجهِ الَّذي تَحمِلُهُ مريمُ في أحشائها – لِتُعِدَّ له طريقًا... ليُضيءَ لنا نحن الجالسينَ في الظُّلمةِ وظِلِّ الموت، ويَهدي أقدامَنا في طريق السَّلام" (لو ١: ٥٩-٧٩).

أبونا أغابيوس أصغى إلى صوت الله في تأمُّلاته، وتَعَمَّقَ في السِّرِّ العظيم المميَّز، وارتَشَفَ من مُحيط النِّعمة الَّتي أَغدَقَها اللهُ عليه، وهو يُشارِكُنا مشاعِرَهُ وإيمانَه. وبهذا يُعبِّرُ عن مشاعر الكثيرينَ من المسيحيِّينَ الَّذين يتقدَّسونَ بالقراءة والتأمُّل في كلام الله في كتابه المقدّس، العهد الجديد، وفي صلوات الليتورجيّا المقدّسة. أُبارِكُ الأرشمندريت أغابيوس وأَحُثُّ الجميعَ على قراءةِ هذا الكتاب وعلى الاقتداء بأبونا أغابيوس لكي

يَتَخَطَّوهُ ويَصِلوا هم كما وَصَلَ هو إلى قلب المسيح في أحشاء مريم والدة الإله. وليَبْقَ قلبُكَ طاهِرًا وأفكارُكَ مبارَكةً أيُّها الأبُ الحبيب.

نعمةُ الله الآب ومحبَّةُ الله الابن وشركةُ الله الرّوح القدس، فلتَكُنْ معك ومع إخوتكَ الرهبان خادمي رعيَّة حيفا.

صَدَرَ عن ديواننا الأسقفيّ في الثامن عشر من شهر كانون الأوّل من العام ألفين وعشرة ميلاديّة.

أخوكم بالرَّبّ

أبونا الياس شقّور

رئيس أساقفة عكّا وحيفا والنّاصرة وسائر الجليل

المقدّمة العامّة

لقد جاءتْ فكرة إعداد هذا الكتاب الَّذي يَحمِلُ اسمَ **"مريم، المرأة المُلتَحِفَة بالشّمس"** (رؤ ١٢: ١) استنادًا إلى اختصاصي في لاهوت الكتاب المقدّس، الَّذي جَعَلَني أَعشَقُ كتاب الحياة هذا وأَتَلَذَّذُ بقراءته بعمقٍ لفهم سرِّ الشّخصيَّة الَّتي قَلَبَتِ المفاهيم وطَبَعَتْ تاريخنا البشريَّ، أعني به يسوع المسيح، الكلمة المتجسِّد في أحشاء مريم. هذا ما يؤكّده **أوريجانس** (١٨٥-٢٥٤م)[١] في عرضه للمبادئ تفسير الكتاب المقدّس، إذ يقول: **"**إنّ الكتاب المقدّس هو حركةٌ تدريجيّة تؤدّي إلى الخلاص وتقود من العهد القديم إلى الجديد. لذلك يجب بيع جميع الأحجار الكريمة للحصول على اللؤلؤة الواحدة. الله دخل في "صيرورة" التّاريخ، و"صار" لأجلنا إنسانًا، فيجب علينا نحن بدورنا أن "نسلك في طريق الله"، ونسير نحو الحقيقة**"**[٢].

وعليه، فإنّ تفسير الكتاب المقدّس تفسيرًا كنسيًّا ورعويًّا بات حاجةً ماسّةً جدًّا، إذ إنّ غالبيةَ المسيحيّين لا يَفقهونَ شيئًا منه، وكأنّه كتابٌ وُجِدَ

---

[١] يُعتبر أوريجانس مفكِّرًا ولاهوتيًّا كبيرًا مرّ كالشّهاب في سماء الكنيسة المقدّسة. إلاّ أنّه حُرِمَ بسبب بعضٍ من تعاليمه ولا سيّما نظريّة الوجود السّابق للأنفس، حيث أصدر الإمبراطور يوستنيانوس سنة ٥٤٣م مرسومًا يحرم فيه أوريجانس. فوقّع هذا المرسوم البطاركة ومعظم أساقفة فلسطين. وقد حرمه أيضًا المجمع المسكونيّ الخامس المنعقد سنة ٥٥٣م، مُعلِنًا وجود عقائد هرطوقيّة في كتاباته. لمعلوماتٍ إضافيّة، أنظر الملحق رقم (١).

[٢] مجموعة باحثين، **تاريخ الفكر المسيحي**، ص٤٠٥.

ليُوضَعَ على الرفوف أو كزينةٍ بيتيّةٍ إذا كانتِ العائلةُ المسيحيّةُ تَملِكُه؛ إلى جانب ظهور الكثير من البدع الَّتي تقومُ بتفسيره بطريقةٍ مغايرةٍ ومعاكسةٍ لتعاليم الكنيسة المقدّسة، إلى درجة أنّها تُشوِّهُ المعنى الحقيقيَّ للنَّصِّ البيبليّ، وبخاصّةٍ ذاك الَّذي يَختَصُّ بوالدة الله، مريمَ الدّائمةِ البتوليّة. لذلك، أردتُ وبكلِّ تصميمٍ وغَيرةٍ على كنيسة المسيح وشعبه المقدّس "الأُمَّة الملوكيَّة"، أن أَكتُبَ هذا الكتاب الَّذي يَشتَمِلُ على العقيدة المريميّة انطلاقًا من الكتاب المقدّس بعهدَيه القديم والجديد، وكما أقرَّتْها، في ما بعد، المجامعُ المسكونيَّة وآباءُ الكنيسة القدّيسون على مَرِّ العصور والقرون، منذ انطلاقة المسيحيّة.

لقد رَغِبْتُ كثيرًا في إظهار وجه مريمَ وشخصيَّتها ودورها الَّذي لَعِبَتْهُ في سرِّ الخلاص، في سرِّ الكلمة المتجسِّد. وقد فَهِمَتِ الكنيسةُ دورَ العذراء الطّاهرة وعبَّرَتْ عنه بطريقةٍ سَنِيَّةٍ في ليتورجيَّتها ومجامعها ولاهوت آبائها الَّذي نَهَلوهُ من تأمُّلاتهم بعين الإيمان الدّاخليَّة لأحداث الكتاب المقدّس الخلاصيَّة.

وهكذا، فإنّنا نرى أنّ هذا الكتاب يَحتوي على ثلاثة فصولٍ تُعطي القارئَ فهمًا مُعَمَّقًا لسرِّ هذه المرأة الَّتي أَعطَتِ اللهَ جسدًا وهو مَن سَكَنَ في مستودعها الدّائم البتوليّة.

فالفصلُ الأوّل، "مريمُ، مسيرةُ إيمانٍ نحو القيامة: قراءةٌ بيبليَّة"، وفيه إبرازٌ لهُويَّة المرأة الَّتي ستكونُ أُمًّا للمسيح، انطلاقًا من الكتاب المقدّس، من سفر التّكوين، مرورًا بالأنبياء والأناجيل وبعض الأحداث الكتابيّة الأخرى

المريميّة، وصولاً إلى سفر الرؤيا. في هذا القسم، لم نَبْغِ الدّخولَ في تشريحٍ لاهوتيٍّ وعقائديٍّ عميقٍ للنّصوص الكتابيَّة، بقدر ما أَرَدنا أن نُعطِيَ فكرةً عامّةً عن شخصيَّة مريم في الكتاب المقدّس، بعهديه القديم والجديد.

أمّا **الفصلُ الثّاني**، فجاءَ تحت عنوان **"مريم في سرِّ الصَّليب: أُمومةٌ روحيّة"**، وفيه دراسةٌ تتعلَّقُ بنصٍّ إنجيليٍّ يوحنّاويٍّ، يُصوِّرُ مريم في سرِّ العهد الإلهيّ على أنّها الأُمُّ المسيحانيَّة لشعب الله الجديد، الكنيسة.

ويُطالِعُنا **الفصل الثّالث** والأخير، **"الثيوطوكس مريم في ميستاغوجيَّة الليتورجيّا البيزنطيّة"**، وهو قسمٌ غَنِيٌّ جدًّا بالمفاهيم والمصطلحات البيبليَّة، العقائديَّة، اللاهوتيّة، التّاريخيّة، الإكليزيولوجيّة (الكنسيَّة)، المريميّة، الليتورجيّة، الجمعيَّة والآبائيَّة. فنشيدُ الأكاثستوس يختَصِرُ كلَّ هذه الأبعاد في شخص مريم على ضوء سرِّ ابنها الإلهيّ، سرِّ التجسُّد، وفي الوقت نفسه، يُعبِّر عن احتفال الكنيسة البيزنطيّة بالثيوطوكس والدة الإله في سرّ المسيح والكنيسة.

ليس الهدفُ الكامنُ وراء كتابة هذا المؤلَّف علميًّا أو أكاديميًّا محض، بل إنّه قراءةٌ روحيَّةٌ كنسيَّةٌ ورعويَّةٌ للاهوت المريميّ، تُعنى بتوسيع آفاق المؤمنين من ناحية الثقافة الدينيّة والمعلومات اللاهوتيّة، التّاريخيّة، الكنسيّة والليتورجيّة، لكي يتسنّى لهم البلوغَ إلى معرفةٍ روحيَّةٍ أكثر عمقًا والى اختبارٍ إيمانيٍّ أكثر نُضجًا لتعاليم الكتاب المقدّس والكنيسة المقدّسة.

فما هذا الكتاب إلاّ خلاصةُ اللاهوت المريميّ كما فَهِمَته الكنيسةُ المقدّسة انطلاقًا من الفكر الكتابيّ ومن خبرة الآباء القدّيسين الَّذين جاهدوا الجهاد الحسن وحَفِظوا الإيمان الصَّحيح وتكلَّلوا بإكليل المجد الإلهيّ. فمَن يتأمّل مريم من دون إيمانٍ لن يُدرِكَ إلاّ مريم الإنسانة العاديّة. أمّا إذا نظر إليها **"بعين الإيمان الدّاخليّة"** فلسوف يُدرِكُ عِظَمَ هذه المريم وشفاعتَها الإلهيّة، إذ إنّها أُمُّ الحياة والبابُ الملوكيّ الَّذي يُذكِّرنا بصرخة يعقوب: **"**هذا هو بابُ السّماء**"** (تك ٢٨: ١٧). إنّها مريم، بابُ السّماء. البابُ الأوّل قد أُغلِقَ أمام آدم وحوّاء، ومريم كانت البابَ الَّذي فُتِحَ ليعودَ الطّريدان إلى البيت الأبويّ. فمريمُ قد أضحت، بملء حريَّتها، البابَ الَّذي منه دخلَ المخلِّصُ تاريخَنا المتألِّم، وبه يعود آدم، **"**كلّ إنسان**"**، إلى الله مصدر وجوده.

وعليه، فإنّ هدف دراستنا الجوهريّ انطلاقًا من الفصول الَّتي تكوِّن هذا المؤلَّف هو **سرُّ الأُمومة الإلهيَّة للثيوطوكس مريم على ضوء سرِّ التجسُّد الإلهيّ، إذ إنّ الإنسان الَّذي وَلَدَتْهُ مريم**، وهذا القولُ لكيرلّس الاسكندريّ، **ليس إنسانًا عاديًّا، إنّه ابنُ الله المتأنِّس، فهي إذن أُمُّ الرَّبِّ ووالدةُ الإله**[٣].

الأرشمندريت أغابيوس أبو سعدى

[٣] **المرجع نفسه**، ص٦٣٢.

الفصل الأوّل

مريم: مسيرةُ إيمانٍ نحو القيامة

قراءةٌ بيبليَّة

المقدّمة

مريم، اسمٌ ارتبطَ بشخصانيَّته، تاريخيَّته وحضوره بأحداثٍ عظيمةٍ قرأَها الكُتَّابُ المُلهَمونَ من الرُّوح القدس تتمحورُ حول سرِّ التَّدبير الإلهيّ الَّذي حضّرَه اللهُ الآب في العهد القديم، نفذَّه الكلمةُ الإلهيُّ المتجسِّدُ في شخص يسوع التاريخيّ والجغرافيّ في العهد الجديد وكمّلَ مسيرتَه في الكنيسة منذ العنصرة وإلى الآن، الرُّوحُ الكلِّيُ قدسُه. عملٌ وإبداعٌ ثالوثيٌّ احتَضَنَتْهُ مريمُ في شخصها حين أرسلَ اللهُ تعالى ملاكَه من السّماء إلى قرية النّاصرة مُبشِّرًا تلك العذراءَ المخطوبة لرجلٍ من بيت داود اسمُه يوسف، مُبشِّرًا إيَّاها بأنّ الله قد اختارَها واصطفاها لتكونَ أُمًّا لابنه بقوّة وحلول الرّوح القدس؛ عملٌ اشتركَتْ مريمُ في صياغته ووَضْعِه حيِّزَ التَّنفيذ حين أعلنَتْ استسلامَها لمخطَّط الله في حياتها بأنْ قالت: "ها أنا أَمَةٌ للرَّبِّ فليَكُنْ

لي بحسب قولِكَ" (لو ١: ٣٨). وقد شكَّلَتْ هذه الكلماتُ الإيمانيّة نقطةَ الانطلاق في مسيرة الخلاص التي قرأَتْها الكنيسةُ المقدّسةُ في ليتورجيَّتِها فأعلَنَتْ: "اليومَ بدءُ خلاصنا وظهورُ السرِّ الذي منذ الأزل، فإنّ ابنَ الله يصيرُ ابنَ البتول، وجبرائيلَ بالنِّعمة يُبشِّر" (طروباريّة عيد البشارة).

إنّ هدفَ هذه الدراسة هو إبرازُ دور مريم كما ظَهَرَ في الكتاب المقدّس بعهدَيه القديم والجديد، من سفر التّكوين، مع وعد الله للمرأة بالخلاص الآتي من نسلها، مرورًا بالأنبياء، الَّذين تنبّأوا عن مجيء المسيح من عذراء، وصولاً إلى كتابات العهد الجديد، أناجيل الطّفولة (متّى ولوقا)، والإنجيل الرّابع وسفر الرؤيا، حيث بيَّنتْ هذه الكتابات أنّ وعد الله ونبوءات الأنبياء بالخلاص قد تحقَّقتْ في شخص يسوع، كلمة الله المتّخذ جسدًا من العذراء مريم.

وعليه، فإنّ خطوط دراستنا العريضة تأتي على الشّكل التّالي:

١) وعدُ الله بالخلاص (تك ١-٣)

١. الإنسان أيقونةُ الله: الصّورة [علامة الابن] والمثال [علامة الرّوح القدس]

"... **وقال** الله: **لنصنعنّ** الإنسان على صورتنا كمثالنا" (تك ١: ٢٦). فبعد مُضِيِّ خمسة أيَّامٍ على عمل الله الخَلقِيّ الكونيّ، دخلَ الإنسانُ في المنظومة الإلهيّة، في الفكر الإلهيّ مخلوقًا على صورة الله ومثاله، مُعطًى سلطةً إلهيَّةً على كلّ الخلائق الَّتي صنَعَها الله (تك ١: ٢٦؛ ٢: ١٩). وقد خَلَقَ الله الإنسانَ ذكرًا وأنثى، كما هو مذكورٌ في الرواية الأولى والثانية لخلق العالم (تك ١: ٢٧؛ ٢:

٢٢-٢٤)، وأعطاهُمْ نعمةَ الاشتراك في الخَلق، إذ "باركَهم وقال لهم: انمُوا واكثروا واملأوا الأرض" (تك ١: ٢٨). من هنا نُدرِكُ أنّ الله مَيَّزَ الإنسانَ بحبِّه اللامتناهي وبركته اللامحدودة إذ دعاه إلى عيش شركة الحبّ والحياة معه. فحبُّ الله للإنسان ما كان أبدًا حبًّا أنانيًّا ومتسلِّطًا، ولم يكن، في الوقت عينه، حبًّا يدعو إلى الذوبان والانصهار في الذات الإلهيّة، بل كان حبًّا خَيِّرًا ومنفتِحًا على الشركة الذاتيّة بين الإنسان وذاته؛ على الشركة الغيريَّة بين الإنسان والآخر (الله والغير).

قبل الدّخول في حريّة الاختيار للإنسان، نودّ أن نقوم بدراسةٍ تحليليَّةٍ لآية سفر التّكوين (١: ٢٦) وأبعادها اللاهوتيّة. ما تجدرُ ملاحظتُه في هذه الآية اختيار كاتب النّصّ لفعل الخلق **"لنصنعنّ"** بصيغة الجمع وليس المفرد، وأظنّ أنّ في هذا حكمةً، إذا ما أردنا قراءةَ الآية المذكورة بروحٍ مسيحيّة. ترى الكنيسةُ المقدّسة بشخص الآباء القدّيسين أنّ عبارة **"لنصنعنّ الإنسان"** توحي بأنّ الأقانيم الثلاثة اتّفقوا بعضهم مع بعض وانسجموا، ونتيجةً لهذا الاتّفاق ظهر الإنسانُ أيقونةً ثالوثيّة، كيف؟

- الله الآب هو **السبب الأوّل** لكلِّ شيءٍ في الخلق، إذ إنّه يخلق بفكره، وفكره يضحي عملاً (تك ٢: ٧)؛
- والله الابن هو **الفاعل**، إذ إنّ كلَّ شيءٍ خُلِقَ بالكلمة من خلال الفعل **"قال"**. وكما عبّر الإنجيليّ يوحنّا في مقدّمة إنجيله أنّ "الله خلق كلَّ شيءٍ به [الكلمة] وأنْ بدونه ما كان شيءٌ مِمّا كان" (يو ١: ٣)، كذلك عبّر بولس

الرسول، قائلاً: "فيه [المسيح] خُلِقَ كلُّ شيءٍ مِمّا في السّماوات ومِمّا في الأرض... كلُّ شيءٍ خُلِقَ به وله" (كول ١: ١٦-١٧)، ونحن نكرِّر هذا في دستور الإيمان: "الَّذي به كان كلُّ شيء".

- والله الرّوح القدس هو **الرّوح المُحيي**، الباعث في الإنسان نَسَمَة الحياة (تك ٢: ٧).

يشرح **إيريناوس** (١٤٠-٢٠٢م)[٤] عمل الله الخلاّق **"يدَي الله"**، قائلاً: "قام الله بعملٍ لا يمكن التّعبير عنه، وقد عاونَه في كلّ شيءٍ اللذان صدرا منه، أعني الابن والرّوح القدس، الكلمة والحكمة، ولهذين خدّامٌ خاضعون لهما، وهم جميع الملائكة. فالإنسان هو مزيجٌ متوازنٌ من نفسٍ وجسد، وقد صنعه الله على مثاله وجبله بيدَيه الإثنتَين، أي بالابن والرّوح القدس اللذين قال لهما: لنصنعِ الإنسان"[٥].

إذن، يتضمّن الخلق على صورة الله ومثاله فكرة **المشاركة في الكائن الإلهيّ، والشَرِكة مع الله**، إذ إنّ الله خلق كلَّ شيءٍ بالابن في الرّوح القدس. فحيث يكون الكلمة يكون الرّوح، وكلُّ ما يخلقه الآب ينال وجوده بالابن

---

[٤] القدّيس إيريناوس أبٌ من آباء الكنيسة العِظام وقد تميّز بأنّه، قبل كلِّ شيءٍ، رجلُ الكنيسة بامتياز، نظرًا لغزارة كتاباته اللاهوتيّة الَّتي طالت لاهوت الكنيسة وعقيدة التجسّد والخلق، ولقد لُقِّب بلاهوتيّ تاريخ الخلاص انطلاقًا من شعار "كلّ شيءٍ متماسك" والَّذي تضمّن وحدة الله، وحدة عمل الخلاص ووحدة الكتب المقدّسة.

[٥] مجموعة باحثين، **تاريخ الفكر المسيحيّ**، ص٣٠٦.

في الرّوح القدس، على حدّ قول **أثناسيوس الاسكندريّ** (٢٩٥-٣٧٣م)[٦]. هذا ما يُعبِّر عنه بوضوحٍ سفر المزامير: "بكلمة الرَّبِّ صُنِعَتِ السَّماوات، وبروح فمه صُنِعَ كلُّ جيشها" (مز ٣٣: ٦): إنّه **ظهور الثالوث التّدبيريّ:** الآب يعمل بالابن في الرّوح القدس.

٢. الإنسان في حريّة الاختيار بين محبّة الله الأبويّة وإغواء الحيّة

تجاه هذا الحبّ اللامتناهيّ والمجّانيّ، تفاعلَ الإنسانُ مع إغواء الحيّة، الَّتي وصفَها سفرُ التكوين بأنَّها "أَحْيَلُ جميع حيوانِ البريّة الَّذي صَنَعَهُ الربُّ الإله" (تك ٣: ١) وجاراها بأفكارها الشيطانيّة الهادفة إلى إبعاد الإنسان عن إطاره الطّبيعيّ الَّذي خُلِقَ فيه ورفضه الحبّ الإلهيّ وعصيانه أوامر الله، وقد نَجَحَتِ الحيَّةُ في هدم الحبّ الَّذي بناهُ اللهُ مع الإنسان حين خَلَقَهُ على صورته ومثاله (راجع تك ٣).

لقد أصبحَ الإنسانُ في واقعه الجديد متجرِّدًا من حقيقته الأصليّة وهُويَّته الإلهيّة وعريانًا من لباسه الإلهيّ، متغرِّبًا عن ذاته وعن الله وحتى عن جنَّته الَّتي خُلِقَتْ لأجله: لقد فَقَدَ كلَّ شيء. فآدمُ وحوّاء كانا عُريانَين قبل سقوطهما في الخطيئة المُرَّة وهما لا يخجلان (تك ٢: ٢٥) وقد أصبحا بعد الخطيئة خجلَين من كونهما عريانَين، خائفَين من صوت الربِّ الإله ومُختبئَين من وجهه فيما بين شجر الجنّة (تك ٣: ٨-١٠)، وكانت أُجرةُ هذا السقوط الموتَ "بعرق جبينك تأكلُ خبزًا حتّى تعود إلى الأرض الَّتي أُخِذتَ منها

---

[٦] فلاديمير لوسكي، **اللاهوت الصوفيّ لكنيسة الشرق**، ص٨٤.

لأنّكَ ترابٌ وإلى التراب تعود" (تك ٣: ١٩) والنفي **"فأخرجَهُ** الربُّ الإلهُ من جنّة عدنٍ... **فطَرَدَ** آدمَ..." (تك ٣: ٢٣-٢٤). إذن، الإنسان أخطأ بحريّة، أي أنّ الإرادة الحرّة هي الّتي فصلت الإنسان عن الله. ما هو قوام الخطيئة الأصليّة؟ إنّ تعريف الخطيئة الأصليّة يقوم على عدم إطاعة الإنسان الأمر الإلهيّ وتعدّيه. فالخطيئةُ تطوّرت عندما راح الإنسان يُبرِّر ذاته أمام الله بدل أن يتوب: ألقى آدم كلَّ المسؤوليّة على حوّاء – **"المرأة الّتي أعطيتنيها"** – جاعلاً الله بهذا العلّة الأولى لسقوطه، بينما اتّهمت حوّاء الحيّة (تك ٣: ١٢-١٣). بهذا العمل الإراديّ الحرّ، **أوقف الإنسان في ذاته انسكابَ النّعمة الإلهيّة**.

٣. وعد الله بالخلاص

مع كلِّ ما حَدَثَ من قطيعةٍ بين الرَّبِّ الإله والإنسان، فإنّ الله لم يتخلّى أبدًا عن عمل يدَيه، وفي الوقت نفسه، لم يقطعْ بصيص الأمل في تجاوب الإنسان مع أيّ عهدٍ يهدف إلى إنقاذه [الإنسان] من عاقبة الخطيئة والشّرّ الّذي أصبح جزءًا لا يتجزّأ من حياة الإنسان طوال يومِه (تك ٦: ٥-٩) وذلك بإعطائه إشاراتٍ خلاصيَّةً بأنَّ من نَسل المرأة سيَخرجُ مَن يَسحقُ رأسَ الحيَّة (تك ٣: ١٥). على هذا الرجاء، عاشَ الإنسانُ المطرودُ من الفردوس والمتغرِّبُ عن وطنه الأمّ، مُنتَظِرًا لحظةَ تَدَخُّل الرَّبِّ الإله في مجرى التّاريخ، ليُعيدَ عقاربَ السّاعة إلى الوراء، ويَفتَتِحَ العهد الجديد ويدعوَ الإنسان مجدَّدًا إلى الاشتراك في عرس الحمل، في الذبيحة الفصحيَّة في الملكوت السّماويّ.

٢) **مريمُ أمُّ العمّانوئيل** "نبوءة أشعيا" (٧: ١٤)

فكيفَ يستطيعُ الربُّ الإلهُ أن يُخلِّصَ الإنسانَ الهالِكَ بمعاصيه إنْ لم يتنازلْ هو نفسُه ويأخذِ الطَّبيعةَ الإنسانيّةَ المشوَّهةَ والتَّائهة، ويُعيدَها إلى بهائها الأول، إلى حالتها الفردوسيَّة الأولى، إلى كرامتِها الإلهيّة، فجاء أشعيا النبيّ بنبوءته القائلة بأنّ "السيِّدَ نفسَه يؤتيكم آيةً: ها إنّ العذراءَ تحبلُ وتَلِدُ ابنًا وتَدعو اسمَهُ عمَّانوئيل". هذه إشارةٌ خلاصيَّةٌ ثانيةٌ أعطاها الربُّ الإلهُ للإنسان على لسان نبيِّه أشعيا. واستمرَ اللهُ في إرسال ذبذبات الأمل والرجاء إلى الإنسان، مُحضِّرًا إيّاه لمجيئه الخلاصيّ الهادف إلى إعادة الإنسان إلى إطاره الحقيقيّ.

وهكذا تُصبح العذراءُ مريم **علامةَ خلاصٍ لشعب إسرائيل**، إذ تتمّ فيها هذه النبوءة الأشعيويّة. وهذا الخلاصُ ينقلُ شعبَ الله من عبوديّة النّاموس إلى حريّة العهد الجديد الَّذي يَخُطُّه الله مع شعبه مجدَّدًا بدم ابنه، فيُبطَل كهنوت الشّعب القديم وتكفّ محرقاته (عب ٥: ١-١٠؛ ٩: ١١-٢٨).

٣) **الحبل العجائبيّ بوالدة الإله وميلادها** (تقليد الكنيسة)

لأنّ الربَّ الإلهَ أمينٌ وثابتٌ في وعوده، بدأتْ مسيرةُ الخلاص بالبزوغ كما تَبزُغُ الشَّمسُ من عرينها، وبدأتْ بشائرُ الفرح بالخلاص القادم تَظهَرُ لكلِّ العالم، مُبشِّرةً بمجيء العذراء الَّتي تنبَّأَ عنها أشعيا في كتابه، والَّتي ستَحمِلُ في أحشائها المخلِّصَ الإلهيّ. إنّ الكتاب المقدّس لا يذكرُ شيئًا عن مولد العذراء، إلا أنّ التَّقليد الكنسيّ يؤكِّدُ أنّ والدَي العذراء يواكيم

وحنّة كانا عاقرَين وطاعنَين في السنّ، وكانا يطلُبان من الله أن يَرزُقَهما طفلاً "صبيًّا كان أم صبيَّةً" يقدِّمانِه لخدمة هيكل الرّبّ. وقدِ استجابَ الله لصلواتهما، فحبلَتْ حنّةُ في شيخوختها ورُزِقَتْ بطفلةٍ هي والدةُ الإله، وقد قدَّماها للهيكل عندما بلغتْ عامَها الثالث.

لا يَغفَلُ عن بالنا أنّ جميعَ عذارى إسرائيل المؤمنات كنَّ يَنتَظِرنَ في تلك الحقبة التاريخيّة مجيءَ المسيح من أحشائهنَّ كقراءةٍ إيمانيّةٍ لنصِّ سفر أشعيا المتكلِّم عن الحبل البتوليِّ بالمسيح المنتَظَر.

فإذا كانت عطيّةُ الله، مريم، تخصُّ الخليقةَ بأسرها، فإنّ يواكيم وحنّة هما صورةُ هذه الخليقة الَّتي بَقِيَتْ في العقر منذ أنْ سَقَطَ آدم وحواء في المعصية. وكما أنّ يواكيم وحنّة صورةُ العالم العقيم، كذلك مريم صورةُ العالم الجديد المُخصِب، صورةُ الكنيسة الَّتي سنراها لاحقًا في دراستنا هذه. وهنا لا بدّ لنا أن نُشيرَ إلى عِظَةٍ بليغةٍ وبديعةٍ ألقاها **يوحنّا الدمشقيّ**[٧] (٦٦٠-٧٤٩م) في المعبد الَّذي وُلِدَت فيه العذراءُ الطّاهرة، قرب بركة الغنم، حيث هتفَ قائلاً: "السلامُ عليك، يا بركة الغنم، هيكل والدة الإله الجزيل القداسة. السلام عليك، يا بركة الغنم، مسكن الملكة الوراثيّ. السلام عليك، يا بركة الغنم حظيرة يواكيم في ما مضى، والحظيرة السَّماويَّة لقطيع المسيح الرُّوحيّ الآن. لقد كنت تستقبلين في ما مضى ملاك الله مرّةً واحدة في السنة، يأتي ليحرِّكَ الماء، ولا يَشفي إلاّ

---

[٧] وُلِدَ في دمشق نحو سنة ٦٦٠م من إحدى كبريات الأُسر المسيحيّة. وكان أبوه الوجيه سرجون بن منصور يتولَّى إدارة بيت المال عند الفتح الإسلاميّ. لمعلوماتٍ إضافيّة حول **الدمشقيّ**، أنظر الملحق رقم (٢).

مريضًا واحدًا، أمّا الآن فأنت حائزة على قوّاتٍ سماويَّةٍ كثيرة، تحتفلُ معنا بوالدة الإله لُجَّةِ العجائب وينبوع الأشفيّة للعالم أجمع. السلام عليك، يا مريم طفلة القدّيسة حنّة الجزيلة الوداعة"[٨].

أمّا **أندراوس الكريتيّ** (٦٦٠-٧٢٠م) فأعلن في عظةٍ له عن ميلاد أمِّ الله، كيف أنّ مريم كانت منذ الأزل في فكر الله الخلاصيّ، وأنّه [الله] اختارها من بين جميع الأجيال ليتجسَّدَ في أحشائها النّقيّة، متَّخذًا جسدًا بشريًّا، ليكونَ هو آدم الجديد والأبديّ الَّذي يخلِّص القديم وينقله من الفساد إلى الحياة الأبديّة: "أرخى انحطاط الخطيئة بظلاله القاتمة على سحر أصلنا النبيل وجماله. ولكن حين وُلِدَت أُمُّ الجمال الأسمى، استعادت طبيعتنا نقاءها واتّخذت الشكل المثاليّ الجدير بالله. لقد فضّلنا جميعًا العالم السفليّ على العالم العلويّ، ولم يتبقّ لنا أيّ أملٍ بالخلاص؛ فطلبت حالة طبيعتنا النّجدة من السّماء... إلى أن قرّر صانع الكون الإلهيّ أخيرًا، بإرادته الطيِّبة، إظهار عالم جديد، عالم آخر، يسوده التناغم والنضارة. ألم يكن مناسبًا لعذراء غايةٍ في النّقاء وخاليةٍ من الشوائب أن تكون، بادئ ذي بدء، في خدمة هذه الخطّة الغامضة؟... وهذه العذراء، أين نجدها، إذا لم يكن ذلك في هذه المرأة الفريدة من بين النّساء، الَّتي اختارها خالق الكون قبل كلّ الأجيال؟ نعم، هذه هي والدة الله، مريم ذات الإسم الإلهيّ الَّتي أعطى حشاها الجسد للإله المتجسِّد، وقد حضّرها هو نفسه بطريقةٍ تفوق الطّبيعة لتكون هيكله... **وكما غرف في جنّة عدن من الأرض العذراء الخالية من العيب القليل من الطّين ليصنع آدم الأوّل، كذلك، في لحظة تجسُّده الخاصّ استخدم طينًا آخر هي العذراء النّقيّة الَّتي بلا دنس**، الَّتي اختارها

[٨] مجموعة باحثين، **تاريخ الفكر المسيحيّ**، ص٦٦٩-٦٧٠.

من بين كلّ خلائقه. وبها صنعنا من جديدٍ من جوهرنا نفسه وأصبح آدم الجديد، هو الّذي خلق آدم، حتّى يخلِّص القديم بالجديد والأبديّ" (أُخذ هذا المقطع من موقع الشبكة العربيّة الأرثوذكسيّة الأنطاكيّة).

من هنا واستنادًا إلى النّصوص الليتورجيّة الآبائيّة الّتي وصفت هذا الحدث المقدّس، نُدرك أنّ ميلاد العذراء الطّاهرة قد **افتتح العهد المسيحانيّ الخلاصيّ الثلاثيّ الأبعاد**: حلّ اللعنة القديمة، وتحطيم شوكة الموت وتدمير الجحيم، ومنح الحياة الأبديّة.

٤) **مريم خادمةُ السرِّ الإلهيّ** بقبولها الطَّوعيّ (الاختياريّ) وباستسلامها الإيمانيّ لمخطَّط الله الخلاصيّ "البشارة" (لو ١: ٢٦-٣٨)

إنّ **الحريّة** هي من مميّزات حدث البشارة الجوهريّة، إذ تتجلّى أهميّتُها بحيويّةٍ في شخص العذراء مريم. فهي، بعد المسيح ابنها، النموذجُ الأسمى للإنسانيّة الحقّ وإيقونتُها. ويُظهر حدث البشارة كما رواه الإنجيليّ لوقا كيف أنّ رئيس الملائكة جبرائيل لم يكتفِ بتبليغ مريم المخطّط الإلهيّ بل **انتظر إجابتها الحرّة والإراديّة** (راجع لو ١: ٣٨) حيث كان باستطاعتها أن ترفض. صحيحٌ أنّ الله قد اتّخذ المبادرة، لكنّ تجاوب مريم وموافقتها كانا ضروريَّين. فالبشريَّة أعلنت في شخص مريم قبولَها بأن يصير الكلمة جسدًا ويُقيم مسكنه بين البشر. هذا لأنّ المشيئة الإلهيّة ومع أنّها خَلَقَتِ الإنسان وحدها، إلاّ أنّها لا تستطيع أن تخلِّصَه من دون مساعدة المشيئة البشريّة. مأساةُ الحريّة تُحَلُّ بقول مريم: "هاءنذا أَمَةٌ للرّبّ" (لو ١: ٣٨). هذا هو الأساس

الَّذي سنبني عليه تحليلنا لهذا الحدث المفصليّ في تاريخ البشريّة، والَّذي يأتي على الشّكل التّالي:

١. مريمُ في فكر الله " الاصطفاء والاختيار" (لو ١: ٢٦-٣٣)

إنّ قصَّةَ البشارة بميلاد يسوع تُركِّزُ انتباهَنا إلى شخص الأمّ العذراء المخطوبة لرجلٍ من بيت داود اسمُه يوسف، واسمُ العذراء مريم. فما مجيءُ الملاك جبرائيل إلى بيتها في النّاصرة إلاّ رسالةٌ واضحة على أنّ الرَّبَّ الإله اختارَ هذه العذراء من بين جميع عذارى إسرائيل، لتكونَ العُلَّيقةَ الملتهبةَ الَّتي ستحوي نارَ الألوهيّة ولن تَحتَرِق، كما رأى موسى واختبرَ في سفر الخروج: "... فتجلَّى له ملاكُ الرَّبِّ في لهيبِ نارٍ من وَسَطِ العُلَّيقة، فنَظَرَ فإذا العُلَّيقةُ تتوقَّدُ بالنَّار وهي لا تَحترِق..." (خر ٣: ٢)؛ وهي أيضًا البابُ المُغلَقُ الَّذي لا يدخلُ منه رجلٌ، على ما جاء في سفر **حزقيال النبيّ**: "فقالَ ليَ الرَّبّ: إنّ هذا البابَ يكونُ مُغلَقًا لا يُفتَحُ ولا يدخلُ منه رجلٌ لأنّ الرَّبَّ إلهَ إسرائيل قد دَخَلَ منه فيكونُ مُغلَقًا" (حز ٤٤: ٢). قوَّةُ هذه البُشرى تكمنُ في التّناغم والانسجام بين **عطيَّة الله وحريَّة الإنسان**. فالحوارُ الَّذي جَمَعَ مُرسَلَ الله بالعذراء قائمٌ في الأساس على الدعوة الإلهيّة من جهة، وعلى تجاوب الإنسان الحرّ مع الدعوة الموجَّهة إليه من جهةٍ أخرى، كما حدثَ تمامًا مع مريم.

وكما ذكرنا في المقدّمة آنفًا أنّ مريم قد احتضنتْ عملاً وإبداعًا ثالوثيًّا في شخصها، فإنّنا نُبيِّن الآن وبصورةٍ بديعةٍ ومُسهَبَةٍ، **عملَ الله الثالوث الأقدس في سرّ التجسّد** من خلال مبدأ الاختيار والاصطفاء لمريم والدة الإله:

فالآبُ منذ الأزل قد ارتضى أن تصيرَ مريمُ أُمًّا لابنه الوحيد وفي الوقت المعيَّن أَرسل الملاكَ جبرائيل ليبشِّرَها؛ وإذا **بالرُّوح القدس** يرفعُ البتولَ مريم ويقدِّسُها خالقًا فيها مقدرةً على أن تسعَ اللاهوتَ وقوّةً أخرى على ولادة ناسوت الكلمة؛ وأمّا **الكلمة**، فهو تلك القوّةُ المظلِّلةُ للبتول، والمتّخذةُ من دمائها الطّاهرة مع النّاسوت نفسًا شبيهةً بنفسنا. تحت تأثيره يتكوّنُ الجنينُ دفعةً واحدة، مستندًا إلى أقنوم ابن الله، الَّذي يَصِحُّ حسب نظريّة أرسطو، أن يُدعى زرعًا إلهيًّا. ولهذا، فالمسيح مركَّبٌ من طبيعتَين كاملتَين، وخاضع لولادتَين، ولا يمكن أن يُسمَّى إنسانًا متألِّهًا بل إلهًا متأنِّسًا، إذ إنّه اتَّخذ جسمًا ونفسًا بشريَّةً متّحدَين تمام الاتّحاد بأقنوم الكلمة؛ وهنالك أخيرًا **مريم البتول**، فهي والدةُ الإله لأنّ غاية الأُمومة الأُقنوم وليس الطّبيعة. فقد تقدّست بنوعٍ فائقٍ في حين التجسُّد وأصبحت قابلة، بإبداع الرُّوح القدس، أن تسعَ اللاهوتَ في حشاها وأن تَلِدَ النّاسوت. فهي تقومُ نحو ابنها بما تقوم به كلّ أُمٍّ نحو ثمرة حشاها؛ ومريم في كلِّ هذا تبقى عذراء في الحبل وفي الولادة وبعدها.

٢. بتوليَّة مريم (لو ١: ٣٤)

إنّ بتوليّة مريم هي **الصّورة السّماويّة للشَرِكة مع الله الَّتي من جرّائها كان الكائن البشريّ قبل الخطيئة لابسًا الكلمة والرّوح القدس**. بعباراتٍ أخرى، تعني **البتوليّة عيش حالة النّعمة والبرارة الفردوسيّة الأولى**، إذ إنّ مريم هي الخليقةُ الَّتي فيها يتحقّق في الحياة الحاضرة الاتّحادُ بالله.

من هذا المنطلق، فإنّ الدعوة الَّتي وجَّهَها الله للعذراء من خلال الملاك جبرائيل، لأن تَحبَلَ وتَلِدَ ابنًا وهي بعدُ مخطوبةٌ ولم تَعرِفْ رجلاً، دليلٌ ساطِعٌ على بتوليّة مريم الدَّائمة قبل ولادتها يسوع وأثناءَها وبعدها من خلال نصَّين إنجيليَّين هامَّين هما:

أ. إنجيل متى ١: ١٨-٢٥

تَظهرُ بتوليَّةُ مريم في هذا النصِّ الإنجيليّ من خلال الآيات التالية:

- "لَمَّا خُطِبَتْ مريمُ أُمُّه ليوسف وُجِدَتْ قبل أن يجتمِعا حُبلى من الرُّوح القدس" (آ ١٨)؛
- "يا يوسفُ ابنَ داود، لا تَخَفْ أن تأخُذَ امرأتَكَ مريم، فإنّ المولودَ فيها إنّما هو من الرُّوح القدس" (آ ٢٠)؛
- "... فأخذَ امرأتَهُ ولم يَعرِفْها **حتّى** وَلَدَتِ ابنَها البكرَ وسمّاهُ يسوع" (آ ٢٥).

إنّ الآيةَ الأخيرة هي الآيةُ التي يتَّخِذُها بعضُ المدَّعين على بتوليَّة مريم بقولهم إنّ كلمة "حتّى" تُؤكِّدُ أنّ يوسف عَرَفَ مريم بعد ولادتها يسوع. إنّ كلمةَ **"حتّى"** تَدُلُّ على **الاستمراريَّة**، وهي حسب أفضليّة النُحَّاة، **تُدخِلُ ما بعدها في حُكم ما قبلها**: فإن كان ما قبلها مُثبَتًا كان ما بعدها مُثبَتًا، وإن كان مَنفِيًّا كان ما بعدها مَنفِيًّا. على سبيل المثال:

- "ها أنا معكم كلَّ الأيَّام **حتّى** مُنتَهى الدَّهر" (مت ٢٨: ٢٠). هذا يعني أنّ المسيحَ كان وسيبقى دائمًا مع تلاميذِه.

- "ولم تَلِدْ ميكالُ ابنةُ شاول ولدًا **حتّى** يومَ مماتِها" (٢صم ٦: ٢٣). فهل هذا يعني أنّها أَنجَبَتْ طفلاً بعد مماتِها؟
- فالآيةُ "لم يَعرِفْها **حتّى** وَلَدَتِ ابنَها البكرَ وسمّاهُ يسوع" تعني بعد كلٍّ هذه الشروحات أنّ يوسفَ ما عَرَفَ مريمَ لا قبلَ الولادة ولا في الولادة ولا بعد الولادة: إنَّها بتولٌ دائمة. وعلى هذا الأساس تُشدِّدُ الكنيسةُ البيزنطيّة في لاهوتها الإيقونوغرافيّ (أي فنّ التَّصوير الكنسيّ) لكلّ أيقونات العذراء على إظهار نجومٍ ثلاث، واحدة على جبينها، واحدة على كتفها الأيمن وأخرى على كتفها الأيسر، علامةً على أنّ مريم حافظتْ على بتوليَّتها قبل الولادة وفي الولادة وبعد الولادة.

ب. إنجيل لوقا ١: ٣٤

تَبرُزُ بتوليَّةُ مريم من خلال ردَّة فعلها على كلام الملاك جبرائيل الَّذي بَشَّرَها بأنَّها ستحبَلُ وتَلِدُ ابنًا تُسمِّيه عمَّانوئيل، فما كان من مريم إلاّ أن عبَّرَتْ عمّا يجولُ في قلبها من مخاوفَ، قائلة: "كيفَ يكونُ هذا وأنا لا **أعرِفُ** رجلاً؟". إنّ الفعل المستَعمل هنا **"عرف"** يدلّ في الكتاب المقدّس على العلاقة الجسديّة بين الرّجل والمرأة (تك ٤: ١، ١٧، ٢٥...). فاعتراضُ مريم على كلام الملاك هذا بأنْ ليست لها علاقاتٌ زوجيَّةٌ مع يوسف، كان مدخَلاً إلى وحي الملاك بأنّ المولودَ منها سيكونُ بقوّة الرُّوح القدس.

ت. بتوليّة مريم الدّائمة في "الفكر البروتستانتيّ الإنجيليّ"

استكمالاً لموضوع بتوليّة مريم الدّائمة، يقول **ماكس توريان**، مفكّرٌ ولاهوتيٌّ بروتستانيٌّ إنجيليّ: **"يؤكّدُ تقليدُ الكنيسة العريق بتوليّةَ مريم الدّائمة"**. وقد أقرَّ زعماءُ الإصلاح أنفسُهم في القرن السادس عشر أنّ **مريمَ دائمةُ البتوليّة**... فقد بَشَّرَ **لوثر** بعقيدة بتوليّة مريم الدّائمة طولَ حياتها. وفي الثاني من شباط سنة ١٥٤٦م، يوم عيد تقدمة المسيح إلى الهيكل، قال: "كانت بتولاً قبل الحبلِ والولادة، وظلَّتْ بتولاً حتى الولادة وبعدها".

ولم يكن **زفينكلي** أقلّ تأكيدًا من لوثر، فتكلّمَ كثيرًا على بتوليّة مريم الدّائمة، فأعلن في مدينة برن في كانون الثاني سنة ١٥٢٨م: "إنّي أستشهد بكنيسة زوريخ التقيّة وبجميع مؤلّفاتي لأعترفَ بمريم بتولاً دائمًا وقدّيسة". وكان سنة ١٥٢٤م في عظة عن مريم العذراء أكَّدَ بتوليّتَها الدّائمةَ بقوله: **"إنّي أؤمن إيمانًا ثابتًا، استنادًا إلى ما جاء في الإنجيل المقدّس، أنّ هذه العذراءَ الطّاهرة قد وَلَدَتْ لنا ابنَ الله، وأنّها ظلَّت، في الولادة وبعدها أيضًا، عذراءَ نقيّةً وبكرًا إلى الأبد"**[٩].

وكذلك **كالفين**، وإنْ تَرَدَّدَ في استعمال لقب "والدة الإله" بسبب ما يَحمِلُهُ من خطرٍ على سوء فهم علاقة مريم العذراء بالله، فقد كان صريحًا في موضوع بتوليّة العذراء الدّائمة، **ورفضَ أن يكونَ لمريم أولاد غير يسوع**. أمّا **ماكس توريان** فيوجزُ إيمانَ المصلحين بقوله: "إنّ موقفَ مريم من احترامها

---

[٩] المطران كيرلّس بسترس، **مريم العذراء أمّ ربِّنا يسوع المسيح**، ص١١٧.

سرّ إعدادِها الأزلي يجعلُنا نَقِرُّ أنّ عقيدةَ مريم الدَّائمةَ البتوليّة التقليدية تَنسَجِم، على الأقلّ، مع دعوةِ مريم الفريدة، المكرَّسةِ تمامًا لخدمة الله، والممتلئةِ من نعمةِ الله، والمتّجهةِ كلّيًا نحو ملكوت الله. **مريم، في بتوليّتها، هي علامةُ الخليقةِ المُصطَفاة والمكرَّسة والممتلئةِ من ملءِ الله**، الَّتي لم تَعُدْ تَنتظِرُ شيئًا غيرَ الاكتمال النهائي في ملكوت الله الظَّاهر، وتَعيشُه الآن بشكلٍ خفيٍّ ومُسبَّق. هي علامةُ الكنيسةِ المقدّسة الَّتي لا تنتظرُ ولا ترجو سوى عودة المسيح"[١٠].

ث. بتوليَّة مريم الدّائمة في لاهوت الكنيسة الجامعة

إنّ هذه العقيدة، كغيرها من العقائد المريميّة، كانت حتميّة، ليس فقط لفهم سرِّ مريم، إنّما لارتباطها بسرِّ المسيح بدرجةٍ أولى. فإعلانُ الكنيسة لمريم كبتولٍ دائمة، قبل الولادة وأثناءها وما بعدها، والَّذي تمّ في **مجمع القسطنطينيّة الأوّل في العام ٥٥٣م**، لم يكن إلاّ خلاصة لتعليم آباء القرون السّابقة، وتتويجًا لجهادهم في إعلان حقيقة المسيح في وجه الهرطقات. وقد أعلنَ مجدَّدًا **المجمع اللاتراني المنعقد في العام ٦٤٩م** هذه العقيدة، إذ قال: "إنْ كان أحدٌ لا يعترف، بحسب تعليم الآباء القدّيسين، أنّ مريم القدّيسةَ الدّائمة البتوليّة والطّاهرة هي أمُّ الله حقًّا من حيث أنّها في ملء الزّمن قد حبلت بواسطة الرُّوح القدس من دون زرع، وولدت من دون فساد، وبقيت بتوليَّتُها مُصانةً حتّى بعد الولادة، ولادة الله الكلمة نفسه، المولود من الآب قبل كلِّ الدّهور، فليكن محرومًا"[١١].

---

[١٠] ماكس توريان، **مريم أمّ الرّبّ ورمز الكنيسة**، ص٤٩.

[١١] الأب بيار نجم، **مريم العذراء في فكر القدّيس أفرام السريانيّ**، ص٦٧.

٣. مريم عروسُ الرُّوح القدس (لو ١: ٣٥-٣٦)

إنّ الرّوح القدس قد حرَّرَ مريمَ من لعنة حوّاء وجعلَها إناءً قُدسيًّا لتتقبَّلَ في حشاها الإله المتجسِّد، ولكي يأخذَ منها الإلهُ جسدًا طاهرًا من الخطيئة الأصليّة. انطلاقًا من هذه القُدسيّة، بَدَّدَ الملاكُ جبرائيلُ مخاوفَ مريم بأنْ أَكَّدَ لها أنّ المولودَ منها سيكونُ بقوّة الرّوح القدس الَّذي سيَحِلُّ عليها، وأنّها ستَلِدُ القدُّوس ابن الله العَلِيّ، ولادةً تفوقُ كلَّ وصف، إذ هي ولادةٌ بتوليَّةٌ عُذريَّة، وبأنّ أليصابات العاقر هي أيضًا حُبلى في شيخوختها، إذ إنّه "ليسَ أمرٌ غيرَ ممكنٍ لدى الله" (لو ١: ٣٧).

فالمسيح، بحسب الإنجيليّ يوحنّا، لم يولد "لا من رغبة لحم، ولا من رغبة رجل" (يو ١: ١٣). وهو [المسيح] لهذا السبب بالذات، يستطيع أن يكون البدايةَ الجديدة وبكرَ الخليقة الجديدة. إنّها قوّةُ العليّ وعملُ روح الله مَن أنتج في مريم سرَّ الحبل البتوليّ. **العملُ الإلهيّ هذا هو شيءٌ مختلفٌ تمامًا عن علاقة الإنسان الزوجيّة**. فالحبلُ بيسوع هو خلقٌ جديد، وليس إنجابًا من جانب الله. بناءً على هذا المبدأ، **لن يُصبح الله بأيِّ شكلٍ من الأشكال الأبَ البيولوجيّ ليسوع**.

فالعبارةُ اللوقانيّة "الرّوح القدس سيُلقي بظلاله عليكِ" **لا تعني بأيِّ حالٍ من الأحوال** أنّ الرّوح القدس سيحلّ محلّ وظيفة الرجل الزوجيّة والبيولوجيّة، إذ إنّ عمله في مريم هو عملُ الخالق والمُبدِع وليس عملاً زوجيًّا بهدف الإنجاب. فإذا كان هذا عمل الخالق والمُبدع، فهذا يعني العودة

إلى زمن بدء الخلق، إلى الوقت قبل السّقوط في الخطيئة، إذ إنّ النّصّ اللوقانيّ ١: ٣٥ يُقرأ في كثيرٍ من الأحيان انطلاقًا من هذا المنظور: **كما** كان الرّوح القدس عند الخلق "يُرِفُّ على وجه المياه" (تك ١: ٢)، **هكذا** يُظلِّلُ الرّوح القدس مريم عند بدء زمن الخلاص، كما يظهر في الرسم البيانيّ التّالي:

روح الله	**عند بدء الخلق**	**يُرِفُّ على وجه المياه**
الرّوح القدس	**عند بدء زمن الخلاص**	**يُلقي بظلاله على مريم.**

فمع قبول البتول القدّيسة لما قيل لها، وافى الرّوحُ القدسُ إليها... مُطَهِّرًا إيَّاها وواهبًا لها قوَّةً قابلَةً للاهوت الكلمة ومُوَلِّدَةً معًا. فحينئذٍ حكمةُ الله العليّ ذات الأقنوم وقوّته، ابن الله الَّذي جوهرُه جوهرُ أبيه، ظَلَّلَها بمنزلة زرعٍ إلهيّ. وكَوَّنَ لذاته من **دمائها** النَّقيَّة الكلِّيَّة الطُّهر جسمًا ذا نفسٍ عاقلة، ناطقة، مقدّمة جبلتنا **لا عن طريقة الزّرع بل عن طريقة الإبداع من الرّوح القدس**... وبحسب **الدمشقيّ**، "حصل التجسّد بفعل **الرّوح القدس** الَّذي جعل العذراء أهلاً لأنْ تتقبّل في ذاتها لاهوت الابن، وكذلك **بالكلمة نفسه** الَّذي صنع من جسد العذراء بواكير ناسوته"[١٢].

من هنا، يُفسِّر الحبلُ بيسوع بقدرة الرّوح القدس لماذا يُدعى يسوعُ "ابنَ الله"، ويُشير إلى تحقيق **نبوءة ناتان النبيّ** بمجيءِ ملكٍ من نسل داود يدعى "ابنَ العَلِيّ": "لقد أخبركَ الرَّبُّ أنّه سيُقيمُ لكَ بيتًا، وإذا تَمَّتْ أيّامُك واضطجعتَ مع آبائك، أُقيمُ مَن يَخلُفُكَ مِن نسلِكَ الَّذي يخرجُ من صُلبِكَ، وأثبِّتُ

[١٢] فلاديمير لوسكي، **اللاهوت الصّوفيّ لكنيسة الشرق**، ص١١٨.

عرشَ مُلكِهِ إلى الأبد. أنا أكونُ له أبًا، وهو يكونُ لي ابنًا، بل يكونُ بيتُك وملكُك ثابتَين إلى الأبد أمام وجهك، وعرشُك يكونُ راسخًا إلى الأبد" (٢صم ٧: ١١-١٦).

فالوعدُ يتناولُ في جوهره استمرار نسل داود على عرش إسرائيل. ويرى لوقا أنّ هذا الوعد قد تحقَّقَ في شخص يسوع المسيح ولكن على نحوٍ روحيّ. فالمسيحُ سيَملِك، ولكنَّ ملكوته سيكون ملكوتًا روحيًّا. لن يُعيدَ مملكة داود، بل سيُؤسِّسُ ملكوت الله على الأرض، ولن يكون لهذا الملكوت انقضاء.

مريمُ العذراء هي مَسكِنُ الله، إذ فيها سَكَنَ كلمةُ الله. وهنا تجدرُ الإشارةُ إلى أنّ لوقا استخدم، للتعبير عن تلك السُكنى، الألفاظَ عينَها الَّتي استخدمها العهدُ القديم لحضور الله في تابوت العهد وخيمة الموعد الَّتي كان يوضعُ فيها. فكما اختبرَ **موسى** حضورَ الله بواسطة **الغمام** الَّذي غطّى خيمةَ الموعد وكان **حالاًّ عليه** ومجدُ الرَّبِّ قد ملأَ المسكن (خر ٤٠: ٣٤-٣٥)، كذلك أيضًا، اختبرتْ **مريمُ** حضورَ الله بواسطة **الرُّوحِ القدس** الَّذي حلَّ عليها و**قدرةِ العليِّ** الَّتي ظلَّلَتها (لو ١: ٣٥).

بين نصَّي خروج ولوقا صِلَةٌ واضحة أرادَها الأخيرُ لإظهار تتابُع العهدَين والتّأكيد على أنّ مريم العذراء هي مَسكِنُ الله، وأنّ الله يتجلّى فيها كما كان يتجلّى في خيمة الموعد وتابوت العهد. يتضمّن هذا التجلّي عنصرَين هما: **الغمامُ المنيرُ** الَّذي يُظلِّلُ خيمةَ الموعد ويبقى على نحوٍ ما فوقَها وخارجَها، ومجدُ الرَّبِّ الَّذي يملأ المسكن. فالغمامُ الَّذي هو في العهد القديم **رمزٌ لحضور الله**، يصير هنا شخصيًّا ويُدعى **"الرُّوحَ القدس"** أو

"قدرةَ العليّ". فالرّوحُ القدس، قدرةُ العليّ، يحلّ على مريم العذراء ليظلّلها كما كان الغمام يظلّل خيمة الموعد. ونتيجة حضور الله على مريم العذراء هي تجسّد كلمة الله وابن الله في أحشائها: "ومن أجل ذلك فالمولودُ منها سيُدعى قدّوسًا وابنَ الله". فكما كان مجد الله يملأ المسكن الَّذي كان يظلّله الغمام، هكذا سيسكن القدّوس ابن الله في أحشاء مريم العذراء بعد أن تظلّلها قدرة العليّ.

لتلخيص ما تقدّم ذكره حول نصَّي الخروج ولوقا، نضعُ أمام القارئ رسمًا بيانيًّا يُبيِّن كيف تحقَّق اختبارُ موسى في العهد القديم في تدبير الله الخلاصيّ في العهد الجديد من خلال مريم:

العهد القديم	**موسى**	**الغمام**	**مجد الرَّبّ**
العهد الجديد	**مريم**	**الرُّوح القدس**	**قدرة العليّ**

يسوعُ المسيح هو مجدُ الله على الأرض. هذا ما سيَظهرُ أيضًا من خلال رواية تجلِّي يسوع على جبل ثابور (لو ٩: ٢٨– ٣٦). فبطرسُ ويوحنّا ويعقوب شاهدوا مجد المسيح الَّذي تجلّى على جبل ثابور كما تجلّى مجدُ الله على جبل سيناء: "وصعد موسى الجبل فغطّى الغمام الجبل. وحلَّ مجدُ الرَّبِّ على جبل سيناء، وغطَّاه الغمامُ ستّةَ أيّام. وفي اليوم السابع دعا الرَّبّ موسى من وسط الغمام" (خر ٢٤: ١٥– ١٦). إنّ مجدَ الله حاضرٌ على الأرض في شخص يسوع ابن الله. لذلك في التجلّي "وانطلق صوتٌ من الغمام يقول: هذا هو ابنيَ الَّذي اختَرتُه، فله اسمعوا" (لو ٩: ٣٥).

في المعنى عينه يقول إنجيل يوحنّا: "والكلمةُ صارَ جسدًا و**سكنَ فينا**، وقد أَبصَرْنا مجدَهُ، مجدَ وحيدٍ من الآب مملوءًا نعمةً وحقًّا" (يو ١: ١٤). إنّ لعبارة **"سكنَ فينا"** دلالاتٍ كتابيّةً تكتسبُ أهميّةً في كتابات العهد القديم وترتبطُ بموضوعٍ كتابيٍّ، كان من إحدى مكوِّنات حياة الشّعب العبريّ الدينيّة، هو **"خيمة الاجتماع"** من خلال الفعل العبريّ "שָׁכַן" واليونانيّ "κατασκηνόω". فلقد دعا الله بني إسرائيل إلى صُنع خيمةٍ تكون علامةً **لسُكناه في وَسْطهم** (خر ٢٥: ٨-٩؛ ٢٩: ٤٥؛ أح ٢٦: ١١)، بحيث أصبحت خيمةُ الاجتماع هذه المكانَ الَّذي يُتَرجِمُ حضورَ الله على الأرض.

ففي زمن عودة بني إسرائيل من زمن المنفى البابليّ، يُعلن **النبيّ زكريّا** قائلاً: "إهتفي وافرَحي يا بنت صهيون، فهاءنذا آتي و**أسكنُ في وسطِكِ**، يقول الرَّبّ" (زك ٢: ١٤). لقد وصف النبيّ حزقيال الهيكلَ المثاليَّ الَّذي سيَبنيه الله **ليسكنَ** في وسط شعبه **للأبد**، فقال: "وقال لي [الرَّبّ]: يا ابنَ الإنسان، هذا مكانُ عرشي ومكانُ أخامِصِ قَدَمَيَّ والَّذي **أسكنُ** فيه في وَسْطِ بني إسرائيل **للأبد**" (حز ٤٣: ٧).

فخبرة شعب الله في العهد القديم كانت أساسَ إعلان يوحنّا في مقدّمة إنجيله أنّ الكلمةَ جَعَلَ مَسكِنَهُ في وَسْطِنا، نَصَبَ خيمتَه في ما بيننا (يو ١: ١٤)، بحيث أراد أن يؤكِّدَ **أنّ جسد يسوع المسيح هو المكان الجديد لحضور الله على الأرض**، وبالتّالي، يُصبح يسوعُ البديلَ عن الخيمة القديمة. وهو الإنجيلُ نفسُه الَّذي سيُقدِّمُ يسوع على أنّه البديلُ عن الهيكل القديم (يو ٢: ١٩-٢٢).

بينما يُستَعمل الفعل **"سَكَنَ"** في **سفر الرؤيا** للدلالة على:

١. **حضور الله في السّماوات:** "... لذلك هم أمام عرش الله يعبدونَه نهارًا وليلاً في هيكله، والجالِسُ على العرش يسكنُ فوقهم" (رؤ ٧: ١٥)؛

٢. **الرؤية العظيمة لأورشليم السّماويّة** كاكتمالٍ نهائيٍّ لِما كان الأنبياءُ قد وعدوا به من أنّ الله سيسكنُ في وَسْطِ شعبه ويكونُ لهم إلهًا: "وسمعتُ صوتًا جَهيرًا من العرش يقول: هوذا مسكن الله مع النّاس، فسيَسكنُ معهم وهم سيكونون شعوبَه وهو سيكون [اللهُ معهم]" (رؤ ٢١: ٣).

رسمٌ بيانيٌّ توضيحيّ:

العهد القديم الله يسكنُ في وَسْطِ شعبه بواسطة خيمة الإجتماع

العهد الجديد الله يسكنُ في وَسْطِ شعبه بيسوع المسيح.

من هنا نَعي أنّ **الجسد الَّذي اتّخذَه ابنُ الله هو خيمةُ الموعد الجديدة حيث يسكنُ المجدُ الَّذي هو ملءُ النِّعمة والحقِّ في ما بيننا.** اللهُ حاضرٌ بين البشر في جسد ابنه الَّذي فيه يشّع مجده. الغمامُ الَّذي يُظلِّلُ المسيحَ في التجلّي، وقدرةُ العليّ الَّتي تظلّل مريم العذراء في البشارة، إشارةٌ إلى سموِّ الله الَّذي يتجلّى، وفي الوقت عينه، يبقى مُتساميًا عن مكان تجلّيه. **فالغمام هو رمز الآب** الَّذي يُسمعَ صوتُه آتيًا من السماء. الآب متسامٍ وفوق المسكن. والابن هو حضور الآب، هو تجلّي مجده داخل المسكن. كذلك مريم العذراء تظلّلها من الخارج قدرة العليّ، وتحمل في داخلها مجد الله، يسوع المسيح ابن الله المتجسّد.

على ضوء هذه المقارنة، **تبدو مريمُ العذراء، في لحظة حبلها بالمسيح، مسكن الله الجديد وقدس الأقداس وخيمة الموعد** يظلّلها الغمامُ المنير، الرّوحُ القدس، قدرةُ العليّ، ويَحِلُّ فيها مجدُ الله، الابنُ الحبيب والوحيد، الممتلئُ نعمةً وحقًّا، الكلمةُ الّذي صار جسدًا وأقام سكناه في ما بيننا، الإلهُ الحاضر في ما بين خلائقه.

٤. مريم خادمةُ السِّرِّ الإلهي (لو ١: ٣٨)

إنّ قمّةَ حدث البشارة تكمنُ في **تجاوب الإنسان مع عطيَّة الله**، إذ إنّ الله لا يفرض ذاته على الإنسان، بل يقدِّم ذاته وينتظر جوابَ الإنسان. فمريمُ رغم كلِّ مخاوفها الدينيّة (الخوف من الرجم) والاجتماعيّة (أن تَظهرَ للعيان حُبلى وهي غير متزوّجة)، تفاعلتْ مع مخطَّط الله في حياتها بطاعتها وإيمانها بأنّ **السَيرَ مع الله لا يمكن أن يكونَ قفزةً في المجهول**، وبهذا أصبحتْ مريمُ **حوَّاءَ الجديدة**. فحوّاءُ القديمةُ جَلَبَتْ بكبريائها ومعصيَّتها أوامر الرَّبِّ الإله الموت، والخطيئة، والعار، والطرد من الوطن الأمّ (الفردوس) وفقدان الهُويَّة الإلهيَّة الَّتي ميَّزَتْ خلقَ الإنسان؛ أمّا حوَّاءُ الجديدةُ، فجَلَبَتْ بتواضعها واستسلامها وطاعتها البنويّة لله الحياة، النِّعمة، الكرامة، عودة الإنسان إلى وطنه الأمّ: فقيمة حوّاء الجديدة تكمن في ارتباطها الوثيق **بآدمَ الجديد**، المسيح يسوع (راجع رو ٥: ١٢-٢١؛ ١كو ١٥: ٢٠-٢٢، ٤٤-٤٩). على هذا الأساس نُلاحظ أنّ التراث الإيقونوغرافيّ البيزنطيّ لا يُمكِنُ أن يُصوِّرَ مريم لوحدها بعيدًا عن طفلها الإلهيّ في كلّ الأيقونات الخاصّةِ بوالدة الإله.

"فقالتْ مريم: ها أنا أَمَةٌ للرَّبّ، فليكُنْ لي بحسب قولِكَ". فلفظةُ "أَمَة الرَّبّ"، على غرار لفظة "عبد يهوه" (راجع أش ٥٢- ٥٣)، تعني في الكتاب المقدّس اختيارًا من قِبَلِ الله لرسالةٍ خاصّة، وفي الوقت عينه، استسلامًا من قِبَلِ الإنسان وخضوعًا لتحقيق تلك الرسالة. لذلك تُضيفُ مريم: "فليكن لي بحسب قولك"، مشيرةً بذلك إلى رغبتها في إسهامها الفعليّ في تحقيق القصد الإلهي. يُعلِّق **أوريجانوس** على هذه الآية، فيقول: "ها أنا أَمَةُ الرّبّ، فليكن لي بحسب قولك. وكأنّها تقول: أنا لوحةٌ للكتابة، فليكتب عليّ الكاتبُ ما يشاء، وليصنع بي ربُّ الكون ما يُريد"[١٣]. فقط في مريم –المرأة والعذراء والأُمّ–، في جوابها لله، تجد الكنيسةُ بدايةً حيَّةً شخصيَّةً لذاتها. **هذا الجواب هو تعبيرٌ ساطعُ الضيِّاء عن طاعة مريم الكاملة في الحبّ.**

وهنا لا بدّ لنا أن نُشيرَ إلى العِظة الَّتي ألقاها **نيقولاوس كابازيلاس**[١٤] عن البشارة، لأهميَّتها في اختصار دور مريم في سرّ المسيح وسرّ الكنيسة، بقوله: **"لم يكنِ التجسُّدُ من عمل الآب وحِكمَتِهِ وروحِهِ فقط، بل أيضًا من عمل العذراء ومشيئتها وإيمانها**، إذ إنّ هذا المخطّط، من دون رضى الكلّيّة النقاوة وسند إيمانها، لَم يكن ليتمّ، وكأنّه قد غابت عنه وساطة الأقانيم الثلاثة الإلهيّة بعينها. فما اصطفاها الله أُمًّا، وما استعارَها الجسدَ الَّذي شاءت أن تهبَه إيّاه إلاّ بعد أن هذّبها وأقنعها. فكما شاء أن يتجسّد، كذلك شاء أن تَلده أُمُّه ولادة حرّة، برضاها التامّ"[١٥].

---

[١٣] مجموعة باحثين، **تاريخ الفكر المسيحيّ**، ص٤٢١.

[١٤] نيقولاوس كابازيلاس لاهوتيٌّ أرثوكسيّ. لمعلوماتٍ إضافيّة أنظر الملحق رقم (٣).

[١٥] مشير عون، **الإيقونة بهاء وجهك**، ص٢١٤.

٥) **مريم تابوتُ العهد الجديد** "زيارتها لأليصابات" (لو ١: ٣٩-٥٦)

ذَهَبَتْ مريمُ حاملةً حضورَ الله، كتابوت العهد قديمًا، إلى "مدينةٍ في يهوذا"، وهي المعروفةُ اليوم باسم "عين كارم"، وهي قائمةٌ في الجبال قريبًا من أورشليم. ذَهَبَتْ مسرعةً لتبشِّرَ أقاربَها، فقراءَ الربّ، بالبشرى الصَّالحة، بشرى الخلاص المسيحانيّ. أمام هذا المشهد يتبادرُ إلى ذهننا نصُّ أشعيا القائل: "ما أجملَ على الجبالِ أقدامَ المبشِّرينَ المُسمِعينَ بالسَّلامِ المُبشِّرينَ بالخيرِ المُسمِعينَ بالخلاصِ القائلينَ لصهيونَ قد مَلَكَ إلهُكِ. أصواتُ رُقَبائِكِ قد رَفَعوا أصواتَهم وهم يُرنِّمونَ جميعًا لأنّهم يَنظرونَ عِيانًا حين يَرجِعُ الرَّبُّ إلى صهيون. إندَفِعي رَنِّمي جميعًا يا أَخرِبَةَ أورشليم، فإنّ الرَّبَّ قد عَزَّى شعبَهُ وافتدى أورشليم. قد كَشَفَ الرَّبُّ عن ذِراعِ قُدسِهِ على عيونِ جميعِ الأُمم، فرأَتْ كلُّ أطرافِ الأرضِ خلاصَ إلهِنا..." (أش ٥٢: ٧-١٠).

ذَهَبَتْ مريمُ إلى قرب أورشليم لتُبشِّرَ شعبَ الله، في شخص أليصابات وزخريّا، بأنّ وعودَ الرَّبِّ بمجيء المسيح الملك قد تَمَّت. هذا المسيحُ الَّذي "سيَملِكُ على بيت يعقوب إلى الأبد" (لو ١: ٣٢-٣٣)، وتحملُ إليه بشرى السَّلام والسَّعادة والخلاص[١٦]. إنّ إسراعَ مريم وفرحَها سيميِّزان من بعدها رسالةَ الرسل والكنيسة. فالكنيسة، وقد سَكَنَ فيها الرّوحُ القدس، وحَمَلَتْ كلامَ المسيح وجسدَه، تُسرِعُ فَرِحَةً لتنقلَهما إلى جميع الناس وتبشِّرَهم بالسَّلام والسعادة والخلاص بمجيء ملكوت الله.

---

[١٦] المطران كيرلّس بسترس، **مريم العذراء أمّ ربِّنا يسوع المسيح**، ص٢٨.

إنّ دخولَ مريم إلى بيت زخريّا وسلامَها على أليصابات **يبدوان تجلّي الله نفسَه**. وعندما بَلَغَ سلامُ مريم إلى أذنَي أليصابات ظَهَرَ لها كأنّه صوتٌ آتٍ من عند الله، فارتكض الجنينُ يوحنّا المعمدان في أحشائها. وبذلك تمّ قول ملاخي النبي: "وتُشرِقُ لكم، أيُّها المتَّقونَ لاسمي، شمسُ البرّ، والخلاصُ في أشعّتِها، فتَسرحونَ وتَثِبونَ كعُجولِ المَعلَف" (ملا ٣: ٢٠). يوحنّا المعمدان، وهو يرتكضُ في بطن أمِّه أمام الحاملة المسيح الرَّبّ، يذكّرنا بداود النبيّ الَّذي راح يَثِبُ ويرقُصُ فَرَحًا أمام تابوت العهد الحامل الله، لدى دخوله أورشليم.

وما تَجبُ ملاحظته هنا المقارنة بين **فرح داود عند استقباله لتابوت عهد الله في العهد القديم** (٢صم ٦: ١-١٥) وبين **فرح أليصابات**، أُمّ يوحنّا المعمدان، **عند استقبالها مريم أمّ الرَّبّ وتابوت عهد الله في العهد الجديد** (لو ١: ٣٩-٤٥، ٥٦)، من خلال مجموعةٍ من الأحداث والأفعال المشتركة بين الحدثَين الكتابيَّين:

نهض ومضى... من بَعلَةِ يهوذا **(٢صم ٦: ٢)**؛
قامت مريمُ وذهبتْ مُسرِعةً... إلى مدينةٍ في يهوذا **(لو ١: ٣٩)**.

***

خاف من الرَّبِّ... وقال: كيف ينزل تابوتُ الرَّبِّ عندي؟ **(٢صم ٦: ٩)**؛
مِن أين لي أن تأتيني أُمُّ ربِّي؟ **(لو ١: ٤٣)**.

***

بَقِيَ تابوتُ الرَّبِّ في بيت عوبيدَ أدومَ الجَتِّيَّ ثلاثةَ أشهرٍ **(٢صم ٦: ١١)**؛
وأقامتْ مريمُ عند أليصابات نحو ثلاثةِ أشهرٍ، ثمّ عادَت إلى بيتها **(لو ١: ٥٦)**.

***

مضى داود وأصعدَ تابوتَ الله بفرحٍ... إلى مدينة داود **(٢صم ٦: ١٢)**؛
ارتكضَ الجنينُ ابتهاجًا في بطني **(لو ١: ٤٤)**.

***

كان داود يرقصُ ويدور على نفسِه بكلّ قوته أمام الرّبّ... وأصعد داود وكلُّ بيت إسرائيل تابوت الرَّبِّ بالهُتاف وصوت البوق **(٢صم ٦: ١٤-١٥)**
فهتفتْ (أليصابات) بأعلى صوتِها **(لو ١: ٤٢)**.

***

إنّ ابنَ الله المتجسِّدَ في أحشاء مريم هو لأليصابات والجنين الَّذي في أحشائها، مدعاةُ فرحٍ وابتهاجٍ مسيحانيّ، كما أنّ حضورَ الله في تابوت العهد جَعَلَ داودَ الملكَ يَثِبُ ويرقُص. وسلامُ مريم، بسبب المسيح الَّذي تَحمِلُه، هو كلامُ الله. وهذا الكلامُ هو الذي يَملأُ أليصاباتَ من الروحِ القدس ويوقِظُ الفرحَ المسيحانيَّ في جنينها الَّذي يُمثِّلُ شعبَ الله الَّذي ينتظرُ خلاصَ الرَّبّ. مريم تَظهرُ هنا حقًّا أُمَّ الرَّبّ[١٧].

فمريمُ ستكونُ هيكلَ الله، تابوتَ العهد الجديد ومَقامَ سُكنى الله. فإنّ حضور قدرة الله في شعبه في العهد القديم قد بَلَغَ ذروته وكماله في العهد الجديد في حضور ابن الله في أحشاء مريم العذراء، وهذا ما جَعَلَ أليصابات وجنينها يرتَكِضان من الفرح المسيحانيّ. إنّها تمثّل **"البقيّة" الأمينة من شعب إسرائيل**، أولئك الصدّيقين الَّذين كانوا ينتظرون في الفقر

[١٧] **المرجع نفسه**، ص٢٩.

الروحيّ والضِعَة والبرِّ والقداسة، فرحَ مجيء الرَّبِّ المخلِّص في شخص المسيح.

مريم العذراء هي تابوت العهد الجديد. بعد خراب أورشليم الأوّل سنة ٥٩٦ ق.م اختفى تابوت العهد. وعندما أُعيد بناء الهيكل سنة ٥٢٠ ق.م، تُرك "المكانُ المقدّسُ" فارغًا، وكان هذا الفراغُ علامةَ رجاءٍ وانتظارٍ لمجيء الله من جديدٍ في الأزمنة الأخيرة. وإذا بجبرائيلَ ملاكِ الأزمنة الأخيرة، يُعلِنُ تحقيقَ وعود الله: لقد كَوَّنَ اللهُ مريم العذراء "ممتلئةً نعمة" وجعلَها تابوتَ العهد الجديد المقدّس، ليَسكُنَ فيها، بدل وصاياه العشر وأحكامه المتعدّدة، كلمتُه وابنُه الوحيد يسوع المسيح المخلّص.

كما ويُبرِزُ هذا النصُّ الإنجيليُّ أيضًا **شخصَ مريم بإنسانيَّته المتألِّهة، إذ إنَّها ترمزُ إلى البشريّة المجدَّدة بدم الحمل الفصحيّ.** مريمُ الإنسانةُ المتَّكِلةُ على الله والمتأمِّلةُ في سرِّه الإلهيّ والمستسلِمَةُ لمخطَّطه وتدبيره الخلاصيّ، تَنطلِقُ مسرعةً إلى نسيبتها أليصابات الطّاعنة في السنّ، لتقومَ بواجب الزيارة والاطمئنان عليها ومساعدتها في أمورٍ حياتيَّة، حيث تتجلّى صورةُ مريم الإنسانيّة في أبهى حُلَلِها: **مريمُ الخادمةُ والمُنطلِقَةُ نحو الآخر، إنَّها صورةٌ حيَّةٌ للإنسانيَّة المتألِّهة.**

٦) **مريم الأمّ** "الميلاد" (مت ١: ١٨-٢٥؛ لو ٢: ١-٢٠)

إنّ ولادة مريم البتوليَّة هي علامةٌ ساطعةٌ على سرِّ البنوَّة الإلهيَّة ليسوع. ففي السّنوات القليلة الماضيّة، لفت العديد من اللاهوتيّين الانتباه إلى الرباط الدقيق بين الحبل البتوليّ بيسوع وبُنُوَّته الإلهيَّة. إنّ **البُعد الكريستولوجيّ** لولادة يسوع البتوليّة يقوم في جوهره على هذا: **أنّ يسوع هو الابن للآب الأزليّ بطريقةٍ فريدةٍ، لدرجة أنّه لا يستطيع أن يكون له أبٌ أرضيٌّ**. فبالعودة إلى نصِّ إنجيل لوقا: "إنّ الرّوح القدس سينزل عليكِ وقدرةَ العليّ تُظلِّلكِ، لذلك يكون المولودُ قدُّوسًا و**ابنَ الله** يُدعى" (لو ١: ٣٥). إنّ هذه الآية الإنجيليّة تتضمّن أهميَّةً رئيسيَّةً في عقيدة ولادة يسوع البتوليّة. إنّها تُشير قبل كلِّ شيءٍ إلى تَدَخُّل الله نفسه، من خلال النّعمة الَّتي ستجعل من مريم أُمًّا: إنّها قدرةُ العليّ وروحُ الله القدّوس الَّذي سيكون المنفِّذ، أو بتعابيرَ أخرى، سيتمّ تحت تأثير الرّوح القدس، كما يظهر في الجزء الثاني من الآية نفسها. إنّ تتابع أحداث التجسُّد وظروفه المحيطة بحبل مريم وميلاد الطّفل، ستكون للبشريَّة لاحقًا إشارة إلى أنّ **أب يسوع ليس رجلاً، بل الله**: "**لذلك** يكون المولود ابن الله يُدعى". وبالتّالي، فإنّنا نلاحظ أنّ هناك صلةً سببيَّةً بين الجزء الأوّل من الآية "الحبل البتوليّ" والثاني منها "ميلاد الطّفل" تؤكِّد بوضوحٍ البُنُوَّةَ الإلهيَّةَ ليسوع. لقد أكَّد **بروكلوس** بطريرك القسطنطينيّة[١٨]، وهو من أعظم اللاهوتيّين المريميّين في الكنيسة البيزنطيّة

[١٨] لنبذةٍ عن حياة بروكلوس، أنظر الملحق رقم (٤).

الأرثوذكسيّة، أنّ **الابن الوحيد لا يُمكن أن يولد من أبوَين. ومَن هو بلا أُمٍّ في السَّماء، هو بدون أبٍ على الأرض**؛ ويربطُ **غريغوريوس النزينزي** (٣٢٩-٣٩٠م)[١٩] أمومةَ العذراء ليسوعَ كلمةِ الله المتجسِّد باتّحادها الوثيق بالرَّبِّ الإله، بقوله: "إذا لم يؤمِنْ أحدٌ أنّ مريمَ هي والدةُ الإله، فهو غريبٌ عن الله. هذا **ليسَ بلقب شرفٍ**، إنّما هو **عقيدةٌ تُحدِّدُ مفهوم كون المسيح**، يحوي في ذاته في آنٍ معًا اللاهوتَ الكامل والناسوتَ الكامل، في اتّحادٍ بلا انفصالٍ أو تغيير"[٢٠]. فقول غريغوريوس هذا جاء مؤكِّدًا ما عنى به آباءُ المجمع المسكونيّ بتحديدهم: "وتجسَّدَ من الرُّوح القدس، ومن مريم العذراء وتأنَّس".

فالعذراءُ مريم هي "إكليلُ العقائد" تَسطَعُ بأضوائها على سرّ الثالوث الَّذي تَنعَكِسُ أنوارُهُ على البشر، هذا ما تؤكِّدُهُ الصَّلواتُ الليتورجيَّة: **"لقد ولَدتِ الابنَ بغير أبٍ، ذاكَ الابنُ الَّذي وُلِدَ من الآب بغير أُمٍّ". فأُبُوَّةُ الآب الإلهيّ من غير أُمٍّ يوازيها أمومةُ والدة الإله البشريَّة من غير أبٍ:** تلك هي صورةُ الكنيسة في بَكارة أُمومتها، مما جَعَلَ **كبريانوس** (٢٠٠/٢١٠-٢٥٨م) على القول: **"مَن ليستِ الكنيسةُ أُمَّه، لا يكونُ اللهُ أباه"**[٢١].

---

[١٩] لُقِّبَ هذا القدّيس "باللاهوتيّ"، استنادًا إلى عظاته اللاهوتيّة الخمس الشّهيرة الَّتي دافع فيها عن عقيدة الثّالوث. ولقد ظهر هذا اللقب للمرّة الأولى في أعمال مجمع خلقيدونية سنة ٤٥١م (راجع مجموعة باحثين، **تاريخ الفكر المسيحيّ**، ص٥١٧).

[٢٠] **المرجع نفسه**، ص٥٢٦-٥٢٧.

[٢١] مشير عون، **الإيقونة بهاء وجهك**، ص٢١٤.

يرى **لوثر** علاقةً حميمةً بين العذراء والكنيسة. **فالعذراءُ هي صورةُ الكنيسة**، فهي وَلَدَتِ المسيح، والكنيسةُ تَلِدُ إخوةَ المسيح. يقول: "إنّنا نختلفُ في الولادةِ الجسديّة. ولكنّنا، في العماد، كلُّنا أبناءُ أبكارٍ للعذراء، أي للكنيسةِ الّتي هي العذراءُ النقيَّةُ بالروح. عندها كلمةُ الله النقيَّة، تحملها في أحشائها. هنا نحن الثمارُ الأولى الحقيقيَّة (البواكير)، لنكونَ مُلكَ الربِّ إلهنا... تَلِدُ الكنيسةُ أبناءَ الله الآب، إخوةَ يسوع، بقدرة الرّوح القدس، وتغذّيهم، وتعتني بهم. بكلمةِ الله والمعموديّة تَلِدُ المؤمنين الجددَ إلى عالم الإيمان والرجاء والمحبّة، وبالإفخارستيّا تغذّيهم بجسدِ الرَّبِّ ودمِه المحيِيَيْن، وبالحلّ تعزّيهم في رحمةِ الآب، وبالمسحة ووضع اليد تمنحُهم شفاءَ الجسد والنفس"[٢٢].

بمعنى آخر، كما أَنبَتَ حشا مريم زهرةَ عدم البلى يسوع المسيح ابن الله بالولادة البتوليَّة بقوّة الرّوح القدس دون زرعٍ بشريٍّ، كذلك جرنُ المعموديّة يَلِدُ المسيحيَّ ولادةً بتوليَّةً دون أيِّ زرعٍ بشريّ بقوّة عمل الرّوح القدس "الَّذين لا من دمٍ ولا من مشيئة لحمٍ ولا من مشيئة رجلٍ، لكنْ من الله وُلِدوا" (يو ١: ١٣)، وهذا ما تُسمِّيه الكنيسةُ **بالميلاد الثاني** الَّذي جاء على لسان يسوعَ نفسِه بحواره مع **نيقوديموس**، حين قال: "إنْ لم يولَدْ أَحَدٌ ثانيةً فلا يَقدِرُ أن يُعاينَ ملكوتَ الله... إنْ لم يولَدْ أَحَدٌ من الماءِ الرُّوح، فلا يَقدِرُ أن يَدخُلَ ملكوتَ الله... إنّ المولودَ من الجسد إنَّما هو جسدٌ، والمولودُ من الرُّوح إنّما هو روحٌ" (يو ٣: ٣-٦).

---

[٢٢] المطران كيرلّس بسترس، **مريم العذراء أمّ ربّنا يسوع المسيح**، ص١٢١-١٢٢.

إلى هنا نكونُ قد عرضنا كلَّ ما يختصّ بلاهوت أُمومة مريم ليسوعَ كلمةِ الله المتجسِّد، ولكن في المقابل، السؤال الَّذي يطرح نفسه، **هل من معانٍ كريستولوجيّة ولاهوتيَّةٍ لميلاد يسوع البتوليّ في تاريخ الخلاص؟**

يؤكِّد العديد من آباء الكنيسة أنّ يسوع قد وُلِدَ بطريقةٍ بتوليّة من أجل أن يكون **آدم الجديد**. **"يسوع، آدم الجديد"** هو بالفعل واحدٌ من أهمّ المواضيع المطروحة في لاهوت بولس خصوصًا في رسالته الأولى إلى أهل كورنثس (١٥: ٤٥-٤٩). لو أنّه لم يولدْ من عذراء، لا يستطيع يسوع، آدم الجديد، أن يكون بدءَ أو رأسَ الخليقة الجديدة. لقد وجدنا أنفسنا مع آدم الأوّل أمام لحظة الخلق، أمام بداية التّاريخ البشريّ؛ بينما في ميلاد يسوع البتوليّ، فإنّنا نجد أنفسنا أمام بداية الخلق **الجديد**، أمام بداية **تاريخ الخلاص**.

وفقًا لتكوين ٢: ٧، **"**وجبلَ الرَّبُّ الإله الإنسانَ ترابًا من الأرض ونفخَ في أنفه نَسَمَة حياة، فصار الإنسان نفسًا حيّة**"**. لقد لاحظَ آباءُ الكنيسة أنّ الطّين الَّذي من خلاله جبلَ الله الإنسان الأوّل، كان لا يزال من الأرض البكر، **"**العذراء**"**، الَّتي لم يَحرُثها الإنسانُ الأوّل بعد (إذا ما قرأنا سفر التكوين ٣: ٢٣، فإنّنا نجد أنّ الإنسان الأوّل بَدَءَ بحراثة الأرض وفلاحتها بعد سقوطه في الخطيئة، حين أخرجه الله من جنّة عَدْن). وهكذا، **فإنّ آدم الأوّل هو ثمرةُ رَحِم الأرض الَّتي ما زالت عذراء.**

مع هذه الصّورة البديعة الَّتي أمام أعيننا، أراد يسوع أن يأتيَ إلى العالم مثل آدم الأوّل. فكما وُلِدَ آدمُ من أرضٍ عذراء، هكذا تكوَّن المسيحُ من مريم العذراء؛ وكما جُبل آدمُ من الطّين بواسطة يدَي الله، كذلك تكوَّنَ

المسيحُ في الرحم الأُموميّ بواسطة روح الله. وعليه، **فإنّ لآدم الأوّل وآدم الثاني أبٌ واحدٌ هو الله وأُمٌّ واحدةٌ عذراء** (الأرض، مريم). وكما يقول الإنجيليّ، فإنّ كلاهما **"أبناء الله"**. إنّ هذه الجملة الأخيرة تلمِّح إلى نَسَب يسوع بحسب إنجيل لوقا ٣: ٢٣–٣٨: **"**وكان يسوع عند بدء رسالته، في نحو الثّلاثين من عمره، وكان النّاس يحسبونه ابنَ يوسف... ابن آدم، ابن الله**"**. فالإنجيليّ لوقا يودّ من وراء قائمة الأسماء الطّويلة هذه أن يُبيِّن أنّ يسوع خرج، تمامًا مثل آدم، من يدَي الله، وأنّه كان في هذا المعنى ابنًا لله. من هنا، فإنّه من المؤكَّد أنّ الكتاب المقدّس والتّقليد قد وجدا في **رمزيّة آدم تصوُّرًا سَبْقِيًّا للمسيح**.

فآدم الأوّل لم يُتمِّم دعوتَه. لم يعرف أن يبلغ الاتّحاد بالله وتأليه الكون المخلوق. إنّ ما لم يستطع آدم أن يُحقِّقه وهو في ملء حريّته، صار مستحيلاً عليه منذ استُعبد بإرادته للقوّة الخارجيّة. منذ السّقوط وحتّى يوم العنصرة بقيت القوّة الإلهيّة، أي النّعمة غير المخلوقة والمؤلِّهة غريبة عن الطّبيعة البشريّة، وما عادت تعمل فيها إلاّ خارجيًّا، مولِّدة مفاعيل في النّفس مخلوقة. كان الأنبياء وأبرار العهد القديم أدواتٍ للنّعمة. عملت النّعمة من خلالهم ولكنّها لم تُعطَ للبشر كقوّةٍ لهم شخصيّة. وصار التألُّه والاتّحاد بالله بالنّعمة أمرًا مستحيلاً. غير أنّ خطيئة الإنسان لم تُلغِ تصميم الله: دعوة آدم الأوّل حقّقها المسيح، آدم الثاني: **"**صار الله إنسانًا، ليصيرَ الإنسان إلهًا**"**، على حدّ تعبير إيريناوس وأثناسيوس، إذ إنّ العمل الخلاصيّ للمسيح قد فتح لنا من جديدٍ طريق **التألُّه "الاتّحاد بالله"** الَّذي هو غاية الإنسان الأخيرة. فعمل

المسيح هذا يستدعي عمل الرّوح القدس (راجع لو ١٣: ٤٩): "لبلوغ الاتّحاد بالله، بحسب اللاهوت الأرثوذكسيّ، على الإنسان أن يتجاوز حواجز ثلاثة: **حاجز الطّبيعة، وحاجز الخطيئة، وحاجز الموت**. وحده الله قادرٌ على أن يُعيد للإنسان إمكانَ التألُّه، وذلك بأن يُعتقَه من الموت ومن أسر الخطيئة. ما كان ينبغي للإنسان أن يبلغ بارتفاعه نحو الله، يحقِّقه الله بانحداره نحو الإنسان. ولهذا السبب سيَعبُرُ الله الحواجز الثلاثة، الَّتي ليس باستطاعة الإنسان أن يعبُرَها، وذلك بترتيبٍ معاكس، بدءًا باتّحاد الطّبيعتَين المنفصلتَين، الإلهيّة والإنسانيّة، ووصولاً إلى التغلُّب على الموت. **فالله حقَّق وعدَه هذا بأن أزال الحواجز واحدًا تلو الآخر: حاجز الطّبيعة بتجسُّده، وحاجز الخطيئة بموته، وحاجز الموت بقيامته**"[٣٣].

٧) **مريم المربيَّة والمرافِقة** "تقدمة يسوع لله" (لو ٢: ٢٢-٤٠)؛ "يسوع في الهيكل مع العلماء" (لو ٢: ٤١-٥٢)

"فلمّا بَلَغَ ملءُ الزَّمان، أرسلَ اللهُ ابنَه مولودًا من امرأة، مولودًا تحت الناموس، ليفتديَ الَّذين تحت الناموس لننالَ التبنّي" (غل ٤: ٤- ٥). خَضَعَتْ مريمُ للنّاموس الَّذي كان يطلبُ من كلِّ امرأةٍ أن تذهب مع مولودها إلى الهيكل في اليوم الأربعين بعد الولادة لتقومَ برتبة التَّطهير وفداء ابنها البكر. الطّهارةُ المشار إليها هنا ليست الطّهارةَ الخُلُقيَّةَ الَّتي تعني الامتناع عن الخطيئة، بل الطهارةَ الطقسيّةَ الَّتي تعني إمكان التقرُّب من الأقداس. فولادةُ طفلٍ تمنعُ المرأةَ مدَّةَ أربعين يومًا من التقرُّب من كلِّ ما هو مقدَّس (أح ١٢:

[٣٣] فلاديمير لوسكي، **اللاهوت الصّوفيّ لكنيسة الشرق**، ص١١٣-١١٤.

١- ٨). وفي اليوم الأربعين تأتي إلى الهيكل "بحَمَلٍ حَولِيٍّ مُحرقة، وبفرخ حمامٍ أو بيمامة ذبيحةَ خطيئة... وإن لم يكن في يدِها ثمنُ حمل، فلتأخذ زوجَي يمام أو فرخَي حمام، أحدهما محرقة والآخر ذبيحة خطيئة، فيكفّر عنها الكاهن فتطهر" (أح ١٢: ٦- ٨). كذلك يأمرُ النَّاموسُ بأن يُفدَى كلُّ ذكرٍ بكر، لأنّه مُلك الرب، وذلك من بعد أن قتل الربُّ كلَّ بكرٍ في أرض مصر، لّما تصلَّب فرعون ورفض إطلاق بني إسرائيل من مصر مع موسى (خر ١٣: ٢، ١١- ١٦). يلتزمُ يوسفُ ومريمُ متطلَّباتِ الناموس، غير أنّهما يُدركان، حسب رواية لوقا، أنّ طفلَهما هو مُلكٌ لله بنوعٍ خاصّ. لذلك "صعدا به إلى أورشليم ليقدِّماه للرَّبّ" (لو ٢: ٢٢).

هذه التقدمةُ تذكِّرُنا بتقدمة حنّة لابنها صموئيل: "أعطه للرَّبّ لكلِّ أيّام حياته" (١صم ١: ١١). **أدركَتْ مريمُ أنّ ابنَها ليس لها، إنّما هو ابنُ الله.** لذلك قدَّمته لله بكلِّ تجرُّدٍ وتضحيّة. ويسوع، الحملُ الإلهيّ، الَّذي سيُقدِّمُ ذاتَه ذبيحةَ فداءٍ على الصَّليب، تُقدِّمُه أمُّه إلى الهيكل علامةً وتذكارًا لفداء العالم الَّذي سيحقِّقُه على الصَّليب. وتَرتَسِمُ بين أسطر النصِّ الإنجيليِّ لوحةُ المسيح الفادي المصلوب الَّذي "جُعِلَ لسقوط ونهوض كثيرين في إسرائيل وهدفًا للمخالفة" (لو ٢: ٣٤)، كما قال سمعانُ الشَّيخ الَّذي أضاف متوجِّهًا بكلامه إلى مريم العذراء: "وأنتِ أيضًا سيَجوزُ سيفٌ في نفسك، لكي تنكشفَ الأفكارُ من قلوبٍ كثيرة" (لو ٢: ٣٥).

ستُشارِكُ مريمُ ابنَها في رسالته التي تقودُه إلى الصَّليب، ستَحمِلُ في قلبها وفي أعماق نفسها آلامَ الأمّ، أمِّ المسيح الفادي المصلوب. وفي هذه المشاركةِ ستَدخلُ أكثرَ في أُلفَةِ ابنِها، وستبقى قريبةً منه، لذلك سنراها على

أقدام الصليب فيما بعد. "وأمّا مريم فكانت تحفظ هذه الأقوالَ (أو الأمور) كلَّها، وتتأمّل فيها في قلبها" (لو ٢: ١٩، ٥١). وعلى مرّ السنين، طوال حياة يسوع الخفيّة في بيت الناصرة ظلّت مريم، هي أيضًا المستترة في الله (كو ٣: ٣) في الإيمان. وفي الواقع، **إنّ الإيمان هو اتّصال بسرّ الله**. ومريم على اتّصال دائم ويوميّ بالسرّ اللاموصوف، سرّ الإله المتجسّد، وهو سرّ يتجاوز كلّ ما أوحي به في العهد القديم.

٨) **مريم الشَّفيعة** "عرس قانا الجليل" (يو ٢: ١-١١)

١. **العرس بين العهد القديم والعهد الجديد**

لأنّ رواية قانا ليست سيرةً ذاتيّة، فموضوع العرس يستدعي إلى الذهن صورةً كتابيّة تقدّم ملكوت السّماوات كوليمة عرس (مت ٢٢: ٢؛ ٢٥: ١) انطلاقًا من الاختبار الزوجيّ للنبيّ هوشع مرورًا بنشيد الأناشيد وصولاً إلى يسوع نفسه. يدخل موضوع العرس في العهد القديم ضمن إطار **عهد الله مع شعبه** (هو ٢: ١٨-٢١؛ حز ١٦: ٨؛ أش ٦٢: ٣-٥)، بينما يؤكّد العهد الجديد على أنّ المسيح هو العريس والكنيسة هي عروسه الطّاهرة (أف ٥: ٢١-٣٢). إنّ الرسم البيانيّ الآتي يوضِّح الفكرة الكتابيّة هذه:

العهد القديم — الله — عهد — شعب إسرائيل

العهد الجديد — المسيح — عهد — الكنيسة، إسرائيل الجديد

يكوِّنُ النّبيذ إلى جانب القمح والزيت العناصرَ الأساسيّة لحياة الإنسان (تث ٧: ١٣؛ ١١: ١٤): **إنّه عطيّةٌ من الله، وقد خُلِقَت كعلامة رخاءٍ من**

أجل فرح الإنسان وابتهاجه: **(١)** مز ١٠٤: ١٥: "وخمرٍ **تُفرِّح** قلب الإنسان..."، **(٢)** سيراخ ٣١: ٢٧-٢٨: "... فهي خُلِقَت **لابتهاج** النّاس. الخمرُ **ابتهاجُ** القلب و**سرورُ** النّفس..."، **(٣)** زك ١٠: ٧: "ويكون أهل أفرائيم كالبطل، و**تفرح** قلوبهم كما من الخمر، ويرى بنوهم ويفرحون، وتبتهج قلوبهم بالرّبّ".

كما يُشير [النّبيذ] أوّلاً إلى **النّبيذ المسيحانيّ** من خلال عباراتٍ رئيسيّة كالوَفرة، والتّجديد، والامتلاء؛ وثانيًا إلى **العرس الإسكاتولوجيّ**، كما يُعلن النبيّان عاموس (٩: ١٣) وأشعيا (٢٥: ٦)، وأظهره بوضوحٍ يسوعُ نفسُه حين أعلن أنّه "لن يشربَ بعد الآن من عصير الكرمة هذا حتّى ذلك اليوم الَّذي فيه أشربُه معكم جديدًا في **ملكوت أبي**" (مت ٢٦: ٢٩). يبدو أنّ حدث قانا يحتوي أيضًا على **فكرةٍ حكميَّةٍ**. ففي سفر الأمثال (الفصل ٩)، تدعو الحكمة سامعيها إلى "الشُّرب من خمرها". في يسوع، أصبحت الحكمة وخمرها مشخَّصةً في إنسانٍ إلهيٍّ صار متجسِّدًا وهو الآن حاضر (يو ٢: ٢).

إنّ الجماعة اليوحنّاويّة ترغب في الاحتفال باشتراكها في عهد يسوع الجديد باستقائها من **نبيذ الافخارستيّا**. فالإزائيّون وبولس تكلّموا هم أيضًا عن الافخارستيّا تحت رمز النّبيذ على أنّه **دم العهد الجديد** (مت ٢٦: ٢٨؛ مر ١٤: ٢٤؛ لو ٢٢: ٢٠؛ ١كو ١١: ٢٥). وفي قانا، أعطى يسوع، في أعقاب انتظار تحقيق ملكوت الآب، نبيذًا متفوِّقًا، يُشكِّل في الإطار الرّمزيِّ للرواية، تحقيقًا للنّبيذ الأوّل الَّذي خدم بالفعل. هناك استمراريّةٌ بين النبيذَين، لأنّ الأوّل والآخَر هما نبيذُ عرسٍ. فالعهدُ يصلُ في الشّكل إلى اكتماله في عمل يسوع.

٢. مَن هو عريس قانا وعروسه؟

مَن هم أطراف العرس؟ إنّ أطراف العرس لا يتمثّلون في يسوع والبشريّة، بل في إسرائيل والله. وإسرائيل في عرس قانا ممثَّلٌ بأُمٍّ يسوع، ومن الممكن أن يُضاف إليها **الخَدَم** الَّذين يُجسِّدون **رغبةَ العمل لمؤمني العهد القديم**، بينما يظهر عمل **وكيل المائدة كشاهدٍ** على تحويل الماء إلى نبيذ وكموجِّهٍ **لانتباه المشاركين في العرس** إلى الَّذي قام بالعمل، العريس. نستطيع أن نُصوِّر بطريقةٍ عفويّةٍ أنّ العريس هو المسيح نفسُه. إنّ هذا التّشبيه ملائمٌ لنصوصٍ أخرى أكثر منه لنصّنا الحاليّ، إذ إنّ يسوع **"دُعِيَ"** إلى العرس. فالعريسُ هو جزءٌ أساسيٌّ من العرس ولا عرس بدونه؛ ومع ذلك، فإنّ الرواية اليوحنّاويّة تتجاهلُ تسميَّتَه [العريس] وحضورَه حتّى إنّ يوحنّا يكادُ لا يتكلّم عنه إلاّ عندما دعا وكيلُ المائدة العريس (يو ٢: ٩) ليُبديَ له ملاحظتَه على النّبيذ الَّذي نفذ.

بيد أنّ ثمّة سؤالاً يطرحُ ذاتَه علينا: إذا لم يكن العريسُ هو يسوع، فمَن إذن يستطيع أن يكونَ العريس غيرَ الله، كما يرغب الكتاب المقدّس بتسميّته؟ (هو ١–٣؛ إر ٢؛ حز ١٦؛ أش ٥٤: ٥–١٠؛ ٦١: ١٠). إنّ هُتافَ وكيل المائدة جاء بطريقةٍ عفويّةٍ، إذ أعلن: **"**أمّا أنتَ [العريس] فحفِظتَ الخمرة الجيّدة إلى الآن**"** (يو ٢: ١٠). لقد أعلن أنّ الله، بعد انتظارٍ طويل، استجابَ لرغبة إسرائيل العميقة.

من هنا، فإنّنا وبعد هذه الدراسة المقتضبة لموضوع العرس نَصِلُ إلى القول أنّ الرواية الحاضرة (يو ٢: ١-١١) تَعرض، بطريقةٍ رمزيّةٍ، العرسَ بين **الله** المتمثِّل بالعريس و**إسرائيل** المتمثِّل في شخص أُمّ يسوع والآخرين (الخَدَم ووكيل المائدة).

٣. مريم في عرس قانا الجليل

نلاحظ أنّ الإنجيليّ لم يُعرِّف مريم باسمها، بل سمّاها "أُمّ يسوع" ومنحَها اسمًا ثانيًا هو "المرأة". إنّ هذا الأخير لا يُشير إلى المرأة الأولى فقط، بمعنى أنّ مريم هي حوّاء الجديدة، بقدر ما يُشخِّص في مريم صورة **صهيون المثاليّة**، والَّتي يُظهرها الكتاب المقدّس كامرأةٍ وبتحديدٍ أدقّ كأمّ (أش ٤٩: ٢٠-٢٢؛ ٥٤: ١؛ ٦٦: ٧-١١؛ يو ١٦: ٢١). من هنا نُدرك أنّ **مريم تجسِّد صهيونَ المسيحانيّة الَّتي تجمع أبناءَها حولها في نهاية الأزمنة**. فمريم، بالفعل، وقبل كلّ شيءٍ، تُجسِّد في شخصها صورة إسرائيل. لا نَلحظ في إطار العرس ظهور العروس على الإطلاق كجزءٍ من حفل الزّفاف، وهذا يُبيِّن كيف أنّ أُمَّ يسوع الَّتي تقوم بدور صهيون، هي العروسُ إسرائيل.

مريم، في هذا النصِّ الإنجيليّ، تُوجِّهُ أنظارَنا إلى المسيح لنصنعَ ما يقولُه لنا، ونتمِّمَ إرادتَه كما أنّه هو يتمِّمُ إرادةَ أبيه السَّماوي، إذّاك يظهرُ لنا مجدُ المسيح. يقول **البابا يوحنّا بولس الثاني**: "هناك عنصرٌ جوهريٌّ في دورِ أمومةِ مريم، نراه في ما أمرت به الخدّام: "مهما قال لكم فافعلوه". إنّ أمَّ المسيح تظهرُ أمام البشر وكأنّها الناطقةُ باسم الابن، تُعبِّرُ عن إرادتِه وترشِدُ إلى ما يقتضيه تجلّي قدرةِ المسيح الخلاصيّة. ففي قانا يستهلّ يسوع "ساعتَه" بفضلِ ضراعةِ مريم وطاعةِ

الخدّام، **وفي قانا تَظهرُ مريمُ امرأةً تؤمنُ بيسوع**، وإيمانُها هذا يُخرِجُ إلى النور أولى العجائب ويُسهِمُ في بعثِ إيمان التلاميذ"[٢٤].

ثمّ يتابع قداسة البابا موضِحًا معنى وساطة مريم وعلاقتَها بوساطة السيّد المسيح انطلاقًا من المجمع الفاتيكاني الثاني: "فيمكننا إذًا أن نقول إنّ هذه الصفحةَ من إنجيل يوحنّا تَضَعُنا أمام أوّلِ ظهورٍ لحقيقةِ الحنان، حنانِ الأمّ في مريم وهذه الحقيقة عبَّرَ عنها، في زمنٍ غيرِ بعيد، تعليمُ المجمعِ الأخير. وإنّه لمن الأهميّةِ أن نُشيرَ إلى أنّ دورَ أمومةِ مريم هذا تُفسِّرُه علاقته بوساطة المسيح، إذ نقرأُ أنّ "دورَ مريم تجاه البشر، وهو دورُ أمّ، لا ينالُ ولا يَنتقِصُ في شيءٍ من وساطةِ المسيح الفريدة، بل يُظهِر، على خلاف ذلك، فعاليّتَها. لأنّ الوسيطَ بين الله والناس واحدٌ، الإنسان المسيح يسوع" (١تي ٢: ٥). **ووساطةُ مريم، وهي وساطةُ أمٍّ، تَنبَعُ، وِفقًا لما أراده الله، "من فيض استحقاقات المسيح". فهي تَستنِدُ في الأساسِ إلى وساطته هو**، وترتبطُ بها ارتباطاً كلّيًّا وتَستَمِدُّ منها كلّ ما لها من فعاليّة"[٢٥].

وبهذا المعنى عينه نرى في ما حدثَ في قانا الجليل الإعتلانَ الأوّلَ لوساطة مريم **وهي وساطةٌ تتّجه كليًّا صوبَ المسيح وتهدفُ إلى إبراز قدرته الخلاصيّة**. ويستخلصُ النصُّ الواردُ في يوحنا أنّنا حيال وساطة أمّ. والمجمع يؤكّد أنّ مريم قد أضحت لنا، على صعيد النِّعمة أمًّا. وهذه الأمومة، على صعيد النِّعمة، تنطلق من أمومتها الإلهيّة عينها، إذ إنّ العذراء الَّتي اصطفاها الله منذ الأزل، لتكونَ، في تصميم تجسُّد الكلمة، أمًّا لله، قد صارت على

---

[٢٤] البابا يوحنّا بولس الثاني، **رسالة أُمّ الفادي**، عدد ٢١.

[٢٥] **المرجع نفسه**، عدد ٢٢.

الأرض، بتدبير من العناية الإلهيّة، الأمَّ المحبوبةَ للفادي الإلهيّ، الَّذي أشركَها بسخاء، بامتيازٍ فريدٍ على الإطلاق، في عمله، وأمة للرب وضيعة. فإنّها بحملها المسيحَ وولادته وتغذيته وتقديمه في الهيكل للآب، وتألُّمها مع ابنها في موته على الصَّليب، أَسهَمَت، بطاعتها وإيمانها ورجائها ومحبّتها، في عملِ المخلّص إسهامًا لا مثيل له على الإطلاق، من أجل أن تُعادَ إلى النفوس الحياةُ الفائقةُ الطَّبيعة. لذلك كانت، في نظام النعمة، أُمًّا. وأمومةُ مريم هذه، في تدبير النِّعمة، تستمرُّ بلا انقطاعٍ، إلى أن يَكتَمِلَ نهائيًّا جميعُ المختارين في المسيح.

تعليقٌ آخرُ يَستَرعي انتباهَنا وهو **الآيةُ الرابعة** من هذا النصِّ الإنجيليِّ اليوحنّاويّ، وقد جاء على لسان يسوعَ نفسِه: **"ما لي ولكِ يا امرأة، لم تأتِ ساعتي بعد"**. هناك مَن يدَّعي وكأنّ يسوعَ بقوله هذا طَلَبَ من أُمِّه عدمَ التدخُّل في شؤونه الخاصّة وأنّه حتى ما اعتبرَها كأمّ، لأنّ دور العذراء انتهى بولادتها إيّاه! للردّ على هذا المُعتَقَد الخاطئ الَّذي تُحاوِلُ الذئابُ الخاطفةُ بَثَّهُ في عقول وقلوب المؤمنين بأمِّ الله العذراء، سنقومُ بتشريحٍ إنسانيٍّ وكتابيٍّ ولاهوتيٍّ لهذه الآية الإنجيليّة.

نودّ، قبل الشّروع في تحليل هذه الآية، لفتَ انتباه القارئ، أنّ الحوار الَّذي تمّ بين مريم وابنها، هو، على المستوى الرمزيّ، حوارٌ بين إسرائيل ويسوع. فالأُمّ، أو صهيون، صرّحت عن الوضع الَّذي انوجدَ فيه أبناؤها: "ليس لديهم المزيد من النّبيذ" (يو ٢: ٣). إنّها [مريم] ليست شاهدةً محايدة،

بل إنّها تأخذ أَلَمَ شعبها إلى قلبها وتُعرِبُ عنه. بحسب التّقليد الكتابيّ، فإنّ إسرائيل يَعرض أمام الله في الصّلاة ظروف شدّته، واثقًا من أنّه [الله] سيتدخّل وفقًا لرضوانه وموافقته (مز ١٢؛ ٣١؛ ٣٨؛ ٣٩؛ ٤٤: ١٠-٢٧؛ ٧٩؛ ١٣٠؛ نح ٩: ١٦-٣٧؛ با ٣: ١-٨). إنّ كلمةَ مريم، بالنّسبة إلى الراوي، تتضمّن وبدون شكٍّ الإيمان بتدخُّلٍ إلهيٍّ، يعني في سياق العهد، تحقيق الخلاص النّهائيّ. وبالتّالي، **فيسوع عندما رأى في أُمِّه "المرأة"، لم يرَ فيها صورة المرأة "إسرائيل" الَّتي تُعطي الحياة البشريّة، بل المرأة "صهيون" الَّتي تنتظر وقتَ الخلاص النّهائيّ.**

أولاً: بالنّسبة إلى تعبير "ما لي ولكِ"المرتبط ارتباطًا وثيقًا بالتّعبير "لم تأتِ ساعتي بعد"، نقولُ بأنّ يسوعَ في النَّصِّ ذاته وفي **الآية السَّابعة** فَعَلَ كما قالتْ له أُمُّه وقامَ بتلبيَّة طلبها الأموميّ. أمّا ما يختصّ "بالسّاعة"، فهو موضوعٌ لاهوتيٌّ مَيَّزَ الإنجيلَ الرابع عن بقيَّة الأناجيل، حيثُ إنّ ساعةَ يسوع تعني ساعةَ المجد والانتقال من هذا العالم إلى الآب (يو ٧: ٣٠؛ ٨: ٢٠؛ ١٢: ٢٣، ٢٧؛ ١٣: ١؛ ١٧: ١) وهذه السّاعةُ لن تجد كمالَها وتمامَها إلاّ على **الصَّليب**: **فالسَّاعةُ إذًا مرتبطةٌ بالحدث الخلاصيِّ على الصَّليب**، إذ لم تكن أحداثُ الخلاص الَّتي حقَّقها الله الحيّ في زمن المواعد سوى ظلال هذه "السّاعة". كما لم تكن مبادراتُ الخلاص الَّتي قام بها المسيح خلال حياته البشريّة الأرضيّة إلاّ علامات سابقة لعمله الخلاصيّ النّهائيّ.

إنّ عبارة **"لم تأتِ ساعتي بعد"** تشير، في المفهوم اللاهوتيّ، إلى اللحظة الحتميّة والحاسمة الَّتي سيتحقَّق فيها تصميمُ الله (مخطّط الله الخلاصيّ)، إنّها **"كيوم الرّبّ"**. نجد هذا الاستعمال عند الإزائيّين ويوحنّا (مت ٢٤: ٣٦، ٤٤؛ ٢٥: ١٣؛ لو ١٢: ٤٠، ٤٦؛ يو ٥: ٢٥، ٢٨). لقد فَهِمَ المؤمنون أنّ نهاية الأزمنة قد حلّت بقيامة يسوع (١كو ١٠: ١١) وأنّهم في حالةٍ تقودهم إلى رؤية السّاعة الاسكاتولوجيّة الحاضرة في أحداث القيامة والَّتي ابتدأت بالفعل من حدث القبض على يسوع (مت ٢٦: ٤٥؛ مر ١٤: ٣٥، ٤١؛ لو ٢٢: ٥٣). إنّ السّاعة النّهائيّة، بحسب يوحنّا، تجد اكتمالَها في اللحظة الَّتي يتمجَّد فيها يسوع على الصّليب (يو ١٢: ٢٣، ٢٧؛ ١٧: ١). من هنا نفهم أنّ **"ساعة يسوع"** هذه هي ساعة عودته إلى الآب (يو ١٣: ١)[٣٦].

وبالتّالي، فإنّ عبارة **"لم تأتِ ساعتي بعد"** في عرس قانا تعبِّر بجلاءٍ عن **"الزّمن المسيحانيّ"** انطلاقًا من أمرَين هما: **(١) ساعة ظهور يسوع** من خلال المجد الَّذي يتجسّد في الآيات؛ **(٢) ساعة إعلان الملكوت** من قِبَلِ ابن الله. مع كلِّ هذا، لم يَرفُضْ يسوعُ طلبَ أُمِّه ووساطتَها، وخاصَّةً أنَّها انطلَقَتْ بطلبها من إيمانها بقدرة ابنها الإلهيّ ومشاركتها لأهل العرس الَّذين لم يَعُدْ لديهم نبيذ؛ **فاللهُ الَّذي كان موضوعًا للتَّطهير عند اليهود أصبحَ نبيذًا والَّذي يرمزُ في الفكر اللاهوتيِّ المسيحيّ إلى دم المسيح الذي "يُطَهِّرُنا من كلِّ خطيئة"** (١يو ١: ٧، راجع أيضًا رؤ ١: ٥).

---

[٣٦] William Hendriksen, ***The Gospel of John***, p. 115.

نستنتجُ ممّا تقدّم أنّ مريم هي حوّاءُ الجديدة، رمزُ الكنيسة؛ فكما أنّ الكنيسةَ لم تأخُذْ دورًا خلال رسالة يسوع الأرضيّة، بل أُعطِيَ لها فقط بعد ساعة القيامة والصُّعود، كذلك العذراءُ مريم، سيَكونُ دورُها الفعليّ عند مجيء ساعة مجد ابنها، ساعة الآلام، الموت، القيامة والصُّعود، وهذا ما سنَراهُ لاحقًا عند مشهد الصَّليب.

ثانيًا: أمّا فيما يختصُّ بلقب "يا امرأة" الَّذي جاء على لسان يسوع، واصفًا به أُمَّهُ، فيُطرَحُ السؤال: هل هناك أيُّ معنىً لاهوتيٍّ لهذا اللقب؟ وهل أَطلَقَهُ يسوعُ تعبيرًا عن عدم رضاهُ بتدخُّل أُمِّه في شؤون سرِّه الإلهيّ؟ سؤالٌ يستحقُّ منّا التعمُّق في الإجابة. ففي مجريات سفر التَّكوين الَّتي تتكلَّمُ عن قصّة الخلق وما قبل السّقوط، لم يُطلَقْ على الأنثى الَّتي خَلَقَها الله اسمٌ، بل كان يُكتَفى بأنْ يُقالَ لها **"المرأة"** استنادًا إلى ما صَنَعَهُ الله بآدم حين أَوقَعَهُ في سُباتٍ (ذُكِرَتْ في الفصلَين الثاني والثالث حوالي ١٢ مرّة)؛ السؤالُ الآخر الَّذي يُطرَح: متى أصبحتْ المرأةُ تُسمَّى "حوّاء"؟ الجوابُ واضحٌ إذ إنّ سفرَ التَّكوين يؤكِّدُ أنّ آدمَ سمّى امرأتَهُ "حوّاء" بعد السّقوط في الخطيئة (تك ٣: ٢٠). ماذا نَستَنتِجُ من كلِّ ما تقدّمَ ذكرُهُ آنفًا؟ نَستَنتِجُ أنّ السيِّدَ الإلهيَّ بإعطائه مريمَ أُمِّه لقبَ "المرأة" قد **أعادَها إلى الحالة الفردوسيَّة الأولى، حالة البرارة والنّعمة، وأنّها امرأةُ العهد الجديد "حوّاءُ الجديدة".**

ختامًا نُذكِّر بأنّ يوحنّا هو معلّم المعنى في الرّمز، ويبدو أنّ أمّ يسوع تظهر هنا وعند أقدام الصّليب في الفصل ١٩ وتُدعى "المرأة"، وذلك لأنّه

[يوحنّا] رأى أنّ أعمالها ترمز إلى حقيقةٍ هامّةٍ لكنيسته متَّجهةٍ نحو التحقُّق. فأعمالُها هنا (الفصل٢) هي نبويّةٌ لِما سيكون دورها في وقتٍ لاحق (الفصل١٩). إنّها تقود في قانا النّاس إلى يسوع الَّذي بدأ أن يكشف مجدَه الدّاخليّ السّاميّ؛ وهي كأُمٍّ عند أقدام الصّليب ستقود التّلاميذ إلى اليسوع المُنتصر على الموت[٣٧].

بيد أنّ ثمّة سؤالاً يطرح بظلاله علينا: مَن يقود المؤمنين إلى المسيح المتعالي وفقًا للفكر اليوحنّاويّ؟ إنّها أساسًا **الكنيسة**، جماعة شهود يسوع المؤمنين والَّذين يؤمنون أيضًا بسببهم. هم الَّذين جلبوا ويجلبون مؤمنين إلى يسوع حيث يجدون مجدَه ويشربون نبيذه الجديد الَّذي سيكون دمَه المسفوك لأجلهم على الصّليب، والَّذي سيُشكِّل دمَ العهد الجديد (الفصل١٩).

وعليه، فإنّ **الكنيسة هي "المرأة" الَّتي تجلب النّاس إلى المسيح ومريم هي رمزُ هذا السّرّ. إنّها مثل حوّاء، تُسمَّى أيضًا "المرأة" (تك ٢: ٢٣) الَّتي ستُصبح بعد موت يسوع "أُمَّ كلِّ حيّ" (تك ٣: ٢٠). فيها** [مريم] **ومن خلال الكنيسة تأخذ الولادةُ في المسيح مكانَها الطّبيعيّ**. وهذا ما سنراه في النقطة التّالية من دراستنا: "مريم، أُمّ الكنيسة".

---

[٣٧] Michael Taylor, ***John the different Gospel***, p. 20.

٩) **مريم، أمُّ الكنيسة** "الصّليب" (يو ١٩: ٢٥-٢٧)

ها قد وَصَلنا إلى النقطة الحاسمة في تاريخ الخلاص، إذ سيُفتَتَحُ العهدُ الجديدُ بدم الحمل المراقُ على خشبة الصَّليب. نُلاحِظُ أنّه من خلال مشهد الصَّلب هذا، تَحَقَّقَتْ نبوءةُ سمعانَ الشَّيخ بأنّه "سيَجوزُ سيفٌ في نَفسِكِ" (لو ٢: ٣٥). فالسَّيفُ الَّذي تَنَبَّأَ به سمعان هو سيفُ آلام وصلب وموت ابنها الوحيد، والَّذي ستُطيعُهُ مريمُ كخادمةٍ للسرِّ الإلهيّ ولتدبير الله الخلاصيّ (**إنّ التّدبير الخلاصيّ هو قصد الله ومخطّطُه بالنّسبة إلى الإنسان، وتصميمُ محبَّته الَّذي يتحقّق في تاريخ الخلاص الَّذي يصل إلى ذروته في التجسّد والفداء**)، ومستسلمةٍ لمشيئة الله في حياتها وهي الَّتي كانت تَسمَعُ كلَّ هذه الأقوال وتَحفَظُها في قلبها (لو ٢: ٥١).

مريمُ عند أقدام الصَّليب مع التّلميذ الَّذي كان يسوعُ يُحِبُّه والَّذي يرمزُ إلى جماعة الرسل وإلى جماعة المؤمنين، جَعَلَها تتحوَّلُ من أُمٍّ خاصّةٍ بيسوع إلى أُمِّ الجماعة المؤمنة كلِّها، حين نَظَرَ يسوع إلى أُمِّه وقال لها: "يا امرأة، هوذا ابنُكِ" (يو ١٩: ٢٦)، وقال ليوحنّا: "هذه أُمُّكَ. ومِن تلكَ السَّاعةِ أخذَها التِّلميذُ إلى خاصَّته" (يو ١٩: ٢٧). يقولُ **البابا يوحنّا بولس الثاني** في هذا الصدد: "إنّ الكلماتِ التي يَتَلَفَّظُ بها يسوعُ وتَتساقطُ من أعلى الصَّليب، **تُشيرُ إلى أنّ أمومةَ والدتِه تَجِدُ لها امتدادًا في الكنيسة وبالكنيسة، ممثَّلةً بيوحنّا**. وهكذا "فالمتلئةُ نعمةً" الَّتي أَدخَلَتْ سرَّ المسيح لتكونَ أمًّا له، أعني والدةَ الإله الفائقةَ القداسة، تَظَلُّ في هذا السرِّ في الكنيسةِ بوصفها "المرأة" الَّتي يَعنيها سفرُ التكوين (٣: ١٥) في البدء وسفر الرؤيا (١٢: ١) في خاتمة تاريخ الخلاص. وقد خطّطتِ

العنايةُ الإلهيّةُ منذ الأزل أن تَشملَ أمومةُ مريم الإلهيّة الكنيسة. ذلك ما تجزم به معطيات التراث الراسخة الَّتي ترى في أمومة مريم للكنيسة انعكاسًا وامتدادًا لأمومتها لابن الله"[٢٨]. هنا، لا بدّ أيضًا من تأكيد أمرٍ بالغ الأهميّة في اللاهوت المريميّ والَّذي تَكَلَّمنا عنه مرارًا في دراستنا هذه هو **بتوليّةُ مريم الدّائمة وعدم زواجها فيما بعد الولادة البتوليّة وإنجاب إخوةٍ ليسوع**، إذ إنّ هذا الموضوع يطالُ القِسطَ الأكبر من إدّعاءات المُغرضين والمُحاربين لعقيدة الكنيسة المريميّة. **أينَ هم إخوةُ يسوع أثناء تنفيذ حكم الموت [الصَّلب] بأخيهم؟** هذا الشقُّ الأول، والشقُّ الثاني يكمنُ في السؤال **لماذا لم تَذهبْ مريمُ إلى بيت أحدِ أبنائها بل أخذها يوحنّا إلى بيته الخاصّ؟ هل هي أيضًا منبوذةٌ كابنها من إخوته؟** إنّ هذه الأسئلةَ تَبقى أسئلةً تتطلَّبُ جوابًا شخصيًّا من كلِّ مَن يقرأُها ويتأمّلُ فيها على ضوء حدث سرِّ المسيح الخلاصيّ الَّذي حقَّقَه في التّاريخ البشريّ.

إذا ما أردنا اختصار ما تقدّم سابقًا نؤكِّد أنّ لقب "المرأة" الَّذي جاء على لسان المصلوب، يجعل من مريم تحقيقًا وتجسيدًا لرمزيّة "ابنة صهيون" الَّتي تنبّأ عنها الأنبياء في العهد القديم (أش ٦٠: ٤–٥؛ با ٤: ٣٦–٣٧؛ ٥: ٥)، **وتصبح مريم، أُمُّ يسوع، بالتّالي، الأُمَّ المسيحانيَّة والإسكاتولوجيّة لشعب الله الجديد، الكنيسة الأرضيّة والكنيسة السّماويّة**. فالمصلوب ومن أعالي الصَّليب كشف بُعدًا جديدًا لأُمومة مريم، بُعدًا روحيًّا، ودورًا جديدًا لأُمِّه في

[٢٨] البابا يوحنّا بولس الثاني، **رسالة أُمّ الفادي**، عدد ٢٤.

التّدبير الخلاصيّ، إذ إنّ حدث الصَّليب هو حدثٌ مسيحانيٌّ وإكليزيولوجيّ (كنسيّ) بامتياز. هذا ما سنراه بالتّفصيل في الفصل الثاني من هذا الكتاب: "مريم في سرّ الصّليب، أُمومةٌ روحيّة".

١٠) **مريم، القلبُ النَّابضُ للجماعة الأولى** "العنصرة" (أع ١: ١٤)

بعد مشهد الصَّلب وانتداب مريم للمسؤوليَّة الكنسيَّة الجديدة بأنّ تكونَ أُمًّا لجسد المسيح السرّيّ "الكنيسة"، فإنّنا نجدها الآن وكتلميذةٍ لابنها الإلهيّ في قلب الجماعة النَّاشئة والمنتَظِرَةِ تحقيق وعد المخلِّص بإرسالهم المعزّي (الباراقليط)، حسب ما جاء في إنجيل الحبيب يوحنّا على لسان يسوع نفسه في خطاب الوداع الأخير، حين قال: "وأنا أسألُ الآبَ فيُعطيكُمْ **مُعَزِّيًا** آخرَ ليُقيمَ معكم إلى الأبد، **روحَ الحقِّ** الَّذي العالمُ لا يَستطيعُ أن يَقبَلَهُ لأنّهُ لم يَرَهُ ولم يَعرِفْهُ، أمّا أنتم فتَعرِفونَهُ لأنّهُ مقيمٌ عندَكم ويكونُ فيكم" (يو ١٤: ١٦-١٧) والَّذي عادَ يسوعُ الحيُّ والقائمُ من بين الأموات فأكَّدَهُ، حين أوصى تلاميذَهُ "أنْ لا تَبرَحُوا من أورشليمَ بل **انتظِروا موعِدَ الآب الَّذي سَمِعتُموهُ منّي**" (أع ١: ٤).

فحلولُ الرُّوح القدس على التّلاميذ في العنصرة يرمزُ بكلِّ أبعاده اللاهوتيّة والروحيّة إلى **المعموديّة الجديدة المرتَقَبَة** والَّتي تكلَّمَ عنها الرَّبُّ نفسُه لتلاميذه قبل صعوده إلى السّماء، إذ قال: "إنّ يوحنّا إنّما عَمَّدَ بالماء، أمّا أنتم فَستُعَمَّدونَ بالرُّوح القدس بعدَ أيَّامٍ غيرِ كثيرة... لكنَّكُم ستَنالونَ قُوَّةَ الرُّوحِ القدس الَّذي يَحِلُّ عليكم، فتَكونونَ لي شهودًا في أورشليمَ وجميعِ اليهوديَّة وفي السَّامرة وإلى أقصى الأرض" (أع ١: ٨).

فمريمُ الأمُّ والتِّلميذةُ كانت تُواظِبُ على الصَّلاة مع تلاميذ الرَّبِّ والنّساء الأُخريات اللواتي **كُنَّ يَتبَعنَ الرَّبَّ في مسيرة حياته الأرضيّة** (أع ١: ١٤) **استعدادًا لبدء مسيرةٍ جديدةٍ في تاريخهم الشخصيّ** (أي تحوُّلهم من صيّادي سمكٍ إلى صيّادي بشر) **وتاريخ طريقهم الجديدة** (تأسيس الكنيسة) **وللدخول في زمنٍ خلاصيٍّ جديد هو زمنُ الله الرُّوح القدس**، الذي سيَسكنُ قلوبَ الجماعة النّاشئة وسيُؤسِّسُ كنيسةَ المسيح المجاهدةَ والمُنتصِرةَ بدم الحمل الفصحيّ؛ هذا هو زمنُ الرُّوح القدس في الكنيسة الأرضيّة في مسيرتها التَّصاعُديَّة نحو الكنيسة السَّماويّة "ملكوت السَّماوات".

١١) انتقال والدة الإله بالنَّفس والجسد إلى السَّماء (تقليد الكنيسة)

إنّ هذا التَّقليدَ لا يَرتكِزُ على حدثٍ تاريخيّ، بل يُعبِّرُ بشكلٍ روائيٍّ عن إيمان الكنيسة الأولى بأنّ ابن الله الَّذي اتّخذَ جسدًا من أحشاء مريم العذراء، وصار لها ابنًا حقًّا، وخَصَّها بشرف البتوليَّة الدَّائمة، أَكمَلَ نعمتَه عليها، فصانَ جسدَها من فساد القبر ونَقَلَه إلى المجد السَّماوي. وهذا الايمانُ لا يَستندُ إلى نصوصَ كتابيَّةٍ مباشرة بل إلى تحليلٍ لاهوتيّ، يعتبرُ انتقال مريم العذراء بجسدها ونفسها إلى المجد السَّماويِّ نتيجةً ضروريّةً لأمومتها الإلهيّة.

فكما أقامَ اللهُ جسدَ ابنِه ولم يتركْهُ "يرى الفساد" (راجع خطبة بطرس الأولى في أع ٢: ٢٢- ٣٢)، كذلك أقامَ الابنُ جسدَ أمِّه، ذلك الهيكلُ الطَّاهر الَّذي قَدَّسَه الرُّوحُ القدس وسَكَنَ فيه ابنُ الله تسعةَ أشهر وقد

اتّخذَ منه دمَه ولحمَه، ولم يتركْه يرى الفسادَ والانحلالَ كسائر أجساد البشر. فبسبب تلك الشَرِكةِ الروحيَّة في المجد والبهاء بين السيّد المسيح وأمِّه، آمَنَتِ الكنيسةُ أنّ مريمَ العذراء، بعد موتها، شارَكَتِ ابنَها مجدَ قيامته كما شارَكَتْهُ، في تَجَسُّده، مجدَ ظهوره.

وهذا التَّحليلُ اللاهوتيُّ نجده لدى كثيرٍ من الآباء القدّيسين: يقول * **أندراوس الكريتيّ** († ٧٢٠): "من اللائق أن يُدبِّرَ ابنُ الله مصير والدته بحسب مصيره الخاصّ"؛ ويقول * **جرمانوس بطريرك القسطنطينية** († ٧٣٣): "كيف يُحَوِّلُكِ الموتُ إلى رمادٍ وتراب، أنتِ الَّتي، بتجسُّدِ ابنِك، أَنقَذتِ الإنسانَ من فساد الموت؟"[٢٩]؛ ويوضحُ * **يوحنّا الدمشقي** († ٧٤٩)، في عظته الأولى والثانية على الانتقال، لماذا ماتَتْ مريمُ العذراء، ولماذا انتقلَتْ بعد موتِها إلى السَّماء بجسدها ونفسها. يقول: "لماذا الانتقال؟ لقد كان من الواجبِ أن يُكابِدَ أسرَ المهاوي الأرضيَّةِ هذا **المقرُّ اللائقُ بالله؛ اليُنبوعُ** الَّذي لم تَحفُرْهُ يدُ البشر، حيث تتفجَّرُ المياهُ التي تُطَهِّرُ من الخطايا؛ **الأرضُ** غيرُ المحروقة الَّتي تُنتِجُ الخبزَ السَّماويّ؛ **الكرمةُ** الَّتي أعطتْ بدون أن تُروَى خمرَ الخلود؛ **زيتونةُ** رحمةِ الآب الدَّائمةِ الاخضرار ذاتِ الثِّمارِ العَذبة. ولكن، كما أنّ الجسدَ المقدَّسَ النَّقِيَّ الَّذي اتّخذَهُ الكلمةُ الإلهيَّةُ منها، قامَ من القبرِ في اليوم الثالث، هكذا كان يجب أن تُؤخَذَ هي من القبرِ وأنْ تجتمعَ الأمُّ بابنِها. وكما نَزَلَ نحوها، هكذا يجب أنْ تُرفَعَ هي عينُها حتّى "القبّةِ الأسمى والأكمل" إلى "السَّماءِ عينِها" (عب ٩: ١١- ٢٤). اليوم، السُلَّمُ الحيُّ الرُّوحيُّ الَّذي نزلَ عليه العليُّ ليظهرَ على الأرض ويتحدّثَ مع البشر، قد صَعِدَ من الأرض إلى السّماوات

[٢٩] المطران كيرلّس بسترس، **مريم العذراء أمّ ربّنا يسوع المسيح**، ص٨٨.

بواسطة سُلَّم الموت... اليوم انتقلتْ مدينةُ الله الحيَّةُ من أورشليمَ الأرضيَّةِ إلى أورشليمَ السَّماويّة... وكما أنّ الجسد الجزيل القداسة والعديم الفساد والمولود منها والمتَّحد أُقنوميًّا بالكلمة الإلهيّ، نهضَ من القبر في اليوم الثالث، كذلك كان من الواجب أن تُنشَلَ العذراءُ من القبر وتنضمَّ الأُمُّ إلى ابنها... وكما أنّه نزلَ إليها، كذلك وجبَ أن ترتفعَ هذه الأُمُّ الحبيبة إلى مقرٍّ أرحب وأجمل، إلى السّماء نفسِها؛ وأن تسكنَ في مظلّ ابنها، تلك الَّتي أضافتِ الله الكلمة في مستودعِها الخاصّ"[٣٠].

يقول **بولسُ الرسول**: "فإذا كان الرُّوحُ الَّذي أقامَ يسوعَ من بين الأموات حالاًّ فيكم، فالَّذي أقامَ يسوعَ المسيحَ من بين الأموات يُحيي أيضًا أجسادَكُمُ الفانيةَ بروحِه الحالِّ فيكم" (رو ٨: ١١).

انتقالُ مريم العذراء بجسدها ونفسها الى السَّماء هو نتيجةٌ لعمل الرُّوح القدس فيها. فالرُّوح القدس الَّذي حلَّ عليها وأحيا جسدَها لتصيرَ أمًّا لابن الله هو نفسُه يُكمِّلُ عملَه فيها ويُحيي جسدَها المائتَ ويَنقلُه الى المجد السَّماوي. الرُّوحُ القدس هو قدرةُ الله المحيية، وهذه القدرةُ لا يُوقِفُها شيء: إنّها حركةٌ دائمة، وديناميَّتُها تَفوقُ ما يستطيعُ عقلُنا البشريُّ تصوَّرَه: فالرُّوحُ القدسُ إذن هو مَن أحيا جسدَ العذراء. جانبٌ آخرُ في عقيدة انتقال السيّدة بالنَّفس والجسد إلى السَّماء هو **وعدُ يسوعَ نفسِه** في معرض كلامه عن الموت والقيامة للمؤمنين باسمه، بحسب ما جاء على لسانه في إنجيل الحبيب يوحنّا، ، حين قال: "الحقَّ الحقَّ أقولُ لكم: إنّ مَن يَسمَعُ كلامي ويؤمِنُ بمَن

---

[٣٠] مجموعة باحثين، **تاريخ الفكر المسيحيّ**، ص٦٧٠-٦٧١.

أرسلَني، لهُ الحياةُ الأبديَّةُ ولا يصيرُ إلى دينونة، لكنّهُ قدِ **انتَقَلَ من الموت إلى الحياة"** (يو ٥: ٢٤).

فانطلاقًا من هذه النّصوص الإنجيليَّة المتنوّعة، آمنَتِ الكنيسةُ المقدّسةُ بعقيدة انتقال العذراء بالنَّفس والجسد إلى السَّماء وجَعَلَتْها عيدًا مقدَّسًا يُقامُ كلَّ عامٍ في الخامس عشر من شهر آب بعد مسيرة صيامٍ وقطاعةٍ يتخلَّلُها صلاةُ الباراكليسي، لكي يستطيعَ كلُّ مؤمنٍ أن يقرأَ في مسيرة حياة مريم العذراء مسيرةَ إيمانه الشخصيّ، وفي مصير مريم العذراء بعد الموت مصيرَ كيانه ومصير شخصه في نهاية الزَّمن.

١٢) مريم، المرأةُ الملتَحِفَةُ بالشَّمس (رؤ ١٢)

قبل الشّروع في دراسةٍ مختصرةٍ لِما يتضمّنه سفر الرؤيا من أحداثٍ ورموزٍ، نودّ أن نضعَ القارئَ أمام حقيقةٍ روحيّةٍ رئيسيَّةٍ تقوم على أنّ هذا الفصل الثاني عشر من سفر الرؤيا كُتِب ليُظهرَ حماية شعب الله من الشّيطان وأعوانِه، إذ إنّ المسيح قد حَسَمَ الانتصار والغَلَبَةَ عليه [الشّيطان] – وهو العدوّ الأوّل والحقيقيّ للإنسان المخلوق على صورة الله ومثاله – من خلال موته وقيامته، وهذا يبيِّن جَلِيًّا أنّ الغاية هي "تشجيع القارئين على الحفاظ على شهادتِهم والتمسُّك بها على الرغم من الاضطهاد"[٣١].

[٣١] G. K. Beale, ***The Book of Revelation***, NIGTC, p.624.

١. رمزيّة سفر الرؤيا

يتمتّع كتاب يوحنّا الرؤيويّ برمزيّةٍ عاليّة، وهذا ما يزيد من صعوبة تفسيره وفهمه. تدرس الرؤيا أفكارًا عدّة، منها:

أ. البُعد الماضي المنصرم

إنّ وجهة النّظر هذه تتضمّن صيغتَين هما:

الرؤيا هي نبوءة سقوط أورشليم في العام ٧٠م، والَّتي بالطّبع، تستلزم أنّ الرؤيا كُتِبَت قبل العام ٧٠م. تُمثِّل "بابل العظيمة" إسرائيل المُرتَد عن عقيدته ودينه أي الكافر (رؤ ١٨)، والَّذي يقدِّم المساعدة لروما (الإمبراطوريّة الرومانيّة) في قمع المسيحيّين. وفقًا لذلك، فإنّ جزءًا من هدف الكتاب هو لتشجيع المسيحيّين بأنّ مضطهديهم اليهود سيحاكَمون من أجل كُفرهم ولتطمين القارئين أنّهم الآن يكوِّنون "إسرائيل الحقيقيّ". فالرؤيا تركِّز كثيرًا على الموضوع الاسكاتولوجيّ المتمحور في المعركة العظيمة في نهاية الزّمن بين قوّات الشّرّ وابن الإنسان، وفي الانتصار النّهائيّ في أورشليم السّماويّة.

الرؤيا هي نبوءة سقوط الإمبراطوريّة الرومانيّة، "بابل العظيمة"، مُضطَهِدة المسيحيّين على مدار خمسةِ القرون الأولى للميلاد. إنّ هدف الكتاب هو تشجيع المسيحيّين على الصّمود لأنّ مُضطَهديهم سيُدانون.

ب. البُعد المستقبليّ

يتضمّن هذا البُعد الخطوط العريضة التّالية: **(١)** إعادة ترميم وتجديد إسرائيل الوثنيّ؛ **(٢)** نشوة جذل الكنيسة وفرحها في السّماء؛ **(٣)** محنة السنوات السّبع؛ **(٤)** عهد المسيح الدجّال؛ **(٥)** تجمُّع الشّعوب الشّريرة للقتال على أورشليم؛ **(٦)** المجيء الثاني للمسيح وهزيمة الشّعوب الشّريرة؛ **(٧)** عهد المسيح الألفيّ؛ **(٨)** التمرّد النّهائيّ للشّيطان في نهاية الألفيّة، حين يَحشُد الكافرين من جميع أنحاء العالم ليُقاتلوا ضدّ المسيح والقدّيسين؛ **(٩)** وبالتّالي، يملك المسيح إلى الأبد جنبًا إلى جنبٍ مع القدّيسين في السّماء الجديدة والأرض الجديدة. فالتّاريخ المستقبليّ، بناءً على النّقاط السّابقة، يتضمّن إعلانًا جوهريًّا يتلخّص في أنّ **الكنيسة هي إسرائيل الحقيقيّ**.

ت. رمزيّة الأعداد

هذا باختصارٍ ما يختصّ برمزيّة الأحداث التّاريخيّة، أمّا في ما يتعلّق برمزيّة الأعداد، فتأتي كالتّالي:

- **العدد "٤":**

إنّه أيضًا عددٌ يُشير إلى الكمال وبخاصّةٍ عندما تدور الرؤيا حول شيءٍ له علاقة بالكون أو عالميّ الانتشار، إمّا من خلق الله للبشريّة أو من غاية الله الَّتي تريد أن تُسيطر البشريّة على الأرض بكلّيّتها (رؤ ٤: ٦–٨؛ ٧: ١). بعباراتٍ أخرى، يُشير العدد "٤" إلى **الاكتمال الكونيّ**، كما في الأرض "زوايا أربع" (رؤ ٧: ١؛ ٢٠: ٨) و"رياح أربع" (رؤ ٧: ١). إنّ الدلالة

الرئيسيّة لهذا المعنى تظهر حين تُقدِّم كلُّ الخلائق أربع تسبيحاتِ شكرٍ لله وللحمل: "وكلُّ خليقةٍ في السّماء وعلى الأرض وتحت الأرض وفي البحر، وكلّ ما فيها، سمعتُه يقول: للجالس على العرش وللحمل التّسبيح والإكرام والمجد والعزّة أبد الدّهور" (رؤ ٥: ١٣)؛ في مكانٍ آخر، حين يُشار إلى أنّ العالم ينقسم أيضًا إلى أربعة أقسامٍ (رؤ ٨: ٧-١٢؛ ١٤: ٧؛ ١٦: ٢-٩). أقسام الأرض الأربعة هذه هي أهدافُ الأبواق الأربعة الأولى والأكواب الأربعة الأولى، الَّتي تُظهر **سلطة الله القضائيّة** على جميع الخلق.

- **العدد "٧":**

إنّ هذا العدد يُشير إلى الكمال ويجد خلفيّته في الأيّام السّبعة للخلق (تك ١)، وهي الفترة الكاملة لعمل الله الخَلقِيّ. كذلك يستعمل العهد القديم العدد "٧" للتّعبير عن الغضب الكامل بهدف تحقيق العدالة (راجع تك ٤: ١٥، ٢٤؛ مز ٧٩: ١٢). أمثلةٌ أخرى مستقاةٌ من الرؤيا (الأختام السّبعة، الأبواق السّبعة، الأكواب السّبعة) من أجل التّاكيد على اكتمال **حكم الله في جميع أنحاء العالم**.

- **العدد "١٠":**

يُشير أيضًا إلى الكمال.

- **العدد "١٢":**

إنّه عددٌ يُمثّل أيضًا الكمال من خلال فكرة **"الوَحدة في التنوّع"**. فكما في أُمَّةٍ واحدةٍ ألَّفَ إسرائيلُ الأسباط الاثني عشر في العهد القديم،

كذلك عكس الرسلُ الاثنا عشر الحقيقةَ نفسَها لشعب الله في العهد الجديد. إنّه عدد شعب الله؛ عددٌ ذو أهميّةٍ إذ يُشير إلى **المرأة المُلتَحِفَة بالشّمس** من جهة، وإلى **صورة أورشليم الجديدة كصورةٍ تدلّ على نهاية الزّمن واكتمال القدّيسين الَّذين يؤلّفون جماعة الله**: إنّهم المجموع الكلّيّ لشعب الله ضد المجموع الكلّيّ للعالم غير المؤمن والكافر (رؤ ٢١: ٩-٢٢: ٥). يتكرّر هذا العدد "١٢" أيضًا في نهاية كتاب الرؤيا حوالي اثنتي عشرة مرّة (٢١: ٩-٢٢: ٥) لتسليط الضّوء على **تحقيق وَحدة شعب الله الكاملة**[٣٣].

نخلص للقول أنّ يوحنّا قام باستعمال هذه الأعداد ليُشير إلى حقيقةٍ جوهريّةٍ وهي أنّ **مشيئة الله** تقود كلّ حدث وأنّ **سيادته الإلهيّة** تسود ما في السّماوات وما في الأرض. فالأعداد، إذن، تُمثِّل **الإرادة الإلهيّة** كشبكةٍ لتطويق وحصار قوّات الشّيطان من كلّ جهة وأسرها، وكإعلانٍ عن انتصار شعب الله في معركته النّهائيّة مع الشّيطان وأتباعه.

ث. هل من غاية ليوحنّا من استعمال الرّموز في كتابه؟

قد يتساءل الكثيرون أنّ كتاب الرؤيا يدخل في منظومة "الأسطورة" وليس "الحقيقة". ممّا لا شكّ فيه أنّ كاتب الرؤيا قد استخدم لغةً تصويريّةً هدفها استخدام الأسطورة كوسيلةٍ للحقيقة. فالعهد القديم وسفر الرؤيا يستطيعان تطبيق صفات الآلهة الأسطوريّة على إله الكتاب المقدّس لإظهاره على أنّه الإله الحقيقيّ في مواجهة الآلهة المزعومة الأخرى.

[٣٣] Baukham, ***The Theology of the book of Revelation***, p. 54.

لقد طبّق العهد القديم صفات البعل على يهوه لإثبات أنّ يهوه، وليس البعل، هو الإله الحقيقيّ (راجع مز ٢٩). الظّاهرة نفسُها تتكرّر مع اسم الله في الرؤيا "الَّذي هو كائنٌ وكان وسيأتي" (رؤ ١: ٤، ٨؛ ٤: ٨)، الَّذي كان مخصَّصًا لكبير الآلهة زيوس في العالم اليونانيّ، وقد استعمله يوحنّا للإشارة إلى الله، إله الكتاب المقدّس.

إنّ الهدف العامّ من وراء الرمزيّة في سفر الرؤيا يكمنُ في تشجيع الجماعة المسيحيّة ونُصحها. فالرّموز تُصوِّر الخلق الجديد المتعالي الَّذي اخترق العالم القديم الحاليّ من خلال موت وقيامة المسيح وإرسال الرّوح القدس في العنصرة بعد خمسين يومًا على قيامة يسوع (أع ٢: ١-٤). ستُشكِّل هذه الأحداث الخلاصيّة أساس الحياة المسيحيّة في العالم الجديد وتوضّح المغزى الأبديّ لحياة المسيح وموته وقيامته ولاختيارات القارئ الحاليّ ومسلكيّته من خلال معايير **مركزيّة الله** في الخلق الجديد، الَّتي تجعلهم يرَون وضعهم الخاصّ في هذا العالم على ضوء نور العالم الجديد، الَّذي سيكون الآن وطنَهم الحقيقيّ.

٢. بُنية سفر الرؤيا

يُقسَم سفر الرؤيا إلى قسمَين رئيسيَّين بالإضافة إلى مقدّمة وخاتمة، على الشّكل التّالي:

المقدّمة (١-٣): تتكلّم عن ظهور ابن الإنسان للرّائيّ في باطموس والسّبع رسائل إلى الكنائس في آسية الصّغرى.

القسم الأوّل (٤-١١): يَصِف هذا القسم، بمساعدة الرؤى النبويّة، تطوُّر تاريخ العالم ومواجهة الشّهود مع العالم. يبدأُ القسم بالرؤية العظيمة للمحكمة والليتورجيّا السّماويّة (٥-٦). إنّ **الكتاب المختوم** الَّذي يحتوي على المخطَّط الإلهيّ للخلاص قد أُعطِيَ للحمل الواقف أمام العرش. ماذا يتضمّن هذا الكتاب المختوم؟ إنّه يتضمّن **القرارات السريّة لله** والّتي ما زالت مكتومةً عن الإنسان. إنّ فَضَّ الأختام يعني أن يتعرّفَ الإنسان على أسرار الله ويُدركَ مخطّطه الخلاصيّ لصالح الإنسان، وهذا لن يتمّ إلاّ **مع المسيح القائم والممجَّد، الحمل الّذي يَقِفُ أمام عرش الله**. إنّ المشاهد الرؤيويّة تَصِفُ الكوارث الَّتي ستسود على الأرض، إلاّ أن المختارين، ومع ذلك كلِّه، سيَضعونها جانبًا وسيحتفلون، حول عرش الله، بانتصار الحمل وغَلَبَته.

إنّ صلواتِ القدّيسين أيضًا تُسرِّع في مجيء **"اليوم العظيم"** وكذلك نفخ الملائكة في الأبواق يُعلن، في الأدب الرؤيويّ، عن **القضاء النّهائيّ**، وهذا ما يميِّز الرؤيا في المسيحيّة، أنّها تَصِفَ دائمًا **مجيء الرّبّ والقضاء الأخير**. وفي هذا السياق، لا بدّ لنا أن نستشهد بما قاله بولس بوضوحٍ حول الموضوعَين الرؤيويَّين الأخيرَين في رسالتَيه الأولى إلى أهل كورنثس، والأولى إلى تسالونيكي: **"**في لحظةٍ وطَرْفة عين، عند **النّفخ في البوق الأخير**. لأنّه سيُنفخ في البوق، فيقوم الأموات غيرَ قابلين للفساد ونحن نتبدّل**"** (١كو ١٥: ٥٢)؛ **"**لأنّ الرَّبَّ نفسه، عند إعلان الأمر، عند انطلاق **صوت رئيس**

الملائكة والنّفخ في بوق الله، سيَنزل من السّماء فيقوم أوّلاً الَّذين ماتوا في المسيح" (١تسا ٤: ١٦).

القسم الثاني (١٢-٢٢: ٥): إنّ هذا القسم مخصَّصٌ لمصير الكنيسة: الاضطهادات في مجرى الزّمن بين ولادتها [الكنيسة] والأحداث الاسكاتولوجيّة (الأُخرويّة) من جهة، والانتصار النّهائيّ في أورشليم السّماويّة، من جهةٍ أخرى. إنّ الرؤيا تَصِفُ الكنيسةَ المُضطَهَدةَ في رمزيّة المعركة بين المرأة والتّنّين. وفي النّهاية يظهر الحمل مع الَّذين تَبعوه. وكنتيجةٍ مباشرةٍ لانتصارات المسيح في المعركة، يصبح القضاء النّهائيّ على وشك الابتداء: "ورأيتُ سماءً جديدةً وأرضًا جديدة، لأنّ السّماء الأولى والأرض الأولى قد زالتا، وللبحر لم يبق وجود. ورأيتُ المدينة المقدّسة، أورشليم الجديدة، نازلةً من السّماء من عند الله، مُهيَّأةً مثل عروسٍ مزيَّنةٍ لعريسها... ولن يكونَ لعنٌ بعد الآن، وعرشُ الله والحمل سيكون في المدينة، وسيعبُدُه عِبادُه ويُشاهدون وجهَه، ويكون اسمُه على جِباههم. ولن يكونَ ليلٌ بعد الآن، فلن يحتاجوا إلى نور سراجٍ ولا ضياءِ الشّمس، لأنّ الرَّبَّ الإله سيُضيءُ لهم، وسيملكون أبد الدّهور" (رؤ ٢١: ١-٢؛ ٢٢: ٣-٥).

كذلك يتضمّن هذا القسم فصولاً (رؤ ١٢: ١-١٥: ٤) تَصِفُ العلامات السبع المرئيّة، من خلال تعبيرَين أساسيَّين هما: "ورأيت - and i saw"، "وها - and behold": **(١)** صراع الحيّة مع المرأة ونسلها (رؤ ١٢)؛ **(٢)** اضطهاد الوحش من البحر (رؤ ١٣: ١-١٠)؛ **(٣)** اضطهاد الوحش من الأرض (رؤ ١٣: ١١-١٨)؛ **(٤)** الحمل وال١٤٤,٠٠٠ الواقفون على جبل صهيون (رؤ ١٤: ١-٥)؛ **(٥)** إعلان الإنجيل والقضاء من قِبَلِ ثلاثة

ملائكة (رؤ ١٤: ٦-١٣)؛ **(٦)** حصاد ابن الإنسان على الأرض (رؤ ١٤: ١٤-٢٠)؛ **(٧)** انتصار القدّيسين على وحش البحر وترنيمة انتصارهم (رؤ ١٥: ٢-٤).

الخاتمة (٢٢: ٦-٢١): إنّها حوارٌ بين المسيح وعروسِه، الكنيسة، الَّتي تنتظر وتأمل عودةَ عريسِها: "أجل، إنّي آتٍ على عَجَل. آمين! تعال، أيُّها الرّبُّ يسوع" (رؤ ٢٢: ٢٠).

٣. موقع الفصل ١٢ وأقسامه الرئيسيَّة

إنّ الفصل الثاني عشر من سفر الرؤيا يقعُ إذن في القسم الثاني من الكتاب والَّذي يتكلّم عن مصير الكنيسة والاضطهادات الَّتي ستُعانيها. يُقسم هذا الفصل إلى ثلاثة أقسام هي:

- **القسم الأوّل** (١٢: ١-٦): الله يحمي المسيح والجماعة المسيحانيّة من أذى الشّيطان.
- **القسم الثاني** (١٢: ٧-١٢): نتيجة الموت والقيامة في انتصار المسيح والقدّيسين على الشّيطان وفي افتتاح الملكوت المسيحانيّ.
- **القسم الثالث** (١٢: ١٣-١٧): كنتيجةٍ لانتصار المسيح على الشّرّ، الله يحمي الجماعة المسيحانيّة من أذى الشّيطان الغاضب والحانق.

٤. الخصائص اللاهوتيّة للفصل ١٢ وشخصيّاته

أ. المرأة المُلتَحِفَة بالشّمس[٣٣]

بعد أن رأى يوحنّا مشهد الهيكل (رؤ ١١: ١٩)، شاهد علامةً أخرى، "ظهرت في السّماء"، إنّها "امرأةٌ مُلتَحِفةٌ بالشّمس والقمرُ تحت قدمَيها، وعلى رأسها إكليلٌ من اثنَي عشر كوكبًا" (رؤ ١٢: ١). إنّ الآياتِ ٢-٦ تُظهر أنّ هذه **المرأة هي صورةُ الجماعة المؤمنة** الّتي كانت موجودةً قبل مجيء المسيح، وستبقى موجودةً أيضًا بعده. إنّ تشخيص المرأة هذا يستند إلى خلفيَّتَين كتابيَّتَين هما:

١. **حلم يوسف:** "رأيتُ [يوسف] حُلْمًا أيضًا كأنّ الشّمس والقمر وأحد عشر كوكبًا ساجدةٌ لي" (تك ٣٧: ٩).

إذا ما حاولنا تفسيرَ هذه الآية، نجد أنّ الشّمس تمثّل يعقوب/إسرائيل، والقمر يمثّل امرأتَه راحيل، والأحد عشر كوكبًا يُشيرون إلى أسباط إسرائيل الأحد عشر والّتي ستُقدِّم السّجود ليوسف الّذي يُمثّل بدوره السبطَ الثاني عشر، وهم أبناءُ يعقوب (تك ٣٥: ٢٣-٢٦)[٣٤].

إنّ الإكليل الّذي على رأس المرأة والمكوَّن من اثني عشر كوكبًا يرمز إلى أسباط إسرائيل الاثني عشر، وبالتّالي يُلمِّح ظهور المرأة إلى **شخصيّة**

---

[٣٣] تَرِدُ كلمة "مرأة" عشر مرّات (رؤ ١٢: ١، ٤، ٦، ١٣، ١٤، ١٥، ١٦، ١٧؛ ١٩: ٧؛ ٢١: ٩) وكلمة "عروس" ثلاث مرّات (٢١: ٢، ٩؛ ٢٢: ١٧).

[٣٤] Raymond Brown, ***Mary in the New Testament***, p. 230.

إسرائيل الكهنوتيّة (راجع رؤ ١: ٦؛ ٥: ١٠). فلقد وصفَ سفر الخروج في فصلَين كاملَين (٢٨ و٣٩) ثياب كهنة العلّيّ، خدّام المذبح، بناءً على إرادةٍ إلهيَّة لموسى (خر ٣٩: ١، ٤٢-٤٣) أصبحت "فريضةً أبديّةً" (خر ٢٨: ٤٣) لكلّ الكهنة في ما بعد. إنّ الثياب الكهنوتيّة الَّتي أرادَها الله هي "ثياب مجدٍ وبهاء" (خر ٢٨: ٢)، إذ إنّهم [الكهنة] يمثّلون أسباط إسرائيل الاثني عشر أمام الرّبّ في خدمة الهيكل (خر ٢٨: ٢١؛ ٣٩: ١٤). ماذا يعني كلّ هذا؟ هذا يعني **أنّ لإسرائيل الأرضيّ** [أو لإسرائيل على الأرض] **هُويَّةً إلهيَّةً سماويّةً، انطلاقًا من حياته السّماويّة ودعوته الإلهيّة.**

أمّا الإكليل الَّذي على رأس المرأة (أنظر مراجع أخرى للأكاليل في رؤ ٢: ١٠؛ ٣: ١١؛ ٤: ٤، ١٠؛ ١٤: ١٤) فيُشير وبكلٍّ وضوحٍ إلى **اشتراك القدّيسين في ملكوت المسيح**، وإلى **المكافأة الَّتي سيَحصل عليها شعبُ الله** على مرّ العصور لانتصارهم على مناهضة إيمانهم من خلال الإغراءات لتقديم تنازلاتٍ أمام اعتداءات الشّيطان، الاضطهادات والأضاليل المغلوطة. ويعزو كاتب سفر الرؤيا مصدرَ هذا **الانتصار إلى دم الحمل وحماسة شعب الله الروحيّة** وهم الَّذين خُتِموا على جباههم (راجع رؤ ٧: ١-٨؛ ١١: ١-٦؛ ١٢: ٦، ١١، ١٤-١٦). فالمرأةُ تظهر في شخصيَّتها السّماويّة والممجَّدة، إذ إنّ ظهورها السّاطع الضّياء هذا يعكس قوّة ونقاء ضوء الشّمس الشّارق من صورة الله والمسيح المتألِّقة[٣٥] (راجع رؤ ١: ١٦؛ ١٠: ١؛ ٢١: ٢٣؛ ٢٢: ٥). وعليه،

[٣٥] A.F. Johnson, ***Revelation***, p. 514.

فإنّ **إشراقة المرأة هنه تتضمّن الهُويّةَ السّماويّة والحمايةَ السّماويّة الّتي لا تُقهَر لشعب الله ضدّ الاضطهاد والفساد عبر الإغراء، والتّضليل وأيّة رذيلةٍ أخرى.**

نجد في مقطعٍ كُتِبَ خصّيصًا لمدح الحكمة في سفر الحكمة، وكأنّ المفردات المستعملة في تلك الحقبة تتحرّك الآن باتّجاه مطابقتها على شخصيّة امرأة الرؤيا البهيّة: "... فهي لطهارتها تخترق وتَنفُذُ كلّ شيء. فإنّها نفحةٌ من قدرة الله **وانبعاثٌ خالصٌ من مجد القدير**. فلذلك لا يتسرّب إليها شيءٌ نَجِس، لأنّها **انعكاسٌ للنّور الأزليّ، ومرآةٌ صافيةٌ لعمل الله**، وصورةٌ لصلاحه... **فإنّها أبهى من الشّمس، وأسمى من كلّ مجموعة نجوم، وإذا قيسَت بالنّور ظَهَرَ تفوُّقُها، لأنّ النّور يَعقُبُه اللّيل، أمّا الحكمة فلا يَغلِبُها الشّرّ**" (حك ٧: ٢٤-٣٠).

٢. **امرأة نشيد الأناشيد:** "مَن هذه المُشرِفةُ كالصُّبح، الجميلةُ كالقمر، المُختارةُ كالشّمس، المَرهوبةُ كصفوفٍ تحت الرّايات" (نش ٦: ١٠).

إنّ العهد القديم قد رأى في أورشليم تجسيدًا لشخصيّة ملكة سليمان (نش ٦: ٤، ١٠). وهذا التّشبيهُ المتألِّق البهاء والضِّياء يرمز إلى **إسرائيل الأمين** في الأدب اليهوديِّ في وقتٍ لاحق، وَفقًا للمدراش[٣٦]. إنّه يُشدِّد على إخلاص إسرائيل لله إمّا في تجواله في الصّحراء أو في المنفى. بُعدٌ آخر لهذه الآية يرمز إلى **حفاظ إسرائيل على الإيمان بالرغم من ظلم**

[٣٦] يتضمّن الأخبار والحكايات والأمثال. وهو يتوخّى أن يعطي تعليمًا أخلاقيًّا يكون أبطاله بمعظمهم من العهد القديم. لمعلوماتٍ أوسع حول المدراش، أنظر الملحق رقم (٥).

المملكات البابليّة، الفارسيّة، اليونانيّة والرومانيّة (مدراش خر ١٥: ٦؛ لا ٣٠: ٢؛ عد ٢: ٤).

نجد، في الوقت نفسه، صورة المنارة الذهبيَّة في زكريا: "وقال لي: ماذا أنت راءٍ؟ فقلتُ: إنّي نظرتُ، فإذا **بمنارةٍ كلُّها ذهب**، وخزّانُها على رأسها، وعليها سبعةُ سُرُجٍ وسبعةُ ألسنةٍ للسُّرُج الَّتي على رأسها" (زك ٤: ٢). إنّ هذه الصّورة تتطابق وصورة **الكنيسة** في الرؤيا (١: ١٢، ٢٠؛ ٢: ١؛ ١١: ٤).

لا بدّ من الإشارة أيضًا إلى ما قاله النبيّ أشعيا، واصفًا بهاء أورشليم (إسرائيل المرمَّم): "لا تكونُ الشّمس من بعد، نورًا لكِ في النّهار، ولا يُنيرُكِ القمر بضيائه في اللّيل، بلِ الرّبُّ يكون لكِ نورًا أبديًّا، وإلهُكِ يكون جلالَكِ. لا تغرُبُ شمسُكِ من بعد، وقمرُكِ لا يَنقُص، لأنّ الرّبّ يكون لكِ نورًا أبديًّا، وتكونُ أيّام مناحتِكِ قدِ انقضَت" (أش ٦٠: ١٩-٢٠)؛

كذلك يَصِفُ النبيّ أشعيا صهيون كعروسٍ ليهوه، يقول: "أُسَرُّ سرورًا في الرّبّ، وتبتهج نفسي في إلهي، لأنّه ألبسني ثياب الخلاص، وشَمِلَني برداء البرّ، كالعريس الّذي يتعصَّبُ بالتّاج، وكالعروس الّتي تتحلّى بزينتها" (أش ٦١: ١٠)؛ "وتكونينَ إكليلَ فخرٍ في يد الرّبّ، وتاجَ مُلكٍ في كَفِّ إلهِكِ... فكما أنّ شابًّا يتزوّج بكرًا، كذلك بنوكِ يتزوّجونك، وكسرور العريس بالعروس، يُسَرُّ بكِ إلهِكِ" (أش ٦٢: ٣، ٥).

إنّ الصّورة الأُنثويّة لمدينة صهيون في هذه النّصوص الأشعيويّة تُجسِّدُ بطريقةٍ بديعةٍ ما جاء في سفر الرؤيا عن "المدينة المقدّسة أورشليم النّازلة من السّماء من عند الله" (رؤ ٢١: ٩-١١). هناك، أي في رؤيا ٢١، تتساوى

"العروس، امرأة الحمل" مع "المدينة المقدّسة أورشليم" الَّتي يُظلِّلُها "مجد الله" و"حجرها البلّوريّ". **إنّ صهيون دُعِيَت عروسًا استنادًا إلى نبوءة زواج الله من إسرائيل الجديد كعروس نهاية الزّمن** (أش ٦٢: ٢-٥) وقد تحقَّقت في المرأة المُلتَحِفة بالشّمس (رؤ ١٢: ١).

إنّ الأنبياء قد صوّروا **إسرائيل** في بعض الأحيان **كامرأةٍ غير مُخلِصة وخائنة** (أش ١: ٨؛ إر ٦: ٢، ٢٣؛ ١٤: ١٧؛ ١٨: ١٣؛ ٣١: ٤، ٢١-٢٢؛ مرا ١: ٦، ١٥؛ ٢: ١، ٤، ١٠، ١٣؛ يو ١: ٨؛ عا ٥: ٢)؛ وصفوها، مرّاتٍ أخرى، **كشعبٍ** من خلال **صورة المرأة المُخلِصة** (إر ٤: ٣١)؛ لقد صوّر النبيّ أشعيا **إسرائيل كامرأةٍ مرمَّمةٍ من جديد في نهاية الأزمنة** (أش ٥٢: ٢؛ ٥٤: ١-٦؛ ٦١: ١٠؛ ٦٢: ١-٥، ١١؛ ٦٦: ٧-١٣). هذا ما يتعلّق بكتابات العهد القديم، أمّا في ما يختصّ بكتابات العهد الجديد، فإنّ **بولس، كيوحنّا، دعا المرأة عروسَ المسيح** (أف ٥: ٣١-٣٢؛ رؤ ٢١: ٢، ٩؛ ٢٢: ١٧).

في هذا الصدد، **تدلّ المرأةُ ذات الكواكب الاثني عشر على استمراريّة إسرائيل الحقيقيّ في شخص الرسل الاثني عشر والكنيسة الَّتي يُمثِّلونَها.**

بناءً على كلّ ما تقدّم حول المرأة المُلتَحِفة بالشّمس وخلفيَّتها الكتابيّة وبخاصّة كتب العهد القديم، فإنّ مفسِّري الفصل ١٢ من كتاب الرؤيا يضعون أمامنا تفسيرَين أساسيَّين لشّخصيّة المرأة، هما: **(١)** أنّها رمزُ **الكنيسة، شعب الله الجديد، جماعة الإيمان المسيحانيّة؛ (٢)** وأنّها رمز **مريم، أُمّ يسوع.**

إنّ هذه المرأة هي، قبل كلّ شيءٍ، رمزٌ **لإسرائيل، شعب الله الَّذي وَلَدَ المسيح**، وإنّنا نجد هذا الفكرة في الإنجيل الرّابع، حين قال يسوع بوضوحٍ للسّامريّة: "... لأنّ الخلاص يأتي من اليهود" (يو ٤: ٢٢). فيسوع كإنسانٍ هو من سلالةٍ يهوديّة، وقد وُلِدَ كطفلٍ متحدِّرٍ من الشّعب اليهوديّ، من المرأة صهيون. لكنّ هذه المرأة أصبحت في العهد الجديد الكنيسةَ، شعب الله الجديد.

مريمُ العذراء تُمثِّلُ ابنةَ صهيون، شعبَ العهد القديم الَّذي يَنتَظِرُ ولادةَ المسيح المخلِّص. وبعد أن وَلَدَتِ المسيحَ صارت صورةً للكنيسة التي تَلِدُ على مدى الزمان أعضاءَ جسد المسيح السِّرّي. اختيارُها من قِبَلِ الله وعلاقتُها بالمسيح هما صورةُ الكنيسة ومسيرتُها عبر التاريخ.

تُوحِي هذه الرؤيا بالسَّقطة الأولى التي تَعَرَّضَ لها الإنسانُ في بدءِ الخليقة. ففي كلا النصَّين عدّةُ عناصرَ مشترَكةٍ: المرأة، نسلها، الحيّة، العِراك الَّذي نشب بينهما، انتصار المرأة وولادتها قايين (راجع تك ٣: ١٥– ١٦، ٢٠؛ ٤: ١). لقد صوَّرَ الأنبياءُ إسرائيلَ في العهد القديم بملامح امرأة، "ابنةِ صهيون" الَّتي تُعاني أوجاعَ الولادة. وبعد تلك الأوجاع تَفرحُ بمجيء المخلّص: "المرأةُ حينَ تَلِدُ تَحزَنُ لأنّ ساعتَها قد أَتَتْ لكنَّها متى وَلَدَتِ الطِّفلَ لا تَعودُ تَتذكَّرُ شِدَّتَها من أجلِ الفرح، لأنّهُ قد وُلِدَ إنسانٌ في العالم. وأنتُمُ الآنَ مَحزونون، لكنّي سأراكُمْ فتَفرحُ قلوبُكم ولا يَنزِعُ أحدٌ فرحَكم منكم" (يو ١٦: ٢١– ٢٢): **فصورةُ المرأة الَّتي تَلِدُ تَرمزُ أيضًا إلى عمل فداء المسيح الَّذي أتمّه بموته وقيامته**. ظهورُ المرأة الملتحفة بالشَّمس كما صوَّرها سفرُ الرؤيا هو **تحقيقُ**

الرجاء المسيحانيّ الَّذي بَدَأَتْ ملامحُه في سفر التكوين في وعد الله للمرأة بأنّ نسلها سيَسحَقُ رأسَ الحيّة.

هذه المرأة أوّلاً "ابنةُ صهيون"، شعبُ العهد القديم الَّذي بَقِيَ ثابتًا في انتظار مجيء المسيح من خلال أوجاع تاريخه. وهو يرتَكِزُ على ذكرى فدائه السَّابق من عبوديّة مصر، ويرجو خلاصَه النهائيّ، وقد كان في عِراكٍ دائمٍ ضدّ قوى الشرّ الّتي استخدمت الأمم لإزالته. إنّ هذا التَّعبيرَ يجدُ صداهُ في كتب العهد القديم وخاصّةً عند النبيّ أشعيا الَّذي يُصوِّرُ إسرائيلَ كامرأةٍ وألَهُ [إسرائيل] كآلام المخاض والولادة (أش ٢٦: ١٧-١٨؛ ٦٦: ٧).

فامرأةُ الرؤيا الَّتي تَلِدُ بآلام المخاض تُمثِّل اضطهادَ جماعة العهد والخط المسيحانيّ طوال أوقات العهد القديم والمدّة الفاصلة بين العهدَين، والَّتي سبقت ولادة المسيح. إنّ الفعل اليونانيّ **"βασανίζω"** الَّذي يعني **"عذاب، ألم"**، يُستَعمل في العهد الجديد للدلالة على المعاناة من العقاب، من المحنة ومن الاضطهاد (مت ٨: ٦، ٢٩؛ ١٤: ٢٤؛ مر ٥: ٧؛ ٦: ٤٨؛ لو ٨: ٢٨؛ ٢بط ٢: ٨)؛ بينما يُستَعمل هذا الفعل في الرؤيا للإشارة إلى **"العذاب"** إمّا من قِبَل القوى الشّيطانيّة (رؤ ٩: ٥) أو من قِبَل الله (رؤ ١١: ١٠؛ ١٤: ١٠؛ ٢٠: ١٠).

وهذه المرأةُ هي ثانيًا الكنيسةُ التي ستُعاني الاضطهادات، ولكنّها متيقِّنةٌ بالنَّصر. فإنّها **"ملتحفةٌ بالشَّمس"، أي بنور المسيح ونور حضور الله**، و**"تحت قدميها القمر"**، رمز الدنيويّات الَّتي تزدريها والخلائق الَّتي تَسودُها، وعلى رأسها إكليل من اثني عشر كوكبًا هم الرسل الاثنا عشر. ستُعاني

الاضطهاد زمانًا يسيرًا تَلجأُ فيه إلى البرّية، أي إلى الخُلوة مع الله لتتأمَّلَ في محبّته وتغتذي بقربان المسيح الَّذي بقيامته من بين الأموات صار عربون دخولها الممجَّد إلى ملكوت الله. في أحيانٍ عدّة، يُصوِّرُ العهدُ الجديدُ الكنيسةَ "شعبَ الله الجديد" أو "إسرائيل الجديد" أو "صهيونَ الجديدة" كعروسٍ مهيَّأةٍ لعريسها الإلهيّ "الحمل"، انطلاقًا من نصَّين كتابيَّين، يركِّزان على **الوَحدة الإلهيَّة والرباط المقدَّس بين المسيح–العريس والكنيسة – العروس** (أف ٥: ٢٣–٢٧، ٣٢؛ رؤ ١٩: ٧). وعليه، فإنّنا نؤكّد أنّ مريم تُجسِّد، في الحقيقة، الكنيسة، وهذا ما يجعل من موضوعنا موضوعًا لاهوتيًّا يسترعي أهميّةً إكليزيولوجيّةً ومريميّةً، حتّى إنّ **اللاهوتيّ الكبير بالتازار** تحدّث عن **"الوجه المريميّ للكنيسة"**[٣٧]، حيث إنّ هذه العبارة تأخذنا إلى إعلان أنّ **الكنيسة كلَّها مريميّةٌ بامتياز.**

وهذه المرأةُ هي أخيرًا مريمُ العذراء "ابنةُ صهيون" الجديدة، شعبُ العهد الجديد، أمُّ المسيح الفادي الَّذي ارتفعَ إلى عرش الله. والرؤيا تَجمَعُ بين ولادةِ المسيح على الأرض وولادتِه بالقيامة إلى السَّماء بعد آلام الصَّليب. فالله، حسب قول بولس الرسول، "قد أقامَ يسوعَ كما كُتِبَ في المزمورِ الثَّاني: أنتَ ابني وأنا اليومَ وَلَدتُكَ" (أع ١٣: ٣٣). ومريمُ العذراء تُشارِكُ ابنَها في هذه الولادة بالأوجاع إلى القيامة.

---

[٣٧] Balthasar, ***The Marian face of the Church***, p. 263-279.

وعليه، فإنّنا نخلص بعد هذه الدراسة المقتضبة للفصل الثاني عشر من الرؤيا للقول إلى أنّ **"المرأةَ المُلتَحِفة بالشّمس هي النّموذج الأصليُّ للكنيسة الأبديّة غيرِ القابلة للتّدمير"**[٣٨]. إنّها الكنيسة الَّتي يجب أن تمرّ عبر الكثير من الآلام والاضطهادات، ولكنّها ستصل إلى الحفاظ على مكانتها وهي في النّهاية ستفوزُ بالانتصار كعروسٍ للحمل. فامرأةُ الرؤيا، إذن، تُمثِّل جماعةَ العهد القديم والجديد، حيث إنّ "نسلها" هو المسيح وجماعة أتباعه أيضًا (رؤ ١٢: ٦، ١١-١٧): الجماعة المؤمنة بشخصه ورسالته الخلاصيّة.

ب. التّنّين (رؤ ١٢: ٣، ٩)

إنّ نصّ الرؤيا يستخدم فسيفساء من صور العهد القديم لرسم معالم هذا الحيوان المُخيف الَّذي يمثِّل كلَّ المملكات الشّرّيرة الَّتي تضطهد شعب الله. إنّ مملكة مصر الشّرّيرة غالبًا ما تُصوَّر برمز التّنّين، إذ إنّ الله تحدّث عن هزيمة فرعون كما التّنّين البحريّ عند خروج الحريّة للشّعب العبرانيّ وعن المراحل النّهائيّة من تاريخ مصر (مز ٧٤: ١٣-١٤؛ ٨٩: ١٠؛ أش ٣٠: ٧؛ ٥١: ٩؛ حز ٢٩: ٣؛ ٣٢: ٢-٣؛ حب ٣: ٨-١٥)؛ ففي ختام التّاريخ، سيهزم الله مرّةً أخرى التّنّين المصريّ: "في ذلك اليوم يُعاقب الرَّبّ، بسيفه القاسي العظيم الشّديد، لاوِياثانَ الحيّةَ الهاربة، ولاوِياثانَ الحيّةَ الملتوية، ويقتلُ التّنّين الَّذي في البحر" (أش ٢٧: ١).

[٣٨] J. McHugh, ***The Mother of Jesus in the NT***, p.429.

إنّ هذا التّنّين الَّذي "له سبعة رؤوسٍ و**عشرة قرون**، وعلى رؤوسه سبعةُ تيجان" (رؤ ١٢: ٣) مذكورٌ في وصف دانيال للحيوان ذي القرون العشرة (دا ٧: ٨، ٢٠، ٢٤). إنّ هذا الحيوان، في دانيال، هو الرّابع وهو أسوأُ ما في إمبراطوريات العالم الوثنيّة الَّتي تَضطهد اليهود. إنّ علاقة الحيوان الرّابع بسفر دانيال لا تختلف عن العلاقة الَّتي تربط التّنّين بوحشَين آخرَين في سفر الرؤيا، إذ إنّهما يمثّلان **السّلطتَين الرومانيّة والدينيّة**[٣٩] **المناهضتَين للجماعة المسيحيّة** "الكنيسة" (رؤ ١٣).

تُمثّل **"التّيجان السبعة"** الَّتي على رؤوس التّنانين الإدّعاءات الكاذبة لسيادة الشّيطان، السّلطة العالميّة الَّتي تُناهض ملك الملوك الحقيقيّ وربّ الأرباب، الَّذي يرتدي أيضًا "الكثير من التّيجان" (رؤ ١٩: ١٢). وعليه، فإنّ **أكاليل التّنّين تُمثّل الإدّعاءات التّجديفيّة للملكيّة الأرضيّة عبر الأعمال البغيضة المتمثّلة بتزييفٍ ضعيفٍ لملكيّة المسيح الحقيقيّة** (قارن بين ١٣: ١ و١٧: ٣، ٧-١٣ (رمز الوحش والمرأة البَغيّ) مع ١: ٥؛ ١٧: ١٤؛ و١٩: ١٢-١٦).

أمّا صورة **ذيل التّنّين** الَّذي "يَجُرُّ ثلث كواكب السّماء" وقد "ألقاها إلى الأرض" فمأخوذةٌ من **سفر دانيال**، الَّذي يَصِفُ **عدوَّ نهاية الوقت المضطهِد قوّات الله**: "... وتعاظم حتّى على جيش السّماء، وأسقط إلى الأرض بعض الجيش والكواكب وداسَها" (دا ٨: ١٠). "فالجيش وبعض الكواكب" يرمزون في دانيال إمّا إلى **الملائكة** [إنّهم يمثّلون في دانيال الشّعوب.

[٣٩] Raymond, Brown, ***Mary in the New Testament***, p. 229.

راجع دا ١٠: ٢٠-٢١؛ ١٢: ١] أو إلى **قدّيسي إسرائيل**. وبالتالي، فإنّ الكواكب في دانيال ٨ تدلّ على الملائكة الَّذين يُمثِّلون القدّيسين على الأرض، بينما يمثِّلون في الرؤيا **الكنيسة المقدّسة**: **"**أمّا سرّ الكواكب السّبعة الَّتي رأيتَها في يميني ومناور الذهب السَّبع، فإنّ الكواكب السّبعة هي **ملائكة الكنائس السَّبع**، والمناور السَّبع هي الكنائس السَّبع**"** (رؤ ١: ٢٠). يُحدِّد سفر الرؤيا هُويّة الملائكة بتحديدَين أساسيَّين **"كائنات سماويّة والكنائس الأرضيّة"** متشعِّبَين إلى تحديداتٍ أربع هي: **(١)** كائناتٌ سماويّة؛ **(٢)** كائناتٌ سماويّة وصيةٌ على الكنائس؛ **(٣)** قادةٌ بشريّون أو ممثِّلو الكنائس؛ **(٤)** تجسيدٌ لشخصيّة الكنائس وخصائصها[٤٠]. انطلاقًا من هذه التّحديدات الأربعة، نستطيع الجزم بأنّ الملائكة، بحسب رؤيا ١: ٢٠، يشيرون إلى **كائناتٍ سماويّةٍ تُمثِّل أيضًا الكنيسة الأرضيّة**. فالسبب الكامل لِعَنونة الكنائس من خلال الملائكة الَّذين تُمثِّلهم يكمن في تذكير الكنائس أنّ بُعدًا من أبعاد وجودها هو سماويٌّ، وأنّ وطنَها الحقيقيَّ ليس مع غير المؤمنين **"**أهل الأرض**"** (رؤ ٣: ١٠)، وأنّها [الكنائس] تتمتّع بمساعدةٍ وحمايةٍ سماويّةٍ في صراعها مع العالم الوثنيّ غير المؤمن.

إنّ من إحدى أهداف لقاء الكنيسة على الأرض يترتَّب على تذكير الكنائس بهُويَّتها السّماويّة عن طريق نمذجة عبادتها وليتورجيّتها [الكنيسة] على غرار نموذج تقديم العبادة والاحتفال الليتورجيّ من قِبَل الملائكة والكنيسة السّماويّة أمام الحمل الممجَّد في السّماء (رؤ ١: ٤-٨، ١٠).

---

[٤٠] I. T. Beckwith, ***Apocalypse***, p. 445-446.

إنّ هذا يعني **أنّ الكائناتِ الملائكيّةَ متّحدةٌ ومشتركةٌ مع المسيحيّين كنُظراءَ سماويّين**، وهذا بالفعل ما يظهر في مكانٍ آخر من الكتاب: "... وارتَمَيتُ عند قدميه لأسجدَ له، فقال [الملاك] لي: إيّاكَ أن تفعل. إنّي عبدٌ مثلُكَ ومثلُ إخوتِكَ الّذين عندهم شهادةُ يسوع: فللّهِ اسجُد، لأنّ شهادة يسوع هي روح النُّبوءة" (رؤ ١٩: ١٠)؛ "... فقال [الملاك]: إيّاكَ أن تفعل. أنا عبدٌ مثلُكَ ومثلُ إخوتِكَ الأنبياء الّذين يحفظون أقوال هذا الكتاب. فللّهِ اسجُد" (رؤ ٢٢: ٩).

إنّ الاستنتاج بأنّ الملائكة في رؤيا ١: ٢٠ يُشيرون إلى ملائكةٍ سماويّين يمثّلون الكنيسة يأتي مدعومًا من اعتبارَين واسعَين هما:

الإعتبار الأوّل هو أنّ **النّجوم هي صورٌ مجازيّةٌ لكلٍّ من القدّيسين والملائكة في العهد القديم والديانة اليهوديّة**. إنّ تشبيه "الكواكب كملائكة الكنائس" في الآية ٢٠ يؤكّد ما جاء في دانيال: "ويُضيءُ العُقلاءُ كضِياء الجَلَد، والّذين جعلوا كثيرًا من النّاس أبرارًا كالكواكب أبد الدّهور" (دا ١٢: ٣؛ را أيضًا تك ١٥: ٥؛ ٢٢: ١٧؛ مت ١٣: ٤٣)، حيث يُنظر إلى ميخائيل "كملاكٍ حارسٍ" لإسرائيل في الكتاب نفسه: "وفي ذلك الزّمان، يقوم ميكائيل الرّئيسُ العظيم، القائم لدى بني شعبك، ويكون وقت ضيقٍ لم يكن منذ كانت أُمَّةٌ إلى ذلك الزّمان. وفي ذلك الزّمان ينجو شعبك: كلُّ مَن يوجد مكتوبًا في الكتاب" (دا ١٢: ١).

الإعتبار الثّاني هو أنّ **الملائكة كمتّحدين يمثّلون قدّيسي العهد القديم، والعهد الجديد، والكتابات اليهوديّة**. إنّ الملائكة يظهرون في دانيال كسماويّين يقدّمون الحماية لنُظرائهم الأُمم الأرضيّة (دا ١٠: ٢٠-٢١؛ ١٢: ١؛ راجع أيضًا ٧: ٢٧؛ ٨: ١٠، ٢٤)؛ وتتكرّر الظّاهرة نفسها في كتابات العهد

الجديد (مت ١٨: ١٠؛ أع ١٢: ١٥). **فلقدّيسو إسرائيل هُويَّتهم الحقيقيّة في السَّماء أمام العرش الإلهيّ**، وهي أنّهم الشّعب المقدّس أو "شعب القدّيسين" (دا ٨: ٢٤).

نجد أيضًا أنّ سفر الرؤيا يُعرِّف التّنّين (رؤ ١٢: ٩) على أنّه الحيّة القديمة (تك ٣)، وهذا يعني أنّ صراع التّنّين مع المرأة ونسلِها يستحضرُ مباشرةً إلى أذهاننا الكلماتِ الموجَّهةَ إلى الحيّة: "وأجعلُ عداوةً بينكِ [الحيّة] وبين المرأة، وبين نسلكِ ونسلِها، فهو يسحق رأسكِ وأنتِ تُصيبينَ عَقِبَه" (تك ٣: ١٥)، وهذا ما نَجد له صدًى قويًّا في رسالتَي بولس إلى رومة (١٦: ٢٠) والثانية إلى أهل كورنثس (١١: ٣).

ت. الطّفل الذكر (رؤ ١٢: ٥)

إنّ هذه الآية الرؤيويّة لا تُقدِّم لنا أيَّة إشارةٍ لسرِّ المسيح وموته. هدفٌ واحدٌ يكمن وراء هذه الإغفالات وهو تسليط الضَّوء على **انتصار المسيح بقيامته وصعوده إلى السّماوات**. إنّ الغرض الرئيسيَّ لتصوير المسيح كطفلٍ هو للتعرُّف عليه من منظورٍ أوسع هو حياة الكنيسة التّاريخيّة[٤١]، إذ إنّ يسوع هو بدايةُ الحركة المسيحيّة ("جسد المسيح"). إنّه كاتب إيمانها (عب ١٢: ٢)، "الباكورة" (١كو ١٥: ٢٣)، "البكر" (كو ١: ١٨؛ رؤ ١: ٥؛ ٢: ٨)، والكنيسة هي جسدُه وجماعته، "بقيّة نسل المرأة" (رو ٨: ٢٩؛ غل ٣: ١٦، ٢٩؛ عب ١: ٦ مع ٢: ١٧؛ ١٢: ٢٢-٢٣).

[٤١] Feuillet, ***Johannine studies***, p. 260.

"وهو الَّذي سوف يرعى جميع الأمم بعصًا من حديد". تجد هذه الآية الرؤيويّة صدًى في وصف البنوّة المسيحانيّة الإلهيّة والملك الداوديّ في مزمور ٢: ٧-٩: "أُعلن حكم الرّبّ: قال لي: أنت ابني وأنا اليوم وَلَدتُك. سَلني فأُعطيك الأُمم ميراثًا، وأقاصي الأرض مِلكًا. بعصًا من حديدٍ تُكسِّرُهم، وكإناء خزّافٍ تُحطِّمُهم". إنّنا نعلم حقّ العلم أنّ هذا المزمور (وبخاصّةٍ الآية ٧) استُعمل مرارًا عديدةً في العهد الجديد للإشارة إلى المسيح (لو ٣: ٢٢؛ أع ١٣: ٣٣). يُشار إلى المسيح "كابنٍ ذكرٍ" لإظهاره كمحقِّقٍ لنبوءة المزمور الَّتي تُشكِّل الحدث الحاسم لنموِّ الكنيسة النّاجح.

إنّ هذه النبوءة الدّاوديّة تجد تحقيقها في شخص المسيح في نهاية الزّمن، وافتتاح الاكتمال هذا مؤكَّدٌ في كتاب الرؤيا نفسه في الفصل ٢: "والغالِبُ، ذلك الَّذي يُحافظ إلى النِّهاية على أعمالي، سأُوليه سلطانًا على الأُمم فيَرعاها بعصًا من حديدٍ كما تُحطِّم آنيةٌ من خَزَف، كما أنا أيضًا تلقَّيت السُّلطان من أبي، وسأُوليه كوكب الصُّبح" (رؤ ٢: ٢٦-٢٨).

إنّ كتابات العهد الجديد رأت أنّ **نبوءة ولادة المسيح الملكيّ ستجد اكتمالها في قيامته وصعوده** (أع ١٣: ٣٣؛ عب ١: ٢-٦؛ ٥: ٥)، وأنّها وجدت اكتمالاً أوَّليًّا في **معموديّته** (مت ٣: ١٧؛ لو ٣: ٢٢).

وعليه، فإنّنا نؤكِّد أنّ الانتصار الخلاصيّ-التّاريخيّ الحاسم للمسيح على الأرض (رؤ ١٢: ٥-١٠) وليخائيل في السّماء (رؤ ١٢: ٧-٩) يُشكِّل أساس انتصار المسيحيّين المُضطهَدين على الأرض على الحيّة عبر التّاريخ.

إنّ هذا الانتصار سيتحقَّق من خلال دم المسيح الَّذي سيشكِّل أساس الانتصار الأرضيّ للقدّيسين من جهة، وانتصار ميخائيل في السّماء. نتيجةً لهذا الانتصار، بدأ الشّيطان معركةً ضد أجساد القدّيسين فقط عندما خَسِرَ معركته ضد أرواحهم[٤٢]. وهذا ما يُعبِّر عن واحدٍ من المواضيع الرئيسيّة للكتاب الَّذي يُظهر **معاناة المسيحيّين كعلامةٍ، ليس على انتصار الشّيطان، بل على انتصار القدّيسين ضد الشّيطان بناءً على إيمانهم بانتصار الصَّليب.**

الخاتمة

لقد بيَّنا في دراسة هذا الفصل كلّ الأحداث المريميّة الَّتي تكلّم عنها الكتاب المقدّس بعهدَيه القديم والجديد، وكيف أنّ وعدَ الله للمرأة بالخلاص الَّذي سيأتي من نسلها في بدايات سفر التّكوين، قد تحقّقت فعلاً في المرأة المُلتَحِفة بالشّمس في السفر الأخير من الكتاب المقدّس، انطلاقًا من لاهوت العهد والحياة الفائقة الطّبيعة لمريم أُمّ يسوع، الإنسانة المتألّهة الَّتي أصبحت، ببساطة إيمانها وعُمق طاعتها التّامّة لإرادة الآب، والدةَ الإله.

وعليه، فإنّ هذا الفصل خُصِّص لِسَبْرِ أعماقِ شخصيَّةٍ أُنثَوِيَّةٍ كتابيَّةٍ، تَنَبَّأَ عنها الأنبياءُ والمزامير في العهد القديم، وأَدرَكَتْها كتاباتُ العهد الجديد، فانتَقَلَتْ هذه المرأةُ من رموزٍ وصُوَرٍ وتشابيهَ إلى حقيقةٍ تاريخيَّةٍ ملموسةٍ، إنّها مريم، الَّتي وَسِعَتْ في حشاها الَّذي لا يَسَعُهُ مكانٌ، وهي الأُمُّ الَّتي لَبِثَتْ بعد الولادة عذراء.

---

[٤٢] Farrer, ***Rebirth of images***, p. 142.

إنّ هذه الدراسة قد حقّقت هدفَها الجوهريّ في إعطاء القارئ تفسيرًا لاهوتيًّا وروحيًّا وافيًا وعميقًا لسرِّ مريم والدة الله، انطلاقًا من سرِّ المسيح والكنيسة، من خلال دراسة سرِّ الكتاب المقدّس الجوهريّ المرتكز على **سرِّ العهد بين الله وشعبه**، إذ يُنظَرُ إلى مريم في ضوء هذا العهد كتجسيدٍ لِ "شعبِ الله"، "ابنةِ صهيون"، "رمزِ الكَنيس" (Synagogue)، "عروسِ الله" و"أيقونةِ الكنيسة" المدعوَّةِ إلى أن تَحمِلَ في ذاتها المسيحَ كلمةَ الله فتَحيا به وتَلتزم استعداداتِه، فيُتاحُ لها أن تُعطيه للعالم، ليتقدَّسَ به ويتألَّه. وبالتّالي، فإنّ الهيكلَ الأعمقَ لسرِّ مريم هو بالذات هيكلُ العهد، يُنظَرُ إليه من الجانب الإنسانيِّ الَّذي تُجسِّدُهُ مريم.

بين الشَّخصيَّتَينِ الأُنثَويَّتَينِ الكتابيَّتَينِ "ابنةِ صهيون" و"المرأةِ المُلتَحِفَةِ بالشَّمس"، تَتَمَركَزُ شخصيَّةُ مريمَ المُرتَبطَةُ بمعناها وأهميَّتِها بالحقيقة الكريستولوجيَّة (ما يختصُّ بلاهوت المسيح وشَخصِه) والإكليزيولوجيّة (الكنسيَّة).

يقولُ القدّيسُ جرمانوس بطريرك القسطنطينيّة: **"فيها، عاشَ الَّذي هو في الحقيقةِ ملكُ الملوك وربُّ الأرباب... إنّها حقًّا المدينةُ المتألِّقة، إنّها صهيونُ الرّوحيّة"** (مز ٤٧).

ففي مريم، أُنجِزَتْ كلُّ وُعود العهد القديم لابنة صهيون، وفي شخصها الحقيقيّ، هناك سَبقُ تَوَقُّعٍ سوف يَتَحَقَّقُ لشعب الله الجديد، الكنيسة. فكلُّ تاريخ الوحي الخاصِّ بموضوع "المرأةِ صهيون"، تَحَقَّقَ في

شخص مريم، وهو ما زالَ مستمرًّا في الكنيسة إلى يومِنا الحاضر. فمريم في حبِّها وطاعتها، في إيمانها وتواضعها، ارتضت أن تكون ما كان ينبغي على الخليقة، منذ الأزل، أن تكون إيّاه: **هيكل الرّوح القدس، إنسانيّة الله**. لقد ارتضت مريم أن تُعطي جسدها ودمها – أي حياتها كلّها – ليكونا جسد ابن الله ودمه، وأن تكون أُمًّا للعالم بالمعنى الكامل العميق لهذه الكلمة، مُعطية حياتها للآخر، أي الله، ومكمّلة حياتها فيه، إذ إنّ مريم هي غاية وتمام تاريخ الخلاص، تاريخ الحبّ والطّاعة، تاريخ الاستجابة والرجاء، إذ إنّها عطيّةُ العالم إلى الله، إلى جانب أنّها "اختارتِ النَّصيبَ الصَّالحَ الَّذي لن يُنزَع منها" (لو ١٠: ٤٢): **إنّها، في الحقيقة، التّلميذةُ الأولى للمعلّم الإلهيّ والنّموذجُ الحيّ والمثاليّ في اتّباع يسوع والتتلمذ له**.

نختم هذا الفصل الكتابيّ بكلماتٍ بليغةِ التّعبير، كتبها الأب جان كوربون، تَصِفُ التّناغم الوجوديّ والروحيّ بين "يوم البشارة" و"ساعة يسوع"، يقول: "هناك تناغمٌ خفيٌّ بين "يوم البشارة" و"ساعة يسوع". وهو ليس ذاك الَّذي يتوارد أوّلاً إلى الذهن، أي التّناغم القائم بين اللحظة الأولى من الوجود البشريّ والآونة الأخيرة منه، إذ إنّ **ساعة الصَّليب، اخترقت نهائيّة الزّمن**. ولا هو التّناغم الَّذي قد نراه بين **أحشاء الأمّ الحُبلى بولدها وأحشاء الأرض الَّتي سيُدفَن فيها** هذا الولد ذات يوم، بالرغم من أنّ كلاًّ منهما يُخبِّئُ سرّ الينبوع عينه. إنّ التّناغم الخفيَّ بين البشارة والصَّليب يكمن في **"تجرّد"** الابن الحبيب: ففي البشارة يبتدئ، والحبَّة وحيدة ، وفي الصَّليب يكتمل، وإذا بالسّنبلة ملآنة مُثقَلة بالحَب (يو ١٢: ٢٤). في البشارة يتقبَّل "الكلمة" بشريَّته من أُمِّه، وعلى الصَّليب يتقبَّل من كلِّ البشر

ثِقل خطاياهم وموتهم. ومريم نفسها، الَّتي هي أوّلاً أُمُّ يسوع، تُصبح حينئذٍ: المرأة (يو ٢: ٤؛ ١٩: ٢٦)، حوّاء الجديدة، أُمّ المسيح "الكلّي". والتّناغم العميق بين هاتَين الولادتَين، بين هذين "التجرُّدَين"، هو بالنّهاية في طاقة الرّوح القدس: فهناك إذًا عُذريّة في "مجيء" السّرّ، وعُذريّة أروع في "حدث" السّرّ"[٤٣].

إنّ التجرّد في التجسّد، كان فجرَ النّعمة. أمّا في الصَّليب، فهو التّألُّق والبهاء في عتمة الظّلمات: إنّه افتتاحُ العهد الجديد بين الله والإنسان من خلال الوسيط يسوع المسيح.

[٤٣] الأب جان كوربون، **ليتورجية الينبوع**، ص٤٥-٤٦.

الفصل الثاني

مريمُ في سِرِّ الصَّليب: أمومةٌ روحيَّة

(يوحنّا ١٩: ٢٥-٢٧)

المقدّمة

لقد دُعِيَ إنجيلُ يوحنّا منذ القرونِ الأولى "بالإنجيل الروحانيّ"، وقد دُعِيَ كاتبُه "بالرّسول"، "بتلميذ السيِّد"، "بالمعلِّم"، ومنذ القرن الرّابع الميلاديّ، دُعِيَ **"باللاهوتيّ"**، استنادًا إلى عُمق روحانيَّة تعاليمه، و**"بالشَّاهد" على سرِّ الصَّليب** وما يتضمّنُه من أحداثٍ خلاصيَّة (يو ١٩: ٣٥؛ ٢١: ٢٤)، ناهيك عن **اختباره الإيمانيِّ الشخصيِّ** الَّذي صرَّحَ عنه في بداية رسالتِه الأولى، إذ قال: "ذاكَ الَّذي كان منذ البدء، ذاكَ الَّذي رَأيناه بعَينَينا، ذاكَ الَّذي تأمَّلناه، ولَمَسَتْهُ يَدانا، من كلمةِ الحياة، لأنّ الحياة ظهرت فرَأَينا ونَشهد، ونُبشِّرُكم بتلك الحياة الأبديّة الَّتي كانت لدى الآب فتجلَّت لنا" (١يو ١: ١-٢)، وهو أيضًا **"المُتَكِّئُ على صدرِ السيِّد"** (يو ١٣: ٢٣)، مُتَلَقِّيًا سِرَّ يسوعَ النَّاصريّ، إذ إنّه التّلميذُ **الَّذي أَحبَّهُ يسوع** (يو ١٣: ٢٣؛ ١٩: ٢٦؛ ٢١: ٧، ٢٠).

إنّ هذا اللقبَ الأخير لا يُشيرُ إلى عاطفة يسوع الخاصَّة إلى هذا التّلميذ، بقدر ما يدلُّ على أنّ هذا الأخير هو شخصيَّةٌ تجسيديَّةٌ وتشخيصيَّةٌ للتّلميذ المثاليّ، للمُرافق الحقيقيِّ للمسيح والمُخلِصِ له وللمؤمن الَّذي تلقَّى الرُّوح: **إنّه رمزُ الأمانة والإخلاص للرَّبّ**، وهو في الوقت نفسه، **المؤتَمَنُ على أسرار يسوع** (يو ١٣: ٢٣-٢٦). على هذا الأساس، لم يُصرِّحْ كاتبُ الإنجيل الرّابع أبدًا باسمِه الشخصيّ، والَّذي لا يخلو من هدفٍ معيّن يريدُ الإنجيليّ إبرازَه، إذ إنّه يُشكِّلُ **نموذجًا حيًّا للتّلميذ، كلّ تلميذ، في اتِّحادِه وتواصلِه مع المسيح**. بكلماتٍ أخرى، التّلميذُ الحبيب هو **إنسانُ الإيمان** الَّذي لا حاجةَ له أن يُثبتَه (يو ٢٠: ٨).

إنّ أهمَّ ما يُميِّزُ الإنجيلَ الرّابع هو أنّه يُجسِّدُ **مسيرةَ إيمان الجماعة اليوحنّاويّة الَّتي يرعاها الرّسول الشّاهد ويقودُها نحو اللقاء الحيّ بمعلِّمه الإلهيّ**. إنّ هذه المسيرةَ الإيمانيّة تَتَضَمَّنُ **الاختبارَ التّاريخيَّ والروحيَّ للتّلميذِ الحبيب والجماعةِ المسيحيّةِ من بعدِه**[٤٤].

إنّ أحداثَ الآلام كما رواها الإنجيليّ تَدخُلُ في إطار السِّياق التّاريخيّ والروحيّ للإنجيل اليوحنّاويّ. فموتُ يسوع في رواية الإنجيل الرّابع تأتي كنتيجةٍ لرغبةِ اليهود في قتله (يو ٥: ١٨؛ ٧: ١، ١٩-٢٠، ٢٥؛ ٨: ٣٧، ٤٠؛ ١١: ٥٠، ٥٣؛ ١٨: ٣١؛ ١٩: ٧)، إذ ما مِن إنجيلٍ آخر يتكلّمُ بهذه الكثرة عن نيّة السّلطات اليهوديّة في قتل يسوع. من ناحيةٍ أخرى، نظرَ يسوعُ إلى دُنُوِّ ساعةِ

[٤٤] Giuseppe Barbaglio, ***La Spiritualità del NT***, p. 221.

موته على أنّها عطيَّةٌ مجّانيَّةٌ من حياتِه الجسديّة لصالح الإنسان، وفي الوقت نفسه، فعلٌ يمتازُ بالتّفاني الذاتيّ في سبيل أَخِصّائه (يو ١٥: ١٣)، بكلماتٍ أخرى، إنّها قربانةُ وذبيحةُ الحبّ المجّانيّ: "وإنّما عَرَفنا المحبّة بأنّ ذاكَ قد بذلَ نفسَه في سبيلِنا" (١يو ٣: ١٦). من هنا نُدركُ أنّ موتَ يسوع هو فعلُ عبادةٍ، لأنّ يسوعَ وضعَ حياتَه في طاعةٍ تامّةٍ لإرادةِ الآب: "ما مِن أحدٍ يَنتزِعُها منّي، بل إنّي أبذِلُها برِضايَ. فلي أن أبذِلَها، ولي أن أنالَها ثانيةً، وهذا الأمرُ تَلَقَّيتُه من أبي" (يو ١٠: ١٨). **فالإنجيلُ الرّابع يقدِّمُ حياةَ يسوع بأكملِها كفعل طاعةٍ لأبيه:** "وما ذلك إلاّ ليَعرِفَ العالمُ أنّي أُحِبُّ الآبَ وأنّي أعملُ كما أَوصاني الآب. قوموا نذهبْ من ههنا" (يو ١٤: ٣١).

لن نستفيضَ في البحث المعمَّق حول الآلام في الإنجيل الرّابع، لأنّ هذه الدراسةَ لا تَهدِفُ إلى قراءةٍ تحليليَّةٍ لموضوع الآلام في الإنجيل الرّابع، إذ إنّه موضوعٌ يَستَحِقُّ الوقوفَ عندَه مُطَوَّلاً نظرًا لأهميَّتِه التّاريخيّةِ والخلاصيَّة، وغِناه اللاهوتيّ والكتابيّ. إلاّ إنّنا، في هذا البحث، نُؤثِرُ إبرازَ الطّابع المريميّ بالتّرابُط مع الحدث الخلاصيِّ الأسمى ألا وهو صلبُ يسوع والّذي، من خلاله، سنرى بُعدًا مريميًّا جديدًا يتعلَّقُ بأُمومة مريم المسيحانيَّةِ والإكليزيولوجيَّة (الكنسيَّة)، إذ إنّ مشهدَ الصَّلب هذا، يَنقُلُ مريمَ من أُمومتها الشخصيَّة للمسيح الكلمة المتجسِّد إلى أُمومةٍ شموليَّةٍ روحيَّةٍ لكلِّ المؤمنين بيسوع المُمَثَّلينَ بالتِّلميذ الحبيب، دون أن تَفقِدَ مريمُ طابَعَ أُمومتِها المسيحانيّة الَّتي تُشكِّلُ البُعدَ الرئيسَ لأُمومتها الكنسيَّة.

القسم الأوّل

مسيرةُ الآلام، انكِشافُ حبِّ الله الأسمى للبشريّة

(يو ١٩: ١٦ب-٤٢)

يَظهر حبُّ المسيح للبشريّة جَلِيًّا في إعلانه: "أنا الرّاعي الصّالح، والرّاعي الصّالح يبذِلُ نفسَه في سبيل الخراف" (يو ١٠: ١١، ١٥). إنّ هذه الآيةَ اليوحنّاويّةَ تُبيِّن تقدمةَ حبِّ المسيح الذاتيِّ للإنسان. وهذا ما يُدعى **"بالحبِّ القربانيِّ"** الَّذي عبَّرَ عنه يسوعُ نفسُه حين قال: "أنا الخبزُ الحيُّ الَّذي نزلَ من السَّماء: مَن يأكلْ من هذا الخبز يحيَ للأبد. والخبزُ الَّذي سأُعطيه أنا هو جسدي أَبذِلُهُ ليَحيا العالم..." (يو ٦: ٥١...). ففي سِياق الإنجيل الرّابع بأكمله، **يَظهرُ موتُ يسوع على أنّه كشفٌ عن حبِّ الله للبشريَّة من خلال التّقدمةِ الذاتيَّةِ للرّاعي الصّالح**. إنّ هذا التَّفسيرَ مؤكَّدٌ من خلال حقيقةِ أنّ الإنجيليَّ رأى الأحداثَ النِّهائيَّةَ من حياة يسوع على الأرض كدليلٍ قاطعٍ على محبَّته لخاصَّته (يو ١٣: ١)، وقيَّمَ رسالتَه بأكملها على أنّها كشفٌ لحبِّ الله للعالم (يو ٣: ١٦).

إنّ الكلماتِ الَّتي أعلنَها يسوعُ مِن على خشبة الصّليب تعني أنّ أُمومةَ والدتِه وجدَتْ استمراريّةً جديدةً في الكنيسة الَّتي يرمزُ إليها ويُمثِّلُها التّلميذ الحبيب. إنّ أُمومةَ مريم الروحيّةَ لكلّ البشريّة تأتي نتيجةً لتعاونها مع عمل المخلِّص بطاعتِها، بإيمانها، برجائها وبحماسة محبَّتها. فأُمومةُ مريم

الروحيّةُ إذن تعودُ إلى ثمرةِ تلك المحبّة الَّتي بلغَتْ ذُروتَها عند أقدام الصّليب من خلال **مشاركتِها في محبّة الابن واتِّحادِها الكامل مع المسيح**. فحضورُ مريم في الكنيسة (راجع أع ١: ١٤) تحوَّل، بالنّسبة إلى كلِّ المعمَّدين، إلى دعوةٍ مستمرةٍ تترجمُ في الاختبار الشّخصيّ لأقوال بولس: "فما أنا أَحيا بعد ذلك، بلِ المسيحُ يَحيا فيَّ. وإذا كنتُ أَحيا الآن حياةً بشريَّة، فإنّي أَحياها في الإيمان بابن الله الَّذي أحبَّني وجادَ بنفسِه من أجلي" (غل ٢: ٢٠)؛ وأيضًا: "فالحياةُ عندي هي المسيح" (في ١: ٢١). إنّ الروايةَ اليوحنّاويّةَ عن الصّلب تتألَّفُ من سلسلةٍ من الأحداث القصيرة، الَّتي تَحمِلُ في طيّاتها رموزًا لاهوتيّةً هامّة، بحيثُ يَقَعُ الحدثُ الَّذي يُصوِّرُ مريمَ عند أقدام الصَّليب في وَسَطِ هذه الأحداث، نظرًا لدلالاته اللاهوتيَّة والإكليزيولوجيّة الَّتي سنبحثُها في سياق هذه الدراسة.

١) هيكليَّةُ رواية الآلام بحسب الإنجيل الرّابع (يو ١٨-١٩)

إنّ رواية الآلام، كما سَرَدَها الإنجيلُ الرّابع، يأتي ذِكرُها في الفصلَين الثّامن عشر والتّاسع عشر من الإنجيل، وتُقسَمُ إلى ثلاثة أجزاءٍ هي:

- الجزء الأوّل: القبض على يسوع واستجوابُه (يو ١٨: ١-٢٧)؛
- الجزء الثّاني: محاكمةُ يسوع أمام بيلاطس (يو ١٨: ٢٨-١٩: ١٦أ)؛
- الجزء الثّالث: صلبُ يسوع، موتُه ودَفنُه (يو ١٩: ١٦ب-٤٢).

٢) بُنيَةُ رواية الآلام – الجزء الثّالث (يو ١٩: ١٦ب-٤٢)

إنّ شخصيَّة يسوع هي دائمًا في مركزيّة رواية الآلام اليوحنّاويّة من خلال التّشديد على **الطّابع الطّوعيّ والاختياريّ لآلام يسوع ومَلَكِيَّته**، إذ إنّه

أُعلِنَ أمام بيلاطس كملك، وتُوِّج كملك، وأُلبس كملك، وذهب إلى صلبه وهو لا يزال مُرتدِيًا الثياب الملكيّة (يو ١٨: ٢٨-١٩: ١٦أ).

أ. ١٩: ١٦ب-٢٢: يسوع المصلوب والمُعلَن ملكًا على اليهود "عنوان الصّليب".

ب. ١٩: ٢٣-٢٥أ: تحقيق الكتب المقدّسة من خلال ثوب يسوع غير الممزَّق.

ت. ١٩: ٢٥ب-٢٧: يسوع يُعطي أُمَّه للتّلميذ الحبيب وجماعة مسيحانيّة جديدة تأسَّست عند الصَّليب.

أ`. ١٩: ٢٨-٣٠: موت يسوع يُنجز مخطَّط الله الآب الخلاصيّ.

ب`. ١٩: ٣١-٤٢: تدفَّق الدم والماء من جنب المصلوب حمل الفصح المطعون، بالإضافة إلى دفن يسوع كملكٍ في البستان.[٤٥]

٣) رسالةُ الإلام، إكتِمالُ عمل يسوعَ الخلاصيّ على الصَّليب

إنّ مَشهدَ الصَّلبِ نفسَه، كما هو موصوفٌ في المقدّمة، يُجسِّدُ مَشهدَ تَتويج يسوع، كما يَجعَلُهُ واضِحًا، الحَدَثُ الأوّل المُعلِنُ بلغاتٍ ثلاث وبشموليَّةٍ كونيَّةٍ، عنوانَ مَلَكِيَّةِ يسوع. فضلاً عن ذلك، نُلاحِظُ أنّ لدَفنِ يسوع، كما جاءَ في الخاتمة، مَيِّزاتٍ توحي بالمَلَكِيَّة. **فمَشهدُ الصَّلب اليوحنّاويّ هو اكتمالٌ لوعد يسوع**، كما جاءَ في يوحنّا ١٣: ١: "قبل عيد الفصح، كان يسوعُ يَعلَمُ بأنْ قد أَتَتْ ساعةُ انتقالِهِ عن هذا العالمِ إلى أبيه، وكان قد أَحَبَّ خاصَّتَهُ الَّذين في العالم، فبَلَغَ به الحُبُّ لهم إلى أقصى حدوده". إنّها "السّاعةُ" الَّتي سيُظهِرُ يسوعُ من خلالِها حُبَّهُ اللامتناهي لخاصَّته. فموتُ يسوع يُشكِّلُ النموذجَ

[٤٥] Raymond B., ***An introduction to the Gospel of John***, p. 310.

المِثاليَّ للرَّاعي الَّذي وَضَعَ حياتَه في سبيل خرافه الَّتي تَسمَعُ صوتَه وتَعرِفُه (يو ١٠: ١١، ١٤-١٥).

فالحَدَثُ الأوَّلُ (١٩: ١٩-٢٢) يُعلِنُ لكلِّ العالمِ المدنيِّ مَلَكِيَّةَ يسوع، الَّتي رَفَضَها "اليهودُ"، وأَلَّحَتْ عليها الحكومةُ الأُمَمِيَّةُ (١٩: ٢١-٢٢)، بكتابة عنوان الصَّليب: "يسوعُ النّاصريُّ ملكُ اليهود" باللغات العبريَّة واللاتينيّة واليونانيّة (١٩: ١٩-٢٠).

يَهتمُّ **الحدثُ الثاني** (١٩: ٢٣-٢٤) بربط الطّابع الرّمزيِّ لقميص يسوع غيرِ المَخيط والمُقتَرَعِ عليه، **بثوبه الكهنوتيّ**. فيسوعُ ليس ملكًا فقط، بل إنّه أيضًا كاهنٌ قدَّمَ ذاتَه كفَّارةً وذبيحةً قُربانيَّةً عن الآخرين، كما أعلنَ هو بكلماته الخاصّة في صلاتِه الكهنوتيّة، قائلاً: "**وأُكَرِّسُ** نفسي من أجلِهم، ليكونوا هم أيضًا **مكرَّسينَ** بالحَقّ" (يو ١٧: ١٩). إذا ما أَلقَينا نظرةً خاطفةً على النّصِّ اليوحنّاوي، نَجِدُ أنّ تفاصيلَ القميص الَّذي كان يسوع يَلبَسُهُ مُشابهةٌ للقميص الَّذي كان يلبَسُهُ عظيمُ الكهنة عند اليهود، إذ كان "مَنسوجًا **كلّه** من أعلاهُ إلى أسفله"، وهذا دليلٌ كافٍ على القول بأنّ قميصَ يسوع هذا يرمزُ إلى **وَحدة الشَّعب المسيحانيِّ في المسيح**، الَّتي شَرَحَها يوحنّا نفسُه في إنجيله، حين كَتَبَ: "... ولَمْ يَقُلْ (قيافا) هذا الكلامَ من عِندِه، بل قالَه لأنّه عظيمُ الكهنةِ في تلك السَّنَة، فتَنَبَّأَ أنّ يسوعَ سيَموتُ عن الأُمَّة، ولا عن الأُمَّةِ فقط، **بل لِيَجمَعَ أيضًا شَملَ أبناءِ المُشَتَّتين**" (يو ١١: ٥١-٥٢). فمشهدُ الصَّليب إذن، من المَنظورِ المسيحانيّ، يُحقِّقُ ولادةَ جماعة الشَّعب الجديد الواحدة "**وحدة**

الكنيسة"[٤٦]، الَّتي تَطَرَّقَ إلى ذكرِها يسوعُ في صلاتِه الكهنوتيّة، حين قال: "ليكونوا بأجمعِهِم واحدًا" (يو ١٧: ٢١)، **بحيث تكونُ مريمُ "المِثالَ"، الرَّمزَ الحيَّ لشعب الله الإسكاتولوجيّ**. يؤكِّد **كبريانوس** (٢٠٠/٢١٠-٢٥٨م) حقيقة الوَحدة هذه بقوله: "إنّ سرّ وَحدة الكنيسة يُمثِّله في الإنجيل رداءُ ربِّنا يسوع المسيح... فهو واحد، في قطعةٍ واحدةٍ ونسيجٍ واحد. الوَحدة تأتي من فوق، أعني من السّماء ومن الآب. من يُجزِّئُ كنيسة المسيح ويقسِّمها لا يمكنه أن يملك ثوب المسيح"[٤٧].

ويُطالِعُنا **الحدثُ الثالث** (١٩: ٢٥-٢٧) المُرتَكِزُ على استمراريَّةِ عملِ يسوع المُتعلِّقِ بالجماعةِ الَّتي تَرَكَها وراءَه. إنّ قلقَ يسوع على أتباعه أخذَ حَيِّزًا واسعَ النِّطاق في صلاته الكهنوتيّة قبل انطلاقه الاختياريِّ إلى الآلام المخلِّصة، إذ صلّى كثيرًا لأجل **ثبات الجماعة واستمراريَّتِها**: "إنّي أدعو لهم ولا أَدعو للعالم، بل لِمَن وَهَبتَهم لي لأنّهم لك... لستُ بعدَ اليوم في العالم، أمّا هم فلا يَزالونَ في العالم... يا أبتِ القُدُّوس، إحفَظهم باسمِكَ... ليكونوا واحِدًا كما نحن واحِد. لَمَّا كنتُ معهم، حَفِظتُهم باسمِكَ... وسَهِرتُ فلم يَهلِكْ أحدٌ منهم إلاّ ابنُ الهلاك... لا أَسأَلُكَ أن تُخرِجَهم من العالم، بل أن تَحفَظَهُم من الشِّرِّير..." (يو ١٧: ٩-١٩). من هنا نُدرِكُ أنّ دورَ مريم كان خافِتًا في قانا، لأنّ ساعةَ يسوع لم تكن قد جاءت بعد؛ أمّا الآن، وقد جاءتْ ساعتُه واكتملَت، فإنّنا نرى أنّ مريم أُعطِيَتْ دورًا مركزيًّا في قلب الكنيسة الممثّلة بالتّلميذ الحبيب، دورَ

---

[٤٦] Xavier, L., D., ***Lettura dell'evangelo secondo Giovanni***, p. 1099.

[٤٧] مجموعة باحثين، **تاريخ الفكر المسيحيّ**، ص٣٦٧.

"أُمِّ الكنيسة". وعليه، فإنّ **مريمَ أُمَّ يسوع أصبحتْ رمزًا لإسرائيلَ الجديد، لحوّاء الجديدة**.

ثم يأتي **الحدثُ الرّابع** (١٩: ٢٨-٣٠) ليُبيِّنَ موتَ يسوع عند لحظةِ اكتِمالِ المَهمَّةِ الخلاصيَّةِ الَّتي أَوكَلَهُ إيَّاها الآبُ ليُنجِزَها (راجع أيضًا صلاة يسوع الكهنوتيّة في يوحنّا ١٧: ٤)[٤٨]، وقد تَذَوَّقَ حلاوتَها الكاتبُ المُلهَم للإنجيل الرّابع، حين قال في معرض كلامه عن ارتفاع ابن الإنسان:

فإنّ اللهَ **أَحَبَّ** العالَمَ حتّى إنّه **جادَ** بابنِه الوحيد، لكي **لا يَهلِكَ** مَن يؤمِنُ به،

بل تكونَ له الحياةُ الأبديّة (يو ٣: ١٦).

بل ليُخلِّصَ به العالم (يو ٣: ١٧).

فإنّ اللهَ **لم يُرسِلِ** ابنَهُ إلى العالَم ليَدينَ العالم،

نُلاحِظُ من خلال هذه الهيكليَّة، أنّ الجزءَ المركزيَّ في هاتَين الآيتَين يتمحورُ حول الخلاصِ الاختياريِّ والإراديّ، الَّذي حقَّقَهُ ابنُ الله الوحيد، حُبًّا لامتناهيًا بالإنسان المخلوق على صورة الله ومثاله. فكما حَفِظَت باقة الزّوفى المغموسة في الدّم الشّعب الإسرائيليّ من الموت الجسديّ عند الخروج (خر ١٢: ١٣، ٢٢)، **هكذا يُعطي دم يسوع الحياة الأبديّة للمؤمنين به، إذ إنّ يسوع مات كحملِ الله الفصحيّ. فدمُ يسوع الَّذي يحتوي على حياةٍ أبديّةٍ هو ذبيحةٌ قربانيّةٌ من الآب إلى البشريّة**[٤٩].

---

[٤٨] C. H., Dodd, ***The interpretation of the Fourth Gospel***, p. 428.

[٤٩] Micheal Taylor, ***John: The different Gospel***, p. 235.

إنّ هذا المشهدَ يأخذُ قيمةَ وأهميَّةَ الإنجاز والإتمام، انطلاقًا من نُقطتَين مركزيَّتَين: الأولى، في عبارة "بعد ذلك" (**Μετὰ τοῦτο**)، الَّتي تَتَضمَّنُ المعرفةَ الفائقةَ الطّبيعة "الإلهيَّة" ليسوع الَّذي "كان يعلَمُ أنّ كلَّ شيءٍ قد تمّ"؛ والثّانية، في الفعل "تمّ" (**τετέλεσται**)، الَّذي يُشيرُ إلى اكتمال الكتاب، الَّذي لم يُنجَزْ في كلمات يسوع من على الصَّليب "أنا عطشان"، بل في الحَدَث السّابق (مشهد الصَّلب)؛ هناك أُنجزَتْ رسالةُ المسيح، **τετέλεσται**. "بعد ذلك" أي بعد الحدث الَّذي رواهُ يوحنّا (مريم والتّلميذ عند أقدام الصّليب)، عَلِمَ يسوعُ أنّ رسالتَهُ المسيحانيّة المكتوبةَ بكليَّتِها في الكُتُب المقدّسة، قد أُتِمَّتِ **الآن**. يَنتهي هذا الحدثُ بوصف موت يسوع كتسليمٍ للرّوح، بحيث يبدو أنّه طريقةٌ رمزيَّةٌ للإشارة إلى روح يسوع الَّتي ستُشرِفُ من الآن على عملِه: "غيرَ أنّي أقولُ لكُمُ الحقّ: إنّه خيرٌ لكم أن أذهب. فإنْ لم أَذهَب، لا يأتِكُمُ المؤيِّد "**Παράκλητος**". أمّا إذا ذهبتُ فأُرسِلُهُ إليكم" (يو ١٦: ٧).

أخيرًا، يَستَمِرُّ **الحَدَثُ الخامس** (١٩: ٣١-٣٧) في وصف رمزيَّة إعطاء الرّوح. بتَدَفُّقِ الماءِ المُلوَّن بدم يسوعَ المائت، تَحَقَّقَ وعدُ يسوع القائل: "مَن آمنَ بي فَليَشرَب، كما وَرَدَ في الكتاب: ستَجري من جَوفِهِ أنهارٌ من الماء الحَيّ. وأرادَ بقوله الرُّوحَ الَّذي سيَنالُهُ المؤمنونَ به، فلم يكنْ هناك بعدُ من روح، **لأنّ يسوعَ لم يَكُنْ قد مُجِّد**" (يو ٧: ٣٧-٣٩؛ راجع أش ٥٥: ١؛ إر ٢: ١٣؛ حز ٤٧: ١؛ زك ١٤: ٨). إنّ تدفُّق الماء هذا يُشير إلى أنّ **يسوع المصلوب هو ينبوع الماء الحيّ** الَّذي أعني به **"الرّوح القدس"**. فالإنجيل يتكلّم عن أنّ يسوع قد نَفَخَ الرّوح في

تلاميذه في ليلة الفصح بعد أن عَرَضَ لهم جروحَه في يدَيه وجنبه، ليُظهر أنّ معطي الرّوح كان بالتّحديد يسوع الَّذي كان مصلوبًا (يو ٢٠: ٢٠-٢٢)[٥٠]. **فاللهُ المتدفّق من جنب المصلوب، جَلَبَ علامةَ عطيّة الرّوح في مرحلة ما بعد القيامة إلى قلب حدث الصّلب، كاشفًا بذلك قوّة الله وحضوره في موت ابنه.**

أمّا بخصوص تَدَفُّقِ الدَمِ والماء، فهما يَرمُزانِ إلى مَنبع سِرَّي **الإفخارستيّا والمعموديّة**، اللَّذين يتحقَّقانِ من خلال إبلاغ حياة يسوعَ إلى المسيحيّ. من الجدير بالأهميَّة أن نذكُرَ أنّه خلال هذا الحدث يسوع قد ماتَ بالفعل. **فدراما الصَّلب**، في الفكر اليوحنّاويّ، **لا تَنتهي بالموت**، بل في **تَدَفُّق الحياة الَّتي تأتي بعد الموت**، إذ إنّ **موتَ يسوع هو بدايةُ حياةِ المسيحيّ**.

٤) لاهوتُ الآلام بين اليوحنّاويَّة والإزائيَّة

إنّ العُنصُرَ الأساسَ الَّذي يُضفي بنفسِه على اهتمام اللاهوت اليوحنّاويّ هو أنّ **يسوعَ قد حَمَلَ صليبَهُ الخاصّ**، وهذه إحدى النِّقاط الَّتي تَختلِفُ فيها مقدِّمةُ يوحنّا عن رِواية الإزائيِّين.

ففي **الحدث الأوّل**، يتَّفِقُ يوحنّا مع الإزائيِّين حول الحقيقة والمضمون الثَرِيِّ لعنوان الصَّليب، إلاّ إنّ يوحنّا يُظهِرُ اهتمامًا بالطّابع الشموليّ للإعلان ودور بيلاطس في المحافظة عليه، الأمر الَّذي لم يُعِرْهُ الإزائيّونَ أهميّةً.

---

[٥٠] Craig, R.K., ***Symbolism in the Fourth Gospel***, p. 201.

في **الحدث الثاني**، يتّفِقُ يوحنّا أيضًا مع الإزائيِّينَ حول تفاصيل اقتِسام الجُند لثياب يسوع بالقرعة، إلاّ إنّ الرمزيَّةَ اليوحنّاويَّةَ لهذا الحدث تبدو مُرتَكِزةً على الرِداءِ الكهنوتيّ ليسوع.

في **الحدث الثالث**، تتطابقُ رؤيةُ يوحنّا مع الإزائيِّين حول وجود النّسوة الجليليّاتِ عند الجمجمة، مع عِنايةٍ أكثر ليوحنّا بإبراز كلمات يسوع لأُمِّهِ وللتّلميذِ الحبيب، الَّتي لم يأتِ على ذِكرِها الإزائيّون في رِوايتِهم.

في **الحدث الرّابع**، يتوافَقُ يوحنّا مع الإزائيِّين في الحَلِّ المقدَّم ليسوعَ المصلوب، مع إصرارٍ يوحنّاويٍّ لتَبيانِ عَطَشِ يسوع كتتميمٍ للنبوءاتِ الواردة في كتب العهد القديم، والَّتي جَلَبَتْ عملَه إلى الاكتمال، ومن الملاحَظ أنّ هذا الموضوع مُغَيَّبٌ عن واقعة الإزائيّين.

أمّا **الحدثُ الخامس**، فلا نَجِدُ له أَثَرًا في تقليد الإزائيِّين. يَنسَجِمُ يوحنّا مع الإزائيِّين في **الخاتمة**، حول العَجَلةِ في الدّفن، حول دور يوسُف الرّاميّ وأخيرًا حول استعمال القبر الجديد، ولكنّ يوحنّا يُضيفُ صبغتَهُ الخاصّةَ الَّتي تُركِّزُ على استخدام الكميَّة الكبيرة من المُرِّ والصَّبر المقدَّم من نيقوديموس، وهذا ما سَكَتَ عنه الإزائيّون.

يقولُ **اكليمنضوس الاسكندريّ**: **"إنّ الأناجيلَ الثّلاثَ الأولى** (متّى، مرقس ولوقا) **تَصِفُ يسوعَ بحسبِ الجسد، بينما يَصِفُ الإنجيلُ الرّابع** (يوحنّا) **يسوعَ بحسب الرّوح"**، لذلك، دُعِيَ هذا الإنجيلُ "بالإنجيل الروحانيّ"، ولَقَّبَتِ الكنيسةُ كاتبَهُ المُلهَم "بالنَّسر المحلِّق في سماء الإلهيّات".

القسم الثاني

الجريمة، تلميذات المصلوب المخلِصات (يو ١٩: ٢٥)

١) الصَّليبُ، رمزُ مَلَكِيَّةِ المسيح

إنّ صلبَ المسيح يأتي في نطاق تصوير العهد القديم لرفع موسى الحيَّةَ النّحاسيَّةَ في البريَّة والَّتي سيُحقِّقُها المسيح في ارتفاعه على خشبة الصَّليب، وهو الَّذي قالَ بنفسِه: "وكما رَفَعَ موسى الحيَّةَ في البريَّة، فكذلك يجبُ أن يُرفَعَ ابنُ الإنسان" (يو ٣: ١٤؛ راجع أيضًا عد ٢١: ٨-٩). فصليبُ يسوع، بحسب اللاهوت اليوحنّاويّ، يُجسِّدُ صكَّ الامتياز لعمله الخلاصيّ، إذ إنّه علامةُ انتصاره وغَلَبَتِه وسيادتِه الشّموليَّة على الجميع (أش ٩: ٥)؛ فالصّليبُ إذن، هو المكانُ الَّذي ظَهَرَ فيه مجدُ المسيح المخلِّص، إذ إنّه "السّاعةُ" الحاسمةُ والنِّهائيَّةُ لسيادة المسيح المَلَكِيَّة. وهكذا، فإنّ الصَّليبَ تَحَوَّلَ من أداةِ لعنةٍ إلى **عرشٍ مَلَكِيٍّ للمسيح**. فالصَّليبُ هو، ليوحنّا، ليسَ مكانًا للألَم، للعارِ والكراهِيَة، بل إنّه المكانُ الَّذي تَجَلَّى فيه الحُبُّ المُعطي للبشريَّةِ حياةً أبديّة، عَبرَ التَّضحيَّة الاختياريَّة والإراديَّة للابن الوحيد: "ليسَ لأَحَدٍ حُبٌّ أعظمُ من أن يَبذِلَ نفسَه في سبيلِ أحِبَّائِه" (يو ١٥: ١٣)؛ **إنّه مكانُ الكَشفِ الحقيقيِّ لألوهيَّة يسوع وقُوَّتِهِ الانتصاريَّة: إنّه سِرُّ الخلاص وتحقيقُ مُخطَّط الله.**

بحسب يوحنّا، فإنّ الجماعةَ المسيحيّةَ وُلِدَتْ عند الصَّليب، إذ إنّه أساسُ الكنيسةِ غيرُ المتزعزع. فالنَّظرُ إلى الصَّليب ورؤيتُه بعينِ الإيمان

كعملِ اعترافٍ وقبولٍ، يجعلُنا نَعي مَن هو يسوع وأين نستطيعُ أن نجدَ الخلاص.

٢) المريَمات، تلميذاتُ المصلوب المُخلِصات

لم يَذكُرِ الإزائيّون (متّى، مرقس ولوقا) حضورَ أُمٍّ يسوع بين النِّسوة اللواتي كُنَّ على مَقرُبةٍ من صليب يسوع، بينما نرى أنّ الإنجيليَّ الرّابع وجَّهَ اهتمامَه إليها وقد اعتنى، في المقام الأوّل، إلى إبراز الكلمات المُلهَمة الَّتي وجَّهَها يسوعُ إليها وإلى تلميذه الحبيب. بحسب الأناجيل الإزائيّة، أعلنَ يسوعُ أنّ أُمَّه وإخوتَه الحقيقيِّين هم الَّذين يسمعونَ كلمةَ الله ويَضعونَها في التّطبيق العمليّ:

- مت ١٢: ٥٠: "لأنَّ مَن **يعملُ** بمشيئة أبي الَّذي في السَّماوات..."؛
- مر ٣: ٣٥: "لأنَّ مَن **يعملُ** بمشيئة الله..."؛
- لو ٨: ٢١: "...الَّذين **يَسمعونَ** كلمةَ الله ويَعملونَ بها".

بينما يوحنّا يؤكِّدُ أنّ هذه العائلةَ وُلِدَتْ عند الصَّليب من قِبَلِ أولئك الَّذين رأَوا في يسوعَ المصلوب كلمةَ الله الَّذي أصبحَ جسدًا.

إنّ لهذا المشهدِ قواسمَ مشتركةً مع معجزة يسوع الأولى في قانا الجليل (يو ٢: ١-١١). هناك، في حضور أُمِّه الَّتي دعاها أيضًا "بالمرأة" وحضور تلاميذِه الَّذين يُمثِّلُهم عند أقدام الصّليب التّلميذُ الحبيب، كشفَ يسوعُ عن مجدِه الَّذي من شأنه أن يبلُغَ ذُروتَه في ساعتِه، ساعةِ ارتفاعِه وتمجيدِه عن طريق الصَّليب. **التّلميذُ الحقيقيُّ هو الَّذي يرى بالإيمان مجدَ الله**

في يسوع، ليس فقط في قانا أو في المعجزات الأخرى الَّتي تمَّت خلال حياتِه الأرضيّة، بل والأهمّ من ذلك كلِّه، عند أقدام الصَّليب. وعليه، فإنّنا نُلاحِظُ من خلال هذه الآية أنّ النِّسوةَ وَقَفْنَ بجانب صليب يسوع وبقُرب يسوع المصلوب، تَتميمًا لقول يسوعَ نفسِه في الإنجيل: "وأنا إذا رُفِعتُ مِن الأرض، جَذبتُ إليَّ الجميع" (يو ١٣: ٣٢-٣٣)، على عكس الإزائيِّين الَّذين يَصِفونَ وجودَ النِّسوة، ومن بينِهم مريمُ المجدليَّة، بالبُعدِ عن الصَّليب (مت ٢٧: ٥٥-٥٦؛ مر ١٥: ٤٠؛ لو ٢٣: ٤٩). انطلاقًا من كلِّ ما تقدّم، نَخلُصُ إلى القول بأنّ هؤلاء النِّسوة يَملِكنَ الشَّجاعةَ المفقودةَ عند التّلاميذ (ما عدا التّلميذَ الحبيب) ليَقِفْنَ بقُرب يسوع عند صليبه، وإنّهنَّ حقًّا التّلميذاتُ المخلِصاتُ للمصلوب والمؤمناتُ برسالتِه الإلهيّة، اللواتي واكَبنَه أثناء حياته الأرضيّة ولم يَغِبْنَ عن مرافقتِه عند أقدام الصَّليب، في اللحظة الحاسمة.

١. مريم، أُمُّ يسوع

إنّ أوَّلَ ملاحظةٍ يُمكِنُنا لَمسَها في الإنجيل الرّابع هي أنّ مريمَ لا تُذكَرُ بتاتًا باسمِها الشخصيّ، بل يَكشِفُ الإنجيليُّ أنّها "أُمُّ يسوع"، وبالتّالي، فإنّه يُظهِرُ هُويَّتَها الأُموميَّةَ بارتباطِها بابنِها يسوع. فلولا الأناجيل الإزائيَّة لَما كان في وُسعِنا حتّى معرفةَ كيف نَدعو والدةَ يسوع باسمِها. فالإنجيليُّ يوحنّا لديه الرّغبةُ في تقديم بعض الشّخصيّات الحقيقيّة دون ذِكرِها بأسمائها، جاعِلاً منها **"نموذجًا مثاليًّا وحيًّا"** يتفاعلُ، بطريقةٍ خاصّة، فيما يتعلَّقُ بيسوعَ ورسالتِه الخلاصيّة. وهذا يَنطَبقُ أيضًا على حالة مريم، الَّتي وكما أَشَرنا آنفًا،

لم تُدعى أبدًا باسمِها، حتّى ولو في ستِّ مناسباتٍ دُعِيَتْ "أُمَّ يسوع" (يو ٢: ١، ٣، ٥، ١٢؛ ٦: ٤٢؛ ١٩: ٢٥)، ذلك لأنّ تركيزَ الإنجيليِّ مُوَجَّهٌ إلى عملِها فيما يَخُصُّ يسوع. **إنّه يرغبُ في إبراز، قبل كلِّ شيء، الحقيقةِ الَّتي تقولُ بأنّ مريمَ هي والدةُ الَّذي هو، في طبيعتِه، ابنُ الله، والدةُ الكلمةِ المتجسِّد.** فيوحنّا إذن، يَكشِفُ بذلك دورَ هذه المرأةِ الَّذي لَعِبَتْهُ وستَلعبُهُ في تاريخ الخلاص، إذ إنّها لن تكونَ أُمَّ يسوع فقط، بل ستكونُ أُمَّ جميع التّلاميذِ والمؤمنين باسم المسيح.

لقد كانت مريمُ الأُمَّ الجسديّةَ ليسوع. إنّها اليهوديّةُ المؤمنةُ الَّتي استجابَتْ لدعوة الله. لقد أعطتْ يسوعَ لإسرائيل الَّذي كان يعيشُ حالةَ انتظارٍ مسيحانيٍّ وللعالم أجمع. والآن، يكشفُ يسوعُ أنّ مريم هي رمزُ الأُمِّ الَّتي ستُواصِلُ تقديمَه لإسرائيلَ الجديد وللعالم. وبسبب أنّ "ساعتَه" أصبحت في طَور الاكتمال الآن، فإنّ حوّاء الجديدةَ ستَتكوَّنُ من جَنبِ آدم الثّاني (يو ١٩: ٣٤) كما تكوَّنت حوّاء الأولى من ضلع آدم الأوّل (تك ٢: ٢٢-٢٣). مريمُ هي رمزُ حوّاء الجديدة. إنّها، كما حوّاء، دُعِيَتْ "المرأة" (تك ٣: ١٥؛ يو ٢: ٤؛ ١٩: ٢٦). إنّها، كما حوّاء، دُعِيَتْ أيضًا "الأُمّ" الَّتي تَلِدُ الحيّ (تك ٣: ٢٠؛ يو ١٩: ٢٦-٢٧)، وهي أيضًا **صورةٌ للكنيسة الَّتي تَلِدُ البشر في الإيمان**[٥١]، والَّتي تَجلِبُ حياةَ يسوع الممجَّد إلى العالم. مريم، إذن، هي حوّاء الجديدة، إسرائيل الجديد والعذراء صهيون (أش ٥٤: ١؛ ٦٦: ٧-١١).

---

[٥١] Xavier Dufour, ***Lettura dell'evangelo secondo Giovanni***, p. 1108.

إنّ المسيحيّين الأوّلين قاموا بقراءة بعض النبوءات المتعلِّقة بولادة الملك الداوديّ (أش ٧: ١٤) كمرجعٍ لولادة أو مجيء المسيح. هناك أيضًا العديد من فقرات العهد القديم الَّتي تَصِفُ إسرائيل أو صهيون كإمرأة تجلِبُ الولادة لشعبٍ جديد (أش ٤٩: ٢٠-٢٢؛ ٥٤: ١؛ ٦٦: ٧-٨). أمّا بالنّسبة إلى يوحنّا، فنراه غيرَ مهتَمٍّ في أُمٍّ يسوع كأُمٍّ للمسيح الملك، إذ إنّ يسوع اليوحنّاويّ هو المسيحُ ابنُ الله، ليس بسبب ولادته الأرضيّة من مريم، بل بسبب أزليَّته السَّماويّة وجوهرِه الإلهيّ مع الآب. وهذا يعني أنّ الإنجيليَّ لا يُعيرُ انتباهًا للإمكانيّات الرّمزيّة لمريم كإسرائيل الَّذي يَلِدُ يسوع، بقدر ما يهتمّ برمزيّة إسرائيل الَّذي يَلِدُ الجماعةَ المسيحيّة من خلال التتلمُذ ليسوع وقبولِه.

إنّ مريم، هذه الشّخصيَّةُ الأُنثويَّةُ الواقفة عند أقدام الصَّليب، قد حقَّقَتْ في شخصها، بطريقةٍ ملموسةٍ وتمثيليَّة، ما قد تنبَّأ عنه أنبياءُ العهد القديم. فأضحتْ مريمُ "الأُمَّ صهيون" (أش ٦٠: ٤-٥؛ با ٤: ٣٦-٣٧؛ ٥: ٥...) وهي نصوصٌ تَدعو فيها "إبنةُ صهيون" أو "الأُمُّ صهيون" أبناءَها من المنفى، بحيث تستطيعُ أن تُكوِّنَ معهم شعبَ الله الجديد على جبل صهيون. من هنا نُدرِكُ أنّ التلميذ الَّذي سيُصبح "ابنَها" عند أقدام الصَّليب، يُجسِّدُ في شخصِه ودورِه "أبناءَ إسرائيل"، الَّذين سيتجمّعون حولها (أُمِّهم صهيون)، على جبل صهيون، عند الصَّليب، ليؤلِّفوا معًا شعبَ الله الجديد.

٢. شخصيَّة مريم المجدليَّة

لقد ظَهَرَتْ هذه المريمُ لأوّل مرّةٍ في الإنجيل الرّابع هنا بقرب الصَّليب. لقد كانت للمجدليّة، كما هي الحالُ مع التّلميذِ الحبيب، وبعكس التّلاميذ الآخرين، الشَّجاعةُ في اتِّباع السيِّد حتّى الجلجلة. وهي مَن ستكونُ الأولى بين النّساء الَّتي "جاءَتْ إلى القبر والظّلامُ لَم يَزَلْ مُخَيِّمًا" (فالإنجيليُّ يُريدُ إشراكَ القارئ في العبور من الموت إلى الحياة، ومن الظُّلمة إلى النُّور: إنّها **الليلةُ الروحيّة والاختبارُ الروحيّ للقيامةِ بجانب القبر**)، وكان هذا عندَ فجر أحد القيامة (يو ٢٠: ١-٢)، وقد جاءَتْ بسرعةٍ إلى التّلاميذ، حامِلَةً بجُعبَتِها بُشرى القبر الفارغ والقلق بادٍ على مُحَيَّاها "لا نَعلَمُ أينَ وَضَعوه" (يو ٢٠: ٢). في هذا اليوم عينه، ظَهَرَ، لأوّل مرّةٍ، الرَّبُّ القائمُ للمجدليّة (يو ٢٠: ١١-١٧)، وكانت هي بالتّالي، أوَّلَ مَن رأى القائم، إذ إنّ التّلميذين الآخرَين (يوحنّا وبطرس) اللَّذين وَفَدا إلى القبر، لم يُشاهِدا إلاّ اللَّفائفَ والمنديلَ الَّذي كان حول رأس يسوع. إنّ لقاءَ المجدليَّة بيسوع كَشَفَ معنى القيامة وحَضَّرَ لقاءَ يسوع مع التّلاميذ في عشيَّة ذلك اليوم عينه (يو ٢٠: ١٩-٢٣). فعندما أرادَتْ مريم أن تُمسِكَ بالسيِّد، فَهِمَتْ منه أنّه يجب عليها أن تَترُكَه يُكمِلُ مسيرتَهُ نحو الآب (يو ٢٠: ١٧) وأعطاها مَهَمَّةَ أخذ هذه البُشرى إلى التّلاميذ: "إذهبي إلى إخوتي، فقولي لهم إنّي صاعِدٌ إلى أبي وأبيكم، وإلهي وإلهِكم" (يو ٢٠: ١٧). لقد أتَمَّتْ مريمُ، حالاً ودون تَرَدُّدٍ، رسالةَ الفرحِ المُوكلةَ إليها من قِبَلِ القائم إلى تلاميذه. وأصبحت، بالتّالي، الوصِيَةَ الرسميَّةَ

على الرسالة الفصحيَّة، الَّتي تَتَضَمَّنُ في جوهرها تمجيد يسوع بجانب الآب. إلاّ أنّ هناك أكثر من ذلك، إذ إنّ هذه البُشرى تُشيرُ إلى افتتاح وتدشين علاقةٍ جديدةٍ بين التّلاميذ والله، وبين التّلاميذ أنفسهم كإخوة. نحن هنا أمام إنجاز العهد الجديد، المختوم على صليب يسوع، عرش مجده. فالبُشرى **"قد رأيتُ الرَّبّ"** (يو ٢٠: ١٨) الَّتي قامَتِ المجدليَّةُ بنقلها إلى الرسل (رؤية القائم) **كإعلانٍ واعترافٍ بالإيمان بيسوع المسيح الحيّ والقائم من بين الأموات، جَعَلَتها تأخذُ صبغةً مساويَةً للرسل** (يو ٢٠: ٢٥؛ راجع أيضًا لو ٢٤: ٢٣؛ ١كو ١٥: ٥؛ ٩: ١)[٥٢]: فالمجدليَّةُ إذن، تُجسِّدُ شخصيَّةَ الإيمان الفصحيّ، شخصيَّةَ العبور من الظُّلُمات إلى نَهار الفصح الَّذي لا مساءَ له من خلال **اختبارها الإيمانيّ التذوُّقيّ** لهذه القيامة (**"الثيوريّا التذوّقيّة"**) عبر دخولها في معرفة سرّ القيامة والتعرُّف إليه **معرفةً روحيّةً اختباريّة** (**"الميستاغوجيّة"**).

لا بدَّ من التَوَقُّف قليلاً عند مناداة يسوع للمجدليَّة **باسمِها**: **"**فقال لها يسوع: مريم!**"** (يو ٢٠: ١٦)، إذ إنّ يسوع من خلالها يُجسِّدُ شخصيَّةَ الرّاعي الصَّالح الَّذي يَعرِفُ خِرافَهُ بأسمائها وهي تَعرِفُهُ من صوته. مثالٌ آخرُ في العهد القديم، وبالتّحديد في سفر الخروج، حيث يقولُ الله نفسُه لموسى: "إنّي عَرَفتُكَ باسمِكَ ونِلتَ حُظوةً في عَينيَّ" (خر ٣٣: ١٢): **فالإيمان، بحسب الرّوحانيّةِ اليوحنّاويَّة، هو تَقَبُّلُ يسوعَ ابنِ الله، كمخلِّصٍ لتاريخ الإنسان الخاصّ**. وهذا الإيمانُ يُدرَكُ فقط في **"الثَّبات"** في كلمة يسوع (يو ٨: ٣١)، وفي **"معرفة"** يسوعَ نفسِه (يو ٦: ٦٩) وفي "حِمل الثِّمار الكثيرة" (يو ١٥: ٨).

---

[٥٢] **المرجع نفسه**، ص١١٧.

القسم الثالث

مريمُ في سرِّ الصَّليب: أُمومةٌ روحيَّة (يو ١٩: ٢٦-٢٧)

إنّ مركزيَّةَ هاتَين الآيتَين تَكمنُ في أنّ يسوعَ المصلوبَ قد كَشَفَ، بكلماته المُلهَمَة الأخيرة، الموجَّهة إلى أُمِّه والتّلميذ الحبيب، بُعدًا جديدًا لأُمومة مريم، وهو البُعدُ **الروحيّ**، ودورًا جديدًا لأُمِّه في تدبير الخلاص؛ ولكنّه، في الوقت نفسه، كَشَفَ أنّ الدَّورَ الأوَّلِيَّ للتّلميذ الحبيب هو في أن يكونَ "ابنَ مريم". فكلِمَتا "أُمّ" و"ابن" المذكورتان على لسان يسوع نفسه، تفترضان ضمنيًّا، علاقةً جديدةً بين أُمٍّ يسوع والتّلميذ، وهذه هي إرادةُ يسوع نفسه ضمن البُعد المسيحانيِّ والإكليزيولوجيّ (الكنسيّ) لحدث الصَّليب. وهذا ما سنَراهُ في الجزء الأوّل والثّاني من هذا القسم.

الجزءُ الأوّل

أُمومةُ مريم بين المسيحانيّة والإكليزيولوجيّة (يو ١٩: ٢٦-أ٢٧)

١) مريمُ عند أقدام الصَّليب، رمزُ الكنيسة

العديدُ من آباء الكنيسة (كأثناسيوس، إبيفانيوس وهيلاريون) يُفسِّرونَ هذه الآية ليُبَرهِنوا **بتوليَّة مريم الدّائمة**: فلو كان لها أبناءٌ آخرون، لَمَا عَهِدَ يسوعُ أُمَّهُ إلى يوحنّا ابن زبدى، التّلميذِ الحبيب. الأكثرُ من ذلك، أنّ الإنجيل يُعطي تلميحاتٍ عدّةً إلى أنّ شيئًا أعمقَ هو في الفكر. فتعبيرُ "هوذا ابنُكِ" و"هذه هي أُمُّكَ"يتضمّنُ صيغة وحيٍ وإلهام. ففي هذه الصيغة، الَّذي يتكلَّمُ

هو في حالة كشفٍ لسرِّ الرسالة الخلاصيَّة، الَّتي تَعهَدُ للشخص المشار إليه بأخذها على عاتقه. وبالتّالي، فإنّ **البُنُوَّةَ والأُمومةَ** المُعلَنَتَين من الصَّليب، **يَدخُلان في مُخطَّط الله ويتعلَّقان بالَّذي سيَتَحقَّقُ عند ارتفاع يسوعَ على الصَّليب**. معنًى أعمق هو أيضًا مُقترَحٌ في الآية الَّتي تلي هذا الحدث (أي الحدث الرّابع) في الإنجيل الرابع: "وبعد ذلك، كان يسوعُ يعلَمُ أنّ كلَّ شيءٍ قدِ انتَهى" (يو ١٩: ٢٨). فتَصَرُّفُ يسوعَ المُتعلِّقُ بأُمِّه والتّلميذِ الحبيب يُحقِّقُ العملَ الَّذي أعطاهُ الآبُ ليسوع ليَعملَ ويُتَمِّمَ النبوءاتِ المتعلِّقةَ بالمسيحانيّة الخلاصيّة.

فغالبيَّةُ المفسِّرين تجدُ مغزىً لاهوتيًّا بتفسير أُمِّ يسوع والتّلميذ الحبيب كرمزَين يُمثِّلان جماعةً أوسع: فمريمُ تُمثِّلُ ميراثَ إسرائيل المعهودَ الآن إلى المسيحيِّين المُمثَّلينَ بالتّلميذِ الحبيب. إنّه لَمِنَ الواضح، أنّه في القرن الرّابع الميلاديّ، أُعطِيَتْ **مريمُ الواقفةُ عند أقدام الصَّليب رمزَ الكنيسة**.

فأفرامُ السّريانيُّ (٣٠٦-٣٧٣م) وَضَّحَ هذا، أنّ موسى عَيَّنَ يشوعَ بدلاً منه لرعاية شعب الله نحو أرض الميعاد (تث ٣١: ٧-٨)، **كذلك يسوعُ عَيَّنَ يوحنّا عِوَضًا عنه لرعاية مريم، الكنيسة في مسيرتها الأرضيَّة نحو أرض الميعاد الاسكاتولوجيَّة**. وقد رأى **أمبروسيوسُ** أيضًا أنّ المسيحيِّينَ أَحرَزوا في مريم سرَّ الكنيسة، الَّذي من خلاله، قد يقولُ يسوعُ لكلِّ مسيحيٍّ في إشارةٍ إلى الكنيسة: "هذه أُمُّكَ". وفي رؤية المسيح المُنتصر على الصَّليب، يُصبحُ المسيحيُّ ابنًا للكنيسة. وهكذا، فإنّنا نَحتَفِلُ بالأُمومة الروحيَّة الشّخصيَّة

لمريم في الكنيسة: **"لم يَجعَلْ يسوعُ مريمَ أُمًّا ليوحنّا فقط، بل وأيضًا أُمًّا لكلِّ التّلاميذ"** (القدّيس جاورجيوس النيقوذيميّ في القرن التّاسع الميلاديّ).

٢) ساعةُ المجد بين قانا والصَّليب: خلقٌ جديد

إنّ للمشهدِ عند أقدام الصَّليب ذي التَّفاصيل المشتركة مع مشهد قانا: كِلا المَشهدَينِ يُشكِّلانِ المكانَينِ الوحيدَين اللَّذين ظَهَرَتْ فيهما أُمُّ يسوع. وفي كِلَيهما، دُعِيَتِ بالـ **"المرأة"**. ففي قانا رُفِضَ تَدَخُّلُها على أساسِ أنّ ساعةَ يسوع لم تكنْ قد حانَتْ، لكنّها عند الصَّليب في سياق اكتمالِها. نستطيعُ أن نُلاحِظَ بأنّ طَلَبَ مريم، سواء بتدَخُّلِها أو بدونِه، سيؤدِّي بيسوع إلى اجتِراحِ أُعجوبة. فقبلَ أن يَجتَرِحَ يسوعُ أعجوبتَه هنه، كان لا بُدّ له من أن يَرفُضَ تَدَخُّلَ أُمِّه، **لأنّ مُعجِزاتِهِ يجب أن تَعكِسَ سُلطةَ الآب، وليس سلطةً بشريَّةً أو وساطةً عائليَّة**. ومع هذا، فإذا لم يَكُنْ لمريم دورٌ أثناءَ سرِّ يسوع، فإنّها وبكلِّ تأكيدٍ، ستَتَلَّقى دورًا أساسيًّا عندما تَحينُ ساعةُ المجد، ساعةُ الآلام، الموت، القيامة والصُّعود. **فمريمُ هي حوّاءُ الجديدة، رمزُ الكنيسة**، الَّتي لا تَضطَلِعُ بأيِّ دورٍ إبَّانَ سرِّ يسوع على الأرض، بل فقط بعد ساعة قيامته وصعوده.

إنّ تفسيرَ وساطة مريم وتَدَخُّلَها يدخُلُ ضمنَ المرحلة المسيحانيّة، إذ إنّ يسوع "بدأَ" في إظهار نفسه على أنّه "المسيح"، وتلك الحقيقة، كانت نقطةَ تَحَوُّلٍ في العلاقة بينه وبين مريم، الَّتي لم تَعُدْ هي نفسُها، كعلاقةٍ بين ابنٍ وأُمِّه، نظرًا لأنّ يسوع، أخذَ على عاتقه منذ الآن، دورًا آخرَ مسيحانيًّا.

وما هو مهمٌّ جدًّا، في إعطاء أُمِّهِ لقبَ "امرأة"، أنّه **أَدخَلَها في رسالته الَّتي بدأتْ لِتَوِّها**. لقد وَضَعَ يسوعُ مسافةً بينه وبين أُمِّه، ولكنّه، في الوقت نفسه، فَتَحَ لهذه العلاقة آفاقًا أُموميَّةً وعائليَّةً جديدةً أوسع وأشمل في سرِّ الخلاص.

فيوحنّا، ومنذ الآن، أصبحَ مُهتَمًّا في إظهار أُمٍّ يسوع كأُمٍّ للمسيح "الماسيّا" الملك مع حقِّ المطالَبَة الطَّبيعيّة عليه، بما أنّ يسوع اليوحنّاويَّ هو المسيحُ ابنُ الله، ليس من أجل ولادته الأرضيَّة من مريم، بل من أجل **وُجوده الأزليِّ (قبل الدّهور؛ منذ الابتداء) مع الآب** (يو ١: ١-٢؛ ٨: ٥٨). لذلك، فإنّ الإنجيليَّ غيرُ مُهتَمٍّ في إظهار مريم كرمزٍ لإسرائيل في ولادتها يسوع، بقدر ما نراهُ يُركِّزُ أنظارَنا نحو مريم عند أقدام الصَّليب، كرمزٍ لإسرائيلَ في ولادتها **الجماعةَ المسيحيّةَ من خلال التّلمذة ليسوع وقبوله بالإيمان**.

وفي ذروة هذه السّاعة، يُعادُ خلقُ الإنسان كابنٍ لله، في الوقت الَّذي فيه **يَنفُخُ** الرّوحُ فيه. فيوحنّا أَكَّدَ في **٧: ٣٩** أنّ أولئكَ الَّذين آمنوا بيسوع سيتلقَّونَ الرّوحَ ما إنْ يَتَمَّجَدَ يسوع، وهذا سيتمُّ عند ذروة ساعة المجد، الَّتي ستكونُ مرجَعًا جوهريًّا لإعطاء الرّوح، الَّذي يعني في الكتابات اليوحنّاويّة، الولادة الجديدة الَّتي تُشكِّل المدخل الأساسيّ للملكوت (يو ٣: ٥-٦)، العبادة الحقيقيّة للآب (يو ٤: ٢٣)، القدرة المُحيية (يو ٦: ٦٣)، وأخيرًا هِبَة الحياة (يو ٧: ٣٧-٣٩)[٥٣].

---

[٥٣] **المرجع نفسه**، ص١١٨٥.

فيسوعُ قبل أن يقول لتلاميذه، "خذوا الرّوحَ القدس"، **نَفَخَ فيهم** (يو ٢٠: ٢٢): **(١) يوحنّا ٢٠: ٢٢، "**قالَ هذا و**نَفَخَ فيهم** وقال لهم: خذوا الرّوحَ القدس"، **(٢) تكوين ٢: ٧، "**وجَبَلَ الرَّبُّ الإلهُ الإنسانَ تُرابًا من الأرض و**نَفَخَ في** أَنفِهِ نَسَمَةَ حياة، فصارَ الإنسانُ نفسًا حيَّة"، **(٣) حكمة ١٥: ١١، "**لأنّه تجاهلَ مَن جَبَلَه، و**نَفَخَ فيه** نفسًا عامِلةً وبَعَثَ روحًا مُحييًا".

بطريقةٍ رمزيَّة، بعد ذلك، يُعلِنُ يوحنّا هذا، أنّه مِثلَما في الخَلقِ الأوّل، نَفَخَ اللهُ في الإنسانِ روحَ الحياة، هكذا الآن، في لحظة الخلق الجديد، يَنفُخُ يسوعُ روحَهُ القدّوسَ خاصَّتَه في تلاميذِه، مُعطِيًّا إيَّاهُمْ حياةً أبديَّة. ففي رؤيتِهِ المؤثِّرة لوادي العظام، يُقدِّمُ حزقيالُ النبيُّ اللهَ كابن الإنسان، حيث تَنبَّأَ عن العظام اليابسة، قال: "فقالَ لي: يا ابنَ الإنسان، أتُرى تَحيا هذه العظام؟ فقُلتُ: أيُّها السَّيِّدُ الرَّبّ، أنتَ تَعلَم. فقالَ لي: تَنَبَّأْ على هذه العظام وقُلْ لها: أيَّتُها العظامُ اليابسة، اسمَعي كلمةَ الرَّبّ. هكذا قالَ السَّيِّدُ الرَّبُّ لهذه العظام: ها أنذا **أُدخِلُ فيكِ روحًا فتَحيَين"** (حز ٣٧: ٣-٥). والآن، ابنُ إنسانٍ آخر، هو نفسُه أُقيمَ من القبر، إنّه الرَّبُّ النّاهضُ والمُعطي نَسْمَةَ حياةٍ أبديّةٍ لجميع الَّذين يَسمعونَ كلمتَه.

خِتامًا نقول بأنّ لعرسِ قانا بُعدَين أساسيَّين يريدُ الكاتبُ المُلهَمُ إبرازَهما وهما: **البُعد المسيحانيّ والبعدُ الإكليزيولوجيّ "الكنسيّ"**، إذ إنّه الرّمزُ للعرس المسيحانيّ بين الله وشعبه، ويسوعُ هو العريسُ الإلهيّ. فلقد وَضَّحَ بولسُ في رسالتِه إلى أهل أفسس مفهومَ هذا العرسِ ومضامينَه **المسيحانيَّة – الإكليزيولوجيّة**، بقوله: "... كما أَحَبَّ المسيحُ الكنيسة وجادَ بنفسِه

من أجلِها ليُقَدِّسَها مُطَهِّرًا إيَّاها بغُسلِ الماءِ وكلمةٍ تَصحَبُه، فيَزُفُّها إلى نفسِه كنيسةً سَنِيَّةً لا دَنَسَ فيها ولا تَغَضُّنَ ولا ما أشبهَ ذلك، بل مقدَّسةٌ بلا عيب... إنّ هذا السِّرَّ لعظيم، وإنِّي أقولُ هذا في أمرِ المسيحِ والكنيسة..." (أف ٥: ٢٥-٢٧، ٣٢).

٣) مريم، حوّاءُ التّكوين الجديد و"ابنةُ صهيون"

أُمُّ يسوع أصبحتْ حوّاءَ الجديدةَ الَّتي، في تقليد نموذجها الأصليّ، هي "امرأةُ" سفر التّكوين ٢-٥، حين أَعلَنَتْ حوّاء "قدِ اقتَنَيتُ رجلاً من عندِ الرَّبّ" (تك ٤: ١). نستطيعُ، في الوقت نفسه، أن نَنسِبَ لمريمَ هذا اللقب استنادًا إلى سفر التّكوين ٣: ١٥، المقطع الَّذي يَصِفُ الصِّراعَ بين نَسلِ حوّاء ونَسلِ الحيَّة، لنؤكِّدَ أنّ "ساعةَ" يسوع هي ساعةُ سقوطِ أميرِ هذا العالم: "أَتَتِ السَّاعةُ الَّتي فيها يُمَجَّدُ ابنُ الإنسان" (يو ١٢: ٢٣) و"اليومَ دينونةُ هذا العالم. اليوم يُطرَدُ سَيِّدُ هذا العالمِ إلى الخارج" (يو ١٢: ٣١).

في الإطار نفسه، نُلاحِظُ أنّ رمزيَّةَ الإنجيل الرّابع تتَّجهُ نحو التّشابيه المؤكَّدة الَّتي في **رؤيا ١٢: ٥** "فوَضَعَتْ ابنًا ذكَرًا، وهو الَّذي سوفَ يَرعى جميعَ الأُمم بعصًا حديد. وخُطِفَ وَلَدُها إلى حضرة الله إلى عرشه" وأيضًا **الآية ١٧** من الفصل عينه: "فَغَضِبَ التِّنينُ على المرأة، ومضى يُحارِبُ سائرَ نسلِها **الَّذين يَحفَظونَ وصايا الله** وعندَهم شهادةُ يسوعَ المسيح". فنسلُ المرأةِ كما هو موصوفٌ في سفر الرؤيا، هُمُ الَّذين يَحفظونَ وصايا الله، وهي الحالُ كذلك في يوحنّا ١٤: ٢١-٢٣: "مَن تَلَقَّى وصاياي وحَفِظَها فذاكَ الَّذي يُحِبُّني... إذا أَحَبَّني أَحَد، حَفِظَ كلامي...". نَستَنتِجُ ممّا تقدّم أنّ الصّورةَ اليوحنّاويَّةَ لأُمِّ يسوع الَّتي أصبحتْ أُمَّ التِّلميذِ الحبيب،

تَبدو مُستَحضِرةً مواضيعَ العهدِ القديم عن "حوّاء" ونسلِها من جهة، وعن **"ابنة صهيون"** الَّتي وَلَدَتْ شعبَ الله الجديد في المسيح، من جهةٍ أخرى. هذا التَّشبيهُ الأخير يقودُ إلى تَصَوُّرِ الكنيسة الَّتي تَلِدُ أبناءً مِثاليِّينَ وراءَ يسوع، وعلاقة المحبّةِ هذه تَقودُ إلى تواصل الأبناء وترابُطِهم بأُمِّهم.

يرى **توما الإكويني**ّ (١٢٢٥-١٢٧٤م) في مريم رمزًا "للكَنِيس" الخاصِّ بإسرائيل، بالشّعب العبرانيّ، لأنّ مريمَ تُمثِّلُ شعبَ الله الاسكاتولوجيّ، ليس على الصعيدَينِ المستقبليِّ والكنسيّ فقط، بل لأنّها تُشكِّلُ نقطةَ الوصول لإسرائيل القديم. فشعبُ الله الاسكاتولوجيّ، تحوَّلَ ليُشكِّلَ الجماعةَ المسيحيّةَ النّاشئةَ عند أقدام الصَّليب، الجماعةَ الجديدةَ للمسيح القائم، الكنيسة. بكلماتٍ أخرى، **مريمُ هي رمزُ الشّعب المسيحانيّ**. في شخصها الفريد، يَتَجَمَّعُ كلُّ العهد القديم، ويقومُ أيضًا إسرائيلُ الجديد: الكنيسة.

وعليه، يرى البعضُ، **كأمبروسيوس**، مريمَ في صورة **"الكنيسة"** الَّتي تَلِدُ البشرَ للإيمان؛ والبعضُ الآخر لا يراها كنموذجٍ مِثاليّ، بقدر ما يُصَوِّرُها في **شخصيَّتِها الفرديّة** في التَّفكير والاختبار المسيحيّ: **مريمُ خُصِّصَتْ من السَّماءِ بأُمومةٍ روحيَّةٍ لكلِّ المسيحيّين**. فكلمةُ المصلوب قَدَّمَتِ الأساس، أو على الأقلِّ، شهادةً بارزة، لدورِ مريم الأُموميّ. فأشعيا يُقدِّمُ "صهيونَ" كامرأةٍ عقيمةٍ ومهجورة، تَلِدُ في الفرح عددًا وافرًا من البنين والبنات (أش ٤٩: ٢٠-٢٢؛ ٥٤: ١ [استشهدَ به بولس في رسالته إلى أهل

غلاطية ٤: ٢٦]؛ ٦٦: ٧-١١): نَظَرًا لأنّ مريمَ تُجسِّدُ الكنيسةَ، فهي، لأجل ذلك، أُمٌّ لهذا الشَّعب الجديد. وَفقًا للتَّكوين، حوّاءُ "أُمُّ كلِّ حيّ" (تك ٣: ٢٠)، وَلَدَتْ ابنًا آخرَ عِوَضًا عن هابيل، بمساعدةِ الرَّبّ (تك ٤: ٢٥): مريم، الَّتي اقتَنَتْ ابنًا عِوَضًا عن المصلوب، هي "حوّاءُ الجديدة"، أُمُّ تلاميذ المسيح.

في كتاب الرؤيا، "المرأةُ" المُهَدَّدةُ من التِّنين، وَلَدَتِ المسيح، الَّذي ارتَفَعَ إلى عرش الله (رؤ ١٢: ٥)؛ إنّها أيضًا الأُمُّ لأولادٍ آخرين، المؤمنين بالوصايا الإلهيَّة (رؤ ١٢: ١٧). هذا المقطع، أي مريم عند أقدام الصَّليب، وُضِعَ في علاقةٍ بصورة المرأة الَّتي وَلَدَتْ بالحزن الَّذي تحوَّلَ إلى فرح (يو ١٦: ٢١)، صورةٍ تنطبقُ بكلِّ مقاييسِها على أُمٍّ يسوع الواقفة عند أقدام الصَّليب: **فالصّليبُ يَجلِبُ حزنًا جديدًا، لكنّه، في الحقيقة، أعظمُ فَرَحًا من الولادةِ الجسديّة**، إذ إنّه البابُ الملوكيُّ للَّذين يَتوقونَ إلى الاتِّحاد في المسيح. باختصار، بعد أن أظهرَ يسوعُ أنّ أُمَّه أصبحتْ في رعاية التِّلميذ الحبيب، وليس العكس، نستطيعُ أن نرى في مريمَ كلَّ الَّذين هم في حالة انتظارٍ للوَحْي "الكَشف" الكامل. **فبحسب كلمة يسوع على الصَّليب، فإنّ إيمانَ إسرائيلَ سارٍ نحو الاكتمال في الرسالة الإنجيليَّة، إذ إنّ يسوعَ هو اكتمالُ الانتظار الأمين للشَّعب المختار**. من هنا، تَرمزُ أُمُّ يسوع الواقفةُ عند الصَّليب، تحت نظرةٍ مُحَدِّقةٍ إلى الارتفاع، إلى انتظار الخلاص الموعود به من الله والآتي بالاتّحاد مع التّلميذ المُتكِّئ على صدر الموحي، بحيث ظَهَرَ هذا التّلميذُ كالشَّاهد الصَّادق والمفسِّر بسلطةٍ الاكتمالَ الَّذي تَلَقَّاه.

وليُظهِرَ العلاقةَ المشتركةَ الَّتي افتَتَحَها من أعالي الصَّليب، يَستعملُ يسوعُ تعبيرَين "أُمّ" و"ابن"، ليؤسِّسَ هكذا، وبطريقةٍ روحيّة، **عائلةً جديدةً من أخِصَّائِه**. ففي التَّقليد الإنجيليّ، يُفصَلُ التَّلاميذُ رسميًّا عن عائلةِ النَّاصريِّ الأرضيَّة: "... فقالوا له: إنّ أُمَّكَ وإخوتَكَ في خارجِ الدَّارِ يَطلُبونَكَ. فأجابَهم: مَن أُمِّي وإخوتي؟ ثمّ أجالَ طَرفَهُ في الجالِسينَ حولَهُ وقال: هؤلاءِ هُم أُمِّي وإخوتي، لأنّ **مَن يَعمَلُ بمشيئة الله هو أخي وأُختي وأُمِّي**" (مر ٣: ٣٢-٣٥؛ متّى ١٢: ٤٨-٥٠؛ لو ٨: ٢٠-٢١). **فالعائلةُ النّاشئةُ حديثًا عند أقدام الصّليب، لا تَنتمي بشريًّا إلى عائلة يسوعَ الطّبيعيّة، بل تُؤسِّسُ إسكاتولوجيًّا، عائلةً جديدةً من تلاميذه وأتباعه المؤمنين باسمه**، كما وَرَدَ في مرقس ٣: ٣١-٣٥.

إستنادًا إلى ما تقدّم، نَخلُصُ إلى القول، إنّ شخصيَّةَ صهيونَ المِثاليَّةَ للزّمن الاسكاتولوجيّ، الَّتي قامَ بوصفِها الكتابُ المقدّس والتّقليدُ اليهوديّ، تأتي مُجسَّدةً في صورة "امرأةٍ". من هذا المنظار، تأتي مريمُ **كتحقيقٍ تاريخيٍّ** لرمزيَّةِ هذه الشّخصيّة، الَّتي دُعِيَتْ في كُتُبِ الأنبياء بـ"ابنةِ صهيون"، "الأُمِّ صهيون" أو "عذراءِ إسرائيل" (عا ٥: ١-٦؛ إر ١٨: ١٣؛ ٣١: ٤، ٢١)، إذ إنّ كلَّ تَوَقُّعاتِ إسرائيلَ عن الخلاص كانت مَبنِيَةً على رمزيَّة شخصيَّة "ابنة صهيونَ المسيحانيّة". وهكذا، أَدرَكَتِ الكنيسةُ أنّ مريمَ أصبحتْ تُجسِّدُ في شخصيَّتِها، كأُمٍّ للماسيّا، الشَّعبَ المسيحانيَّ في الزّمنِ الاسكاتولوجيّ، لأنّها، أيِ المرأةُ صهيونُ الاسكاتولوجيّة (أعني بها العذراء مريم)، هي مَن ستَستَدعي أبناءَها من المنفى ليَدخلوا أورشليم، وهناكَ على جبل صهيون، ستُكَوِّنُ شعبَ الله الجديد. فيوحنّا الواقفُ بقُربِ الصَّليب قامَ بقراءةٍ مُلهَمَةٍ

لنبوءةِ أشعيا (٦٠: ٣-٤) حول عودة الأبناء والبنات من المنفى واجتماعهم إلى أُمِّهم صهيون (راجع مت ٢٣: ٣٧؛ لو ١٣: ٣٤؛ غل ٤: ٢٤-٢٧)، ووضعَها كخلفيَّةٍ ببيليَّةٍ رئيسيَّةٍ لكلماتِ يسوعَ من أعالي الصَّليب: "أيَّتُها المرأةُ، هوذا ابنُكِ"، **ليُعلِنَ لحظةَ تكوينِ شعبِ الله الجديد، الكنيسة.**

ففي أُمومتها الجسديّة، لَخَصَّتْ أُمُّ يسوع وجَسَّدَتِ الشَّعبَ الَّذي تَحَدَّرَ منه يسوع. لقد كان يسوعُ ابنًا لشعب إسرائيل، وهذا كان واضحًا في حواره مع المرأة السّامريّة، حين قال لها إنّ "الخلاصَ يأتي من اليهود" (يو ٤: ٢٢)؛ إنّه الماسيّا (يو ٤: ٢٦)، وهو مُخلِّصُ العالم (يو ٤: ٤٢). وانطلاقًا من كونِ يسوع ابنًا لشعب إسرائيل، وفي الوقت نفسه، ابنًا لامرأةٍ تُسمَّى مريم، فهذا دليلٌ واضحٌ على أنّ مريمَ هي الشّخصيَّةُ الرّمزيّةُ لمسيحانيّة صهيون:

العهد القديم	مريم	العهد الجديد
"إسرائيل"	صورة الكَنيس، أيقونة الكنيسة	"الكنيسة"

تَظهَرُ مريمُ في هذه الصّورة **كشخصيَّةٍ مسيحانيّةٍ لكلِّ شعب إسرائيل**، إذ إنّها أصبحتْ **"ابنةَ صهيون الجديدة والاسكاتولوجيّة"**. فكلُّ الرجاء الَّذي اختبرَهُ إسرائيلُ القديمُ عبر العصور، احتَوَتْهُ مريم في شخصها. وبالتّالي، أصبحتْ مريمُ "ابنةَ صهيون المسيحانيّة"، الَّتي ومن خلال مسيحانيَّتها هذه قد ابتدأَ الزّمن، الَّذي لا يُنهي رجاءَ العهد القديم فقط، بل يُشكِّلُ نقطةَ الانطلاق نحو نهاية الزّمن، عصر الكنيسة، الَّتي ستَدومُ إلى

الاكتمال النّهائيِّ لتاريخ الخلاص. من هنا نَستطيعُ أن نفهمَ كيف أصبحتْ مريم أيقونةَ الكنيسة: **فما كان مجرَّدَ رجاءٍ في العهد القديم، أصبحَ حقيقةً في العهد الجديد، وهذا هو الجديدُ الَّذي أتانا به العهدُ الجديد.**

٤) مريمُ، فرحُ مسيحانيَ وانتِظارُ اسكاتولوجيَ

إلى جانب خلفيَّة العهد القديم، هناك العديد من النّصوص اليوحنّاويّة المتوازية والَّتي تخدم خاصّةً تسليطَ الضَّوء على الآيات ٢٥-٢٧. على سبيل المثال، **يوحنّا ١٦: ٢١**، "إنّ **المرأةَ** تَحزَنُ حين تَلِد، لأنّ **ساعتَها** قد حانَت. فإذا وَضَعَتِ الطِّفلَ لا تَذكُرُ شِدَّتَها بعد ذلك، لفرحها بأن قد وُلِدَ إنسانٌ في العالم" (إنّ عبارة "في العالم" هنا تشير في تقليد يوحنّا إلى يسوع الَّذي أتى إلى العالم من خلال تجسُّده وسيعود إلى العالم بعد آلامه وقيامته كآدم الجديد). في هذا النّصّ، يتكلّم يسوع عن آلامه وموته في فترة مخاض المرأة. إنّ ما بين هذا النّصّ ونصّ يو ١٩: ٢٥-٢٧ ثلاث نقاطٍ للاتّصال هي: **(١)** المرأة، **(٢)** أُمومتها، **(٣)** السّاعة.

إنّ فرح التّلاميذ الدّائم (يو ١٦: ٢٠-٢٢) يتناقض مع الفرح الكاذب والقاسي الَّذي سيستولي على العالم عند موت يسوع. ففرحُ التّلاميذ يرتبط أيضًا بموت يسوع، ولكنّه فرحٌ يُنشئُ انتصارًا من الألم. في وصفه لهذه الظّاهرة، يلجأُ يسوع إلى مَثَلٍ مُستقًى من اختبار ولادة الإنسان. ومع ذلك فإنّ اللغة المجازيّة الَّتي وظَّفها يسوع لها أيضًا جذورٌ في العهد القديم، مأخوذةٌ من تصوير آلام المخاض الَّتي على إسرائيل أن يتحملّها قبل

مجيء يوم الرّبّ أو قبل أن يأتيَ المسيح. ففي **أشعيا ٢٦: ١٧-١٨** (حسب الترجمة السّبعينيّة)، نقرأ: "كما أنّ الحُبلى الّتي قاربتِ الولادة، تتضوّرُ وتصرخُ في مَخاضها، فهكذا كنّا أمامك يا ربّ. حبلنا وتضوّرنا وكأنّنا وَلَدنا ريحًا، فلم نجعل خلاصًا على الأرض". يَعقُبُ ذلك وعدٌ أنّ الأموات سيَحيَون ونداءٌ إلى أولئك الّذين في الثّرى ليَستَيقظوا ويصرخوا من الفرح، لأنّ غضبَ الرّبّ يدومُ فترةً قصيرةً فقط (أش ٢٦: ١٩). إنّ التّشبيه موجودٌ أيضًا في **رؤيا ١٢: ٢-٥**، حيث تصرخُ المرأةُ المُلتَحِفةُ بالشّمس من آلام مَخاضها، وتضعُ طفلاً ذكرًا، الّذي سيَحكم كلَّ الشّعوب بعصًا من حديد (إنّه وصفٌ للملك الممسوح [المسيح] بحسب **مزمور ٢: ٩**).

إنّ موضوعَي **الأُمومة وموت يسوع** يُولِّدان كلاهما **الفرحَ للخليقة الجديدة**. فأنْ تُصبحَ أُمًّا للتِّلميذ الحبيب، الّذي يُمثِّلُ المسيحيّين، أَعادَتْ مريمُ، رمزيًّا، ذكريات **ابنة صهيون** الّتي، وبعد ألم مخاضها، وَلَدَتْ شعبًا جديدًا في الفرح؛ نرى، في الوقت نفسه، أنّ كلماتِ يسوع لتلاميذه قبل انطلاقه الإراديِّ نحو الآلام الطّوعيّة، تدعو إلى **انتظار فرحٍ اسكاتولوجيٍّ** لا يختصّ بهذا العالم، بل بملكوت الله: "... الحقَّ أقولُ لكم: ستَبكون وتَنتَحِبون، وأمّا العالمُ فيَفرح. ستَحزنون، **ولكنّ حُزنَكم سيَنقَلِبُ فَرَحًا**" (يو ١٦: ٢٠). من هنا نُدرك أنّ **للفرح** الّذي يتكلّم عنه يسوع **جوهرًا إسكاتولوجيًّا**: فالتّلميذ ينتمي إلى الّذي حَطَّمَ أبواب الموت، إذ **إنّ الفرح المُعلَن هو ثمرةُ لقاء التّلاميذ مع يسوع الحيّ، القائم من بين الأموات** (راجع يو ١٤: ١٩: "بعد قليلٍ لن يراني العالم، أمّا أنتم فسترَونَني لأنّي حيٌّ ولأنّكم أنتم أيضًا ستحيَون"). فيسوع أراد من

خلال هذا التّشبيه أن يؤكّد أنّ **آلام التّلاميذ ومحنتَهم الَّتي سيُعانونها بسبب موته، ستدخل في إطار العمل الخلاصيّ لله الَّذي سيُقيم يسوع من بين الأموات**.

نعودُ إلى موضوع الأُمومة، فنؤكّدُ أنّ ابنَ العذراء الطّبيعيّ هو أوّلُ مَن قام من بين الأموات "وهو رأسُ الجسدِ أي رأسُ الكنيسة. هو البَدءُ والبكرُ من بين الأموات، لتكونَ له الأوَّلِيَّةُ في كلِّ شيء" (كول ١: ١٨)، وهو الَّذي يَملِكُ مفاتيحَ الموت "أنا الحيّ. كُنتُ مَيتًا وها أنذا حَيٌّ أَبَدَ الدُّهور. عندي مَفاتيحُ الموت ومثوى الأموات" (رؤ ١: ١٨). فالَّذين يؤمنونَ به، يُولَدونَ من جديدٍ على صورته. وكإخوةٍ له، أصبحتْ مريمُ أُمًّا لهم.

٥) مريمُ في سرِّ العهد

إنّ الفكرةَ الأساسيَّةَ لكلِّ الكتاب المقدّس تَكمنُ في أنّ الله يتوقُ إلى وَضْعِ عهدٍ بينه وبين الإنسان. من البداية إلى النّهاية، من الأنبياء الأوّلين إلى سفر الرؤيا، وُصِفَ هذا العهدُ تحت صورةِ **الزّواج**. إنّ موضوعَ "عروسَ يهوه" لهو من المواضيع الَّتي تَتَرَدَّدُ كثيرًا في العهد القديم، وبخاصّةٍ في الأدب النبويّ (هو ١-٣؛ أش ١: ٢١؛ ٦٢: ٤-٥؛ إر ٢: ٢؛ ٣: ١). يُشكِّلُ نصُّ هوشع ١-٣، على الأرجح، المقطعَ الأهمّ بين كلِّ النّصوص المذكورة آنفًا، إذ إنّه يُعبِّرُ عن **الخبرة المُوجعة والأليمة لزواج النبيّ**، لأنّ زوجتَهُ جومَر لم تَكُنْ مُخلِصَةً له، وهي بالتّالي، أصبحتْ رمزًا لخيانة إسرائيل فيما يتعلَّق بالله. ففي هذا النّصِّ النَبَوِيِّ، تأتي العلاقةُ بين يهوه وإسرائيل مُمَثَّلةً بالاتّحاد

الزوجيّ، الَّذي فيه تَتَميَّزُ المرأةُ إسرائيل بعدم الإخلاص والأمانة وبملاحقتها البَعْليم (أي الآلهة الكاذبة). في هوشع ١: ٢-٣، تَتَمثَّلُ العلاقةُ بين الله وشعبه في حياة النبيِّ الزوجيّة، حيث ترمز زوجتُه الفاسقة إلى خيانة إسرائيل.

فبولسُ الرّسول وبحقٍّ قال في رسالته إلى أهل أفسس: "إنّ هذا السِّرَّ لعظيم، وأنا أقولُ هذا بالنسبةِ إلى المسيحِ والكنيسة" (أف ٥: ٣٢). في هذا المقطع، يُشيرُ الرّسولُ إلى السِّرِّ الأساسيِّ للكتاب المقدّس: **سرُّ العهد بين الله وشعبه**. من هذا العهد، بَقِيَ استعمالُ هذا الرّمز مستمِرًّا في الكتاب المقدّس، لِيَصِفَ الاتّحادَ بين الرجل والمرأة في الزّواج: الله هو العريسُ وإسرائيل عروسه (الَّتي غالبًا ما تُدعى "ابنةَ صهيون")؛ ثمّ، في العهد الجديد، أصبحَ المسيحُ العريس، بينما الكنيسةُ هي عروسُه: **فالكنيسةُ هي، في آنٍ معًا، عروسٌ وبتول** "لأنّي خَطَبْتُكُم لزوجٍ واحدٍ، خِطبةَ عذراءَ طاهرةٍ تُزَفُّ إلى المسيح" (٢كو ١١: ٢). من هنا نَستَطيعُ أن نقولَ بأنّ **مريمَ هي المرأةُ الفريدةُ في التّاريخ، الَّتي جَسَّدَتْ، في شخصيَّتها الفعليَّة، دورَ العروس، البتول والأُمّ**؛ وهذا هو السببُ الرئيسُ الَّذي يَجعَلُنا نؤكِّدُ بأنّ مريمَ هي الصورةُ المثاليَّةُ للكنيسة.

علاوةً على ذلك، فقد دعانا المجمعُ الفاتيكانيُّ الثّاني لِنَضَعَ العذراءَ مريم في نصِّ السِّرِّ الزواجيِّ للمسيح وللكنيسة. في العلاقة الزّوجيَّة هذه للعهد، لا تَقِفُ مريمُ في جانب الله أو المسيح، بل بقُرب الإنسان الشّريك في العهد: شعب الله. خلال فترة العهد الجديد، هي امرأةٌ، من الآنَ فصاعدًا،

ستُمثِّلُ بين كلِّ الخلائق، إسرائيلَ الله، ما قبل افتداء البشريَّة، وسيؤلِّهُها الله في ذاته. فمريمُ، مِن ثمَّ، أصبحتْ تُشخِّصُ شعبَ الله الَّذي كان إسرائيل، وقد أصبحتْ، بهذه الطريقة، صورةَ الكنيسة. وهذا هو السببُ الَّذي يَجعلُنا نَدعوها: **"مريم، الكنيسة الأولى"**. إنّ مريمَ تُجسِّدُ الدَّور الفريد الَّذي لَعِبَتْهُ "ابنةُ صهيون" (زك ٢: ١٤) في تاريخ الخلاص وفي سرِّ العهد. وبالفعل، فإنّ "سرَّ" مريم هو نورٌ للكنيسة كلِّها الَّتي هي أيقونتُها، وهي، في الوقت عينه، صورةً لكلِّ الَّذين أصبحوا، منذ مشهد الجمجمة (يو ١٩: ٢٥–٢٧) "أبناءَ" مريم، وبالتّالي، أصبحوا أبناءَ الكنيسة.

الجزءُ الثّاني

مريم، عَطِيَّةُ يسوعَ إلى الكنيسة (يو ١٩: ٢٧ب)

نرى، كأوَّل ملاحظةٍ على هذه الآية، أنّ هذا التِّلميذ الَّذي لُقِّبَ "بالتّلميذ الَّذي كان يسوعُ يُحِبُّه" (يو ١٣: ٢٣؛ ١٩: ٢٦؛ ٢١: ٧، ٢٠) يُجسِّدُ صورةَ التّلميذ المثاليّ والنّموذجيّ، صورةَ المؤمن الحقيقيِّ في المسيح، الَّذي تَقَبَّلَ الرّوحَ القدس. إنّ شخصيَّتَهُ تُشيرُ بكلِّ أبعادِها إلى أنّهُ رمزُ الأمانة والإخلاص للمعلِّم الإلهيّ. يبدو من العبارة **"ومنذ تلك السّاعة"** أي ساعة ارتفاع الابن، أنّ دورَ التِّلميذ كمؤتَمَنٍ على الإنجيل لا يَعرِفُ حدودًا ثابتةً، إذ إنّه سيَمتَدُّ حتّى "المجيء الثّاني ليسوع في آخر الأزمنة" (تُدعى هذه العبارةُ في اللغة اللاهوتيّة **"Παρουσία"**). من هنا نَستَطيعُ أن نَفهمَ ما قاله يسوع عن هذا التّلميذ في الإنجيلِ الرّابع: "... قالَ له (لبطرس) يسوع: لو شِئتُ أن

يَبقى إلى أن آتي، فما لكَ وذلك؟" (يو ٢١: ٢٢). فموضوعُ السّاعة في الإنجيل الرّابع هو موضوعٌ واسِعٌ للتَّعَمُّقِ والدراسة، ولكنّنا نُؤْثِرُ أن نتكلَّمَ ولو بشكلٍ مُقتَضَبٍ عن لاهوت السّاعة في الفكر اليوحنّاويّ: **إنّها تُفسِّرُ فِكرةَ الزّمن وتاريخ الخلاص من العهد القديم إلى الجديد، من إسرائيلَ إلى المسيح إلى الكنيسة، مُتَضَمِّنةً الفكرَ الدينيّ للزّمن والاسكاتولوجيّةَ اليوحنّاويّة.**

إنّ الإنسانَ يختبرُ العالمَ كطبيعة، أمّا الإنسانُ البيبليّ، النبيّ، فيختبره كتاريخ. الله دَخَلَ في حوارٍ مع الإنسان؛ صَنَعَ معه التّاريخ، أصبحَ هو نفسُه تاريخًا، وبالتّالي، يلتقي النّبيُّ اللهَ في التّاريخ. ففي الزّمن وفي التّاريخ، تَسيرُ دعوةُ الإنسان في الجدليَّة بين الزّمن والأبديّة، حيث يَنالُ الإنسانُ الحريّة. أمّا في الحقبة المسيحانيّة، فظَهَرَتْ فكرةُ نهاية الزّمن كبدايةٍ جديدة، تَتَطابَقُ بين أصل العالم وإعادة تجديده النّهائيّة: **إنّه زمنُ مُلك السّلام**. ثمّ جاءتْ حقبةُ قمران، وفيها تشخيصاتٌ وصُوَرٌ مميَّزةٌ لَفَتَتِ الانتباهَ بعنايةٍ إلى ثُنائيَّة "النّور والظُّلُمات" وإلى العبادة العمليَّة. وهذه الثُنائيَّةُ تَعكِسُ فكرةَ الزّمن، الَّذي يتضمَّنُ تارةً سيادةَ الشَّيطان، وتارةً أخرى، سيادةَ النّور. ففي الزّمن الَّذي يُسيطرُ فيه الشَّرّ، الظُّلُماتُ وأبناؤها الَّذين يَتَمَتَّعونَ بالقوَّة والاقتدار، سيأتي الزّمنُ الحاسمُ والنِّهائيّ، الزّمنُ الَّذي فيه يَسودُ البشرُ المُختارون، أبناءُ النّور والنَّهار. إنّ زمنَ سيادة الشّيطان حاضرٌ؛ سيأتي اليومُ والسّاعةُ المُتَوَقَّعةُ والثابتةُ من الله، الَّتي فيها تُقهَرُ سيادةُ الشَّرِّ وتُوْقَف. **سيبدأُ، بحكم الله في**

نهاية الزّمن، الزّمنُ الجديد، زمنُ سيادة الله، زمنُ الخير وزمنُ مُلك أبناء النّور، إذ إنّ العبادةَ هي مَن ستَختِمُ هذا الزّمن بحتم الحقّ والإيمان. من هنا، نَرى أنّ يوحنّا قدِ اعتَمَدَ على قمرانِ في الاستفادةِ من هذه الثُنائيَّةِ الَّتي حدَّدَها بدخول وحضور المسيح؛ لذلك، نُلاحِظُ أنّ هناك دَهرَين، قِسمَين للتّاريخ، يُساسُ الأوّلُ من روح الشَّرِّ ومن أبناءِ الظُّلُمات، بينما الآخر من أبناء النّور: "... والنُّورُ يُشرِقُ في الظُّلُمات، ولم تُدرِكْهُ الظُّلُمات" (يو ١: ٥)، "وإنَّما الدَّينونةُ هي أنّ النُّورَ جاءَ إلى العالم، ففضَّلَ النَّاسُ الظَّلامَ على النُّور" (يو ٣: ١٩). كما نَراه يستفيدُ من العقليَّة اللاهوتيَّة لقمران، بما يختصُّ بموضوع العبادة، وبخاصَّةٍ في الفصل الرّابع من الإنجيل، خلال حواره مع المرأة السَّامريَّة، الَّتي تَحَرَّرَتْ من قمران، بسبب الحداثة الَّتي وَجَدَتْها في شخص يسوع. ففيه [يسوع] اكتَشَفَتِ السَّامريَّةُ "ساعةَ" العبادة للآب في الرّوح والحقّ، والَّتي لم تَجِدْها في التَّقويم الليتورجيّ الجامد وفي الفروض التَّعَبُّدِيَّة، بل **في حضور يسوع الماسيّا وفي عَطِيَّة الرّوح القدس**. فشخصُ المسيح والكريستولوجيَّة، أصبحا يُعبِّرانِ عن جذريَّة الحَداثة ونقطة الانطلاق في إعداد فكرٍ جديدٍ عن الزّمن والتَّاريخ، هو الفكرُ اللاهوتيُّ والاسكاتولوجيّ. فمصطلحُ "السّاعة" بحسب اللاهوتِ اليوحنّاويِّ إذن، يرتَكِزُ على شخص المسيح ورسالته في لحظتها الحاسمة في الانتقال من هذا العالم إلى الآب والَّتي أَتَمَّها يسوع على الصَّليب، وهو بذلك يكونُ قد افتَتَحَ الزّمنَ الجديد، زمنَ الكنيسة الَّتي ما هي إلاّ امتدادٌ تاريخيٌّ وخلاصيٌّ له على الأرض.

"استقبَلَها التِّلميذُ في خاصَّتِه". فالفعلُ اليونانيّ **"Λαμβάνω"** يعني إمّا "يتسلّم، يتلقّى" أو أكثرَ دِقَّةً **"يَستقبل"**، بحيث يبدو أنّ هذا الأخيرَ يتطابَقُ أكثر مع روح النّصِّ الحالي. وهكذا، فإنّ المعنى الروحيّ للفعل اليونانيّ يُشيرُ إلى أنّ **التّلميذَ الحبيبَ قدِ استقبلَ الهِبَةَ السَّماويّةَ وتَقَبَّلَها، وهي حمايةُ أُمومةِ مريم**[٥٤].

لهذا الفعل استعمالانَ مُختَلِفان في الإنجيل الرّابع، هما:

١. الاستعمالُ الماديّ

إنّ هذا الفعلَ يُستَعمَلُ للدلالةِ على معنىً ماديٍّ محسوس، بحيث يكونُ المفعولُ به **"شيئًا ملموسًا"**، على سبيل المثال: **"فأَخَذَ** يسوعُ الأرغِفَة" (يو ٦: ١١)؛ مِثالٌ آخر يخصُّ هذا الاستعمال يَظهَرُ في مَشهدِ دفنِ يسوع: **"فأَخذوا** جُثمانَ يسوع" (يو ١٩: ٤٠).

٢. الاستعمالُ الروحيّ

إنّ اكتمالَ الفعلِ يُشيرُ إلى **"حقيقةٍ روحيّةٍ غيرِ ملموسةٍ حِسِّيًّا"** بكلِّ معنى الكلمة: **"إستَقبلوا** الرّوحَ القدس" (يو ٢٠: ٢٢)؛ مِثالٌ آخر يُشيرُ إلى الحقيقة عينها: "من مِلئِه **نِلنا** نعمةً على نعمة" (يو ١: ١٦). إنّ مُتَمِّمَ الفعل في كلِّ هذه الحالات، ليس "الشيءَ الملموس" ولا هو "الحقيقةُ الروحيّة" بل **"الشّخص"**: ففي كلِّ مقطعٍ من الكتابات اليوحنّاويَّة، يُؤكِّدُ يوحنّا على أنّ هذا الشّخص هو **شخصُ يسوع بكلمته، برسالته وشهادته.**

---

[٥٤] **المرجع نفسه**، ص١١١٢.

يربُطُ أيضًا يوحنّا هذا الفعلَ مع الفعل "يؤمن – **πιστεύω**": "جاءَ إلى بيتِه، فما **قَبِلَهُ "παρέλαβον"** أهلُ بيتِه. أمّا الَّذينَ **قَبِلوه "ἔλαβον"**، وهُمُ الَّذين **يؤمنونَ "πιστεύουσιν"** باسمه، فقد مَكَّنَهم أن يَصيروا أبناءَ الله" (يو ١: ١١-١٢). إذن، نَخلُصُ إلى القول إنّ هذا الفعلَ للتَّلاميذ يَدُلُّ على **التَقَبُّل الإيمانيّ لشخص المسيح: فهذا التَقَبُّلُ هو بدايةُ إيمانهم** (التّلاميذ) **فيه** (المسيح) **وانطلاقتُه.**

أمّا التَّعبيرُ **"εἰς τὰ ἴδια"** فإنّه قد يُشيرُ عمومًا إلى ما يَمتَلِكُهُ أحدٌ "مُلكِيَّة"، ولكنّه، قد يُشيرُ أيضًا إلى شخص، كما في الإنجيل الرابع، حيث يتكلّم يسوعُ عن الشّيطان: "... فإذا تكلَّم (أي إبليس) بالكذب تَكَلَّمَ **بما عندَه" (τῶν ἰδίων)** (يو ٨: ٤٤)؛ وعن العالم: "لو كُنتُم من العالم، لأَحَبَّ العالمُ **ما كانَ له" (τὸ ἴδιον)** (يو ١٥: ١٩). وبما أنّ النَّصَّ الحاليَ يُعالِجُ موضوعَ التِّلميذِ المِثاليِّ في الإيمان، فإنّ المعنى الأقربَ هو الَّذي يُشيرُ إلى **"إخلاصِه إلى الابن معلِّمِه الإلهيّ والتزامه بمشيئتِه"**، وإلى **"تخصيصِه الشخصيِّ من قِبَلِ الكلمة"** أيضًا. وهذا الاستعمالُ الأخيرُ للمصطَلحِ قد يوضَعُ في المقارنةِ مع استعماله في الحديث الوداعيِّ الأخيرِ ليسوع، حين قال: "ها هي ذي ساعةٌ آتية، بل قد أَتَتْ وفيها تَتَفرَّقون، فيذهبُ كلُّ واحِدٍ **في سبيلِهِ "εἰς τὰ ἴδια"** وتَترُكوني وحدي" (يو ١٦: ٣٢). بسبب عدم إيمانهم حقًّا بمعلِّمهم، استَسلمَ التَّلاميذُ إلى التَشَتُّت، ليس كلُّ واحِدٍ إلى بيته الخاصّ، بل كلُّ واحِدٍ إلى حياته الخاصّة: **إنّها حياةٌ مُنفَصِلَةٌ عن يسوع.**

على العكس من ذلك، فإنّنا نُلاحِظُ أنّ حياةَ التِّلميذ الحبيب مُتأصِّلَةٌ في **الاتِّحاد بيسوع**. من هنا، فإنّ "خاصَّتَه" الَّتي من خلالها سيَستَقبلُ التِّلميذُ أُمَّ يسوع تَبدو وكأنّها **مساحةُ الإيمان وغنى الوحي المُتَلَقَّى من السيِّد**. في اعتقادنا أنّ يوحنّا لم يَقصُدْ من وراء استعمال هذا التّعبير إظهارَ المعنى الماديّ له بقدر ما يَتوقُ إلى إبرازِ **بُعدِهِ الروحيّ** الكامن في **تَرسيخ علاقة المشاركة الجديدة** بين التّلميذ وأُمِّ يسوع وتوطيد أساساتها، إذ إنّ هذه العلاقة لا تَمُتُّ بصِلَةٍ إلى موقفٍ خارجيٍّ، بل تَتَخَطَّاهُ لتكونَ موقفًا داخليًّا، وبالتّالي، روحيًّا: إنّها **علاقةٌ روحيَّةٌ جَمَعَتْ الشّخصيَّتَينِ المتواجدَتَينِ تحت أقدام الصَّليب**. فالتّلميذُ الَّذي أَحبَّهُ يسوع فَهِمَ المعنى الأخيرَ للعمل المسيحانيِّ لمعلِّمه، فجاءتِ المبادرةُ من يسوع نفسه الَّذي قال: "هذه أُمُّك". **انفتاحُ التِّلميذ** على عطيَّة يسوع هذه، جَعَلَتْهُ يقومُ **بعملٍ إيمانيٍّ**، استقبلَ، منذ تلك السّاعة، المرأةَ الَّتي كانت حتّى هذه اللحظة أُمَّ يسوع، استقبلَها كأُمِّهِ الخاصَّة.

هذا التّعبيرُ يُوحي أيضًا بالعلاقة الصّميميَّة بين يسوع وخاصَّته، ودائمًا على الصّعيد الرّوحيّ، في المقطع الَّذي يتكلَّمُ فيه يوحنّا بعُمقٍ لاهوتيٍّ عن الرّاعي الصّالح، الَّذي يَدعو خرافَه **الخاصّة "τὰ ἴδια"** ويَعرِفُها (يو ١٠: ٣). من المؤكَّد أنّ هذا التّعبير لا يعني أنّ الرّاعي يدعو خرافَه إلى بيتٍ أو إلى حقلٍ، بل إنّها **علاقةٌ حميمةٌ بين يسوع وخاصَّته**، مُعَبَّرٌ عنها بصورة الرّاعي وخرافه.

خُلاصَةُ الكلام عن التّلميذ هي في القول إنّ هذا التّلميذ المقرَّبَ جدًّا من يسوع نالَ **"الخيراتِ الروحيّةَ"** الَّتي تُشكِّلُ **"حياةَ الإيمان"** بالنسبة له وقد تَقَبَّلَها من يسوع نفسه، من أعالي الصَّليب: كلمتُه، كَشفُه، حُبُّه... وأخيرًا، وَهَبَهُ الحنانَ الَّذي يَفوقُ كلَّ حنان، والدتَه الطّاهرة.

إنّ هذا المشهدَ يُقدِّمُ معنىً كاملاً مترابِطًا منطِقيًّا: فماضي إسرائيل، الممثَّلُ بأُمٍّ يسوع، يَفيضُ في الحاضرِ الرسالةَ الإنجيليّة، الممثَّلةَ بالتِّلميذ، والَّتي فيها سيتحقَّقُ الاكتمالُ حتّى نهايةِ الأزمنة. وعليه، فإنّنا نُلاحِظُ بعد كلِّ ما تقدّمَ عرضُه على بساطِ البحثِ في هذا القسم، أنّ مَشهدَ مريم والتّلميذ الحبيب يُركِّزُ الأنظارَ على **بُعده المسيحانيّ**، ويُلغي بالتّالي الفرضيَّةَ الَّتي تقولُ بأنّه مجرّدُ حالةٍ أدبيّةٍ لشفقةٍ بنويّة[٥٥] (أي أنّ يسوع أَشفَقَ على والدتِه المفجوعة، الَّتي ستُصبح وحيدةً بدونه، فسلَّمَها للتّلميذ الحبيب)؛ فالَّذي حدثَ بالتّالي بين هذه الشّخصيّات الثلاث (المصلوب، مريم والتّلميذ) يُعبِّرُ عن كشفٍ مُتَسامٍ لِحُبٍّ يسوعَ لخاصَّتِه، كشفٍ كان قد تَجَسَّدَ في مشهد غَسلِ الأرجُل **"**... وكان قد أَحَبَّ خاصَّتَهُ الَّذين في العالم، فبَلَغَ به الحبُّ لهم إلى أَقصى حُدودِه**"** (يو ١٣: ١).

---

[٥٥] **المرجع نفسه**، ص١١٠٥.

القسم الرابع

رثاءُ مريم لوحيدها عند أقدام الصّليب: قراءةٌ آبائيّة

هذا الجانبُ يَسلُكُ مسارَ اللاهوت الآبائيّ، الَّذي تَعَمَّقَ في تَبيان مشاعر العذراء الأموميّة تجاه وَلَدِها الوحيد المصلوب بين لِصَّين. **فأفرامُ السّريانيّ** يَكتُبُ كيف أنّ العذراءَ اقترَبَتْ من الصَّليب وتَكَلَّمَتْ إلى الرَّبّ، دون أن تَتَوقَّعَ إجابةً منه. إنّه **رِثاءٌ صامِت، وهو واحدٌ من المحاولات لكشف الجانب الإنسانيّ للسِّرِّ الخلاصيّ**.

أمّا **جاورجيوس النيقوذيميّ**، فيَكتُب: "مَن الَّذي يَقدِرُ إحصاءَ الأسهُمِ الَّتي اختَرَقَتْ قلبَ مريم في تلك اللحظة؟ مَن الَّذي سيَستَطيعُ أن يرويَ بكلماتٍ آلامَها، الَّتي تَتَجاوَزُ حدودَ الكلمات؟".

وفي الحوار بين والدة الله ويسوع عند الصَّليب، كَتَبَ **رومانوسُ المرنِّم**، أعظمُ مرنِّمٍ سوريٍّ في القرن السّادس الميلاديّ، أنّ والدةَ الله ناشَدَتْ ابنَها ليُوجِّهَ لها كلمةَ تعزيةٍ ومؤاساة: "خاطِبني بكلمةٍ، أيُّها الرَّبّ، لا تَعبُرْ أمامي في صمتٍ، أنتَ الَّذي صانَ طهارَتي، يا ابني وإلهي". ضمن الفقرة وثيقة الصِّلة بالموضوع نفسه، كَتَبَ **جاورجيوس النيقوذيميّ**: "وأنتَ، قُلْ شيئًا كتوديعٍ لأُمِّكَ... قُلْ كلمةً عذبةً، كلمةً تَهَبُ الحياة... لقدِ اختَرَقوا أطرافَ الَّذي حَفِظَ عفَّتي غير مُدنَّسة، ذاك الَّذي احتَفَظَ بدونِ شائبةٍ، بخَتمِ البتوليَّةِ والعفّة". يأتي جوابُ الرَّبِّ لأُمِّهِ أيضًا شبيهًا في نَصَّين: يكتُبُ **رومانوسُ** قائلاً: "سَكِّني، أُمَّاه، سكِّني حُزنَكِ:

مراثيكِ لا تليقُ بكِ، أنتِ الَّتي دُعيتِ الممتلئةَ نعمةً"؛ بينما في نصٍّ جاورجيوس، يُجيبُ يسوع: "هَدِّئي أُمَّاه من أحزانِكِ المُفرِطة، إدفَعي عنكِ أثقالَ الكآبةِ من قلبكِ، بواسطة عَظَمَةِ الصَّلاح".

الخاتمة

رأينا من خلال ما تمَّ عرضُه سابقًا، أنّ مشهدَ مريم والتّلميذِ الحبيب (يو ١٩: ٢٥-٢٧) لا تُمكِنُ قراءتُه كنَصٍّ مُنفرِدٍ عمّا قبلَه وما بعدَه من أحداثٍ خلاصيَّةٍ مرتبطةٍ بعضها مع بعض، إذ يتضمَّنُ تأسيسًا لأُمومةٍ جديدةٍ مُستَمَّدَةٍ من أُمومةِ مريم لابنها الكلمة الإلهيَّة المتجسِّد: إنّها **أُمومةٌ روحيّةٌ للكنيسة "عروس المسيح" و "شعب الله الجديد" المُخَلَّص والمُرمَّم بدم الحمل الإلهيّ**. فمريمُ الَّتي وَلَدَتِ المسيحَ المخلِّصَ ولادةً تُعجِزُ البيان، قد أصبحتْ، ومنذ الآن، أي انطلاقًا من مشهد الصَّليب، أُمًّا لجميع المؤمنين به، أي إنّ أُمومتَها قد انتقلَتْ من أُمومةٍ شخصيَّةٍ ليسوع إلى أُمومةٍ روحيَّةٍ للكنيسةِ جمعاء، الممثَّلةِ بالتِّلميذ الَّذي كان يسوع يُحِبُّه، وهو الوّاقِفُ إزاءَ الصَّليب، والشَّاهِدُ على هذه الأمورِ جميعًا والكاتِبُ لها. من هنا، فإنّنا نُدرِكُ أنّ مريمَ هي مُمثِّلَةُ جميع الَّذين يَبحثونَ عن الخلاص الحقيقيّ الَّذي هو المسيحُ يسوع، وهي المثالُ النموذجيُّ للكنيسة الحيَّة.

رأينا أيضًا ألقابَ مريم الَّتي مَرَّتْ في هذا البحث، وسنُلَّخِصُها على الشّكل التّالي:

١. **"المرأة"**:

كثيرٌ من الشُّرَّاحِ القُدَماءِ والجدُد، يرَونَ في مريمَ إشارةً إلى "المرأة"، حوّاء: "وسمّى الإنسانُ امرأتَه حوّاءَ لأنّها أُمُّ كلِّ حيّ" (تك ٣: ٢٠). فمريمُ هي، على الصَّعيد الروحيّ، أُمُّ كلِّ الأحياء، كلِّ المؤمنين بالمسيح.

٢. **"المرأةُ صهيون"** (العذراء صهيون)، **"ابنةُ صهيون"**، **"الأُمُّ صهيون"**

إنّ الأنبياءَ قد وَصَفُوا زمنَ الخلاصِ بمصطلحاتٍ رمزيّة. بعد السَّبي إلى بابل، عادَ أبناءُ إسرائيلَ المُشَتَّتونَ وبأعدادٍ كبيرة، وصَعِدوا إلى جبلِ صِهيون. هكذا، جُسِّدَتْ صهيونُ على أنّها مرأة، أُمٌّ تَدعو وتَستقبلُ في بيتِها أبناءَها الخاصِّين. في هذا **"البيت"** حيث الجميعُ يَجتَمِعون، قامَ شعبُ الله الجديد: "مَنِ الَّذي سَمِعَ بِمثلِ هذا، ومَنِ الَّذي رأى مِثلَ هذه؟ أَتُنتَجُ أرضٌ في يومٍ واحد، أن تُولَدُ أُمَّةٌ في مرَّةٍ واحدة؟ فإنّ صِهيونَ ما إنْ تَمَخَّضَت، حتّى وَلَدَتْ بَنيها" (أش ٦٦: ٨). إنّها إشارةٌ إلى **صهيونَ الاسكاتولوجيّةِ المُتَمثِّلةِ بامرأةٍ**، بأُمٍّ تَضَعُ في العالمِ جميعَ أبنائِها مرَّةً واحدةً.

النَّصُّ النبويُّ الأشعيائيُّ الآخر الَّذي نَوَدُّ الاستشهادَ به هو أشعيا ٦٠: ٤-٥: "إرفَعي عَينَيكِ إلى ما حَولَكِ وانظُري، كلُّهم **اجتَمَعوا** وأَتَوا إليكِ. بَنوكِ من بعيدٍ يأتون، وبناتُكِ يُحمَلنَ على الأكتاف": فجميعُ أبناءِ إسرائيلَ المشتَّتين والمَنفِيِّينَ عادوا واجتَمَعوا في صِهيون.

النَّصُّ الثّالثُ المُستَشهَدُ به هو من سفر المزامير ٨٦: ٥-٦، يقول: "الأُمُّ صهيونُ فيُقالُ فيها: "كلُّ إنسانٍ وُلِدَ فيها"والعَلِيُّ هو الَّذي ثَبَّتَها. الرَّبُّ يُدوِّنُ

في سجلِّ الشُّعوب أنّ فلانًا وُلِدَ فيها" (لقد أُضيفَتْ كلمةُ "الأُمّ" في الترجمةِ السّبعينيّة للكتابِ المقدّس). فبحسب التَّقليدِ النبويِّ للمسيحانيّة، فإنّ كلَّ أعضاء شعب الله الجديد مَولودونَ منها: إنّهم أبناءُ الأُمِّ صهيون. فعملُ "المرأة صهيون" جوهريًّا يكمنُ في **بُعدِهِ الأُمومِيّ**، الَّذي يقومُ على ولادةِ الأبناء، الَّذين سيُشكِّلونَ ولادةَ إسرائيل الجديد. من هذا المنظارِ نُدركُ كيف أنّ مريم تُجسِّدَ شخصيَّةَ "الأُمِّ صهيون" الَّتي ستَلِدُ أبناءً كُثْرًا للإيمان بيسوع المسيح "إسرائيل الجديد" شعب الله الاسكاتولوجيّ.

صورةٌ كتابيّة أخرى لمريم تكمن في إظهارها كممثِّلةٍ لشريحةٍ من إسرائيل منفتحين على الخلاص المسيحانيّ. فقبل عرس قانا الجليل، كان هناك انتباهٌ رُسِمَت معالمه مرارًا وتكرارًا، يُظهر إسرائيل في انتظاره للمسيح (يو ١: ٣١، ٤١، ٤٥، ٤٩)، بحيث إنّ فكرة انتظار إسرائيل لمسيحٍ ملكٍ تتكرَّر مرّةً أخرى عند دخول يسوع إلى أورشليم: "فحملوا سَعَفَ النّخل وخرجوا لاستقباله وهم يهتفون: هوشعنا! تبارك الآتي باسم الرّبّ، **ملكُ إسرائيل!**" (يو ١٢: ١٣). **فمقابل الَّذين يُمثِّلون اليهود غير المؤمنين بملكيّة المسيح** (يو ١٩: ٢١) **تظهر أُمُّ يسوع لتُمثِّلَ قسمًا من الشّعب العبريّ "الإسرائيليّين الحقيقيّين" المنفتحين على فكرة أنّ المسيح هو "ملك إسرائيل"**[٥٦].

[٥٦] Rudolf Sch., ***The Gospel according to John***, vol.3, p. 278-279.

٣. "الكنيسة"

فكما رأينا سابقًا، تَظهَرُ أُمُّ يسوع على أنّها رمزُ شعبِ الله الاسكاتولوجيّ وأيقونةُ الكنيسة، إذ إنّ "الكنيسةَ كلَّها مريميَّةٌ" بامتياز: فمريمُ أُمُّ السيِّد، رمزُ الكنيسة. أمّا **البابا بولس السّادس** فيَدعوها "مريمَ أُمَّ الكنيسة". إنّ مريم هي صورةُ الكنيسة وبدايتُها، وفي الوقت نفسه، نتيجةً لكونِها أصبحتْ أُمًّا للتِّلميذ الحبيب، فهذا يعني، أنّها أصبحتْ أُمَّ الكنيسة، أُمَّ جميع تلاميذ المسيح، أُمَّ جميع المؤمنين.

هذه هي أُمومةُ مريم الرّوحيّة والشموليّة: إنّها مريمُ في سرِّ الصّليب، إذ إنّ أُمومتَها الرّوحيّةَ هي ثَمَرَةُ الحُبِّ الَّذي بَلَغَ ذِروتَهُ عند أقدام الصّليب، من خلال مشاركتها الجوهريّة في حُبِّ الابن المُحرِّر.

Ο ΑΚΑΘΙΣΤΟΣ
ΥΜΝΟΣ
ΜΡ
ΘΥ

الفصل الثالث

الثيوطوكس[٥٧] مريم

في ميستاغوجيَّة[٥٨] الليتورجيَّا البيزنطيَّة

المقدّمة

إن لاهوتَ السيِّدة العذراء في الليتورجيَّة البيزنطيَّة، لهو لاهوتٌ يُعَبِّرُ بطريقةٍ ساميةٍ وبليغةٍ عن عَظَمَة مَن نَقِفُ خاشعينَ ومُنذهلينَ في حضرتها الإلهيَّة. فالليتورجيَّةُ ليستْ حجارةً صَمَّاءَ وعمياءَ، إنها حياةٌ تَفيضُ من ينابيع مَن تأمَّلَ وصَلَّى الكتابَ المقدَّسَ بكلِّ عُمقٍ، وغاصَ في رحابه،

---

[٥٧] كلمةٌ يونانيَّة تعني "والدةَ الله".

[٥٨] كلمةٌ يونانيَّةٌ أخرى تعني **"العمل الَّذي يقودُنا إلى السِّرّ أو العمل الَّذي يقودُنا السِّرُّ بموجبه"**. **فالميستاغوجيّةُ هي محاولةٌ للدّخولِ إلى السِّرِّ المحتَفَلِ به.** الآباءُ البارِزونَ مؤلِّفو الميستاغوجيّاتِ هم: كيرلّس الأورشليميّ، يوحنّا فم الذهب، ثيودوروس المبسوسطي ومكسيموس المعترف. لمزيدٍ من المعلومات حول الميستاغوجيّة، أنظر الملحق رقم (٦).

ناهِلاً منه ما يجولُ في قلبه من خواطِرَ ومشاعِرَ روحيَّةٍ عميقةٍ تجاهَ مَن وَلَدَتْ لنا الحياةَ ذاتَها. فنشيدُ الأكاثستوس لوالدة الله يَقَعُ في حدود هذه الرؤية الليتورجيَّة، إذ يؤسِّسُ الجوهرةَ المريميّةَ، لاهوتيًّا وروحيًّا وتاريخيًّا، في قلب الليتورجيَّة البيزنطيّة، الَّتي تُعطي اهتمامًا شديدًا باللاهوت المريميّ من خلال الدور الأسبوعيّ وصلاة المدائح الَّتي تُقام في الصَّوم الأربعينيّ المقدّس وصلاة الباراكليسي الَّتي تُقامُ في قطاعة السيّدة من الأول إلى الخامس عشر من شهر آب من كلّ عامّ.

فهو ليس نشيدًا عقائديًّا ولا دفاعًا عن الإيمان، إنّه نشيدٌ واحتفالٌ تسبيحيٌّ – ليتورجيٌّ يتمحورُ حول بُعدَين أساسيَّين مترابطَين: **كريستولوجيّ ومريميّ** يظهران ضمن أَوجُهٍ متعدِّدة إكليزيولوجيّة، أنثروبولوجيّة، تعليميَّةٍ ورعويَّة، إذ إنّ لاهوتَ الأكاثستوس ينطوي على ثلاثةِ أبعادٍ رئيسيَّة هي: اللاهوتُ العقائديّ والكتابيّ، اللاهوتُ الليتورجيِّ الأسراريّ واللاهوتُ الرّوحيّ.

ولا يَغفَلُ عن بالنا تأثيرُ المدرستَين اللاهوتيَّتَين الإسكندريَّة[٥٩] والإنطاكيَّة[٦٠] في ما يتعلّق بتفسير الكتاب المقدّس، من جهة، ولاهوت

---

[٥٩] ارتكزت مدرسةُ الإسكندريَّة في تفسيرها للكتاب المقدّس على **"الروحيَّةِ الرّمزيّة"** وعلى **"الفكر الأفلاطونيّ"**. لمزيدٍ من المعلومات، أنظر الملحق رقم (٧).

[٦٠] اعتَمَدَتْ مدرسةُ أنطاكية في تفسيرها للكتاب المقدّس على **"النَّظريَّة التَّاريخيَّة الحرفيّة"** (القراءة التيبولوجيّة). لمعلوماتٍ إضافيّة، أنظر الملحق رقم (٨).

الكنيسة وليتورجيّتها وعقيدتها، من جهةٍ أخرى. ولقد كان تأثير هاتَين المدرستَين واضحًا على فكر الآباء الكتابيّ[٦١]، الَّذي [أي الكتاب المقدّس] شكَّلَ دائمًا نقطة الانطلاق الأساسيَّة لفكر الآباء اللاهوتيّ، العقائديِّ والليتورجيّ. منه [الكتاب المقدّس] غَرَفَ الآباءُ من مَعينه الفيَّاض، تأمُّلاتٍ وكتاباتٍ روحيّة وأناشيدَ ليتورجيّة تُساوي الرملَ عدًّا، ومن خلاله عاشوا خبرةً إيمانيّةً صلبةً، جَعَلَتهم يتذوّقونَ حلاوة الإيمان الصّوفيّ للبلوغ إلى مرحلة **الثيوريّا**[٦٢]. نُدرِكُ بالتّالي أنّ نشيد الأكاثستوس ليس نشيدًا ليتورجيًّا فقط، إذ قد أُلِّفَ كاحتفالٍ تسبيحيٍّ وترنيميٍّ للعذراء مريم، بل هو أيضًا نشيدٌ آبائيٌّ

---

[٦١] **الملامحُ الأساسيَّة في التَّفسير الآبائيّ للكتاب المقدّس**: إنّ الآباءَ ومن خلال اهتمامهم بالجانب الروحيّ في كتاباتهم وتفاسيرهم، عَمَدوا إلى الوصول إلى هدفٍ سامٍ ألا وهو الدّخولُ إلى شركة الأمجاد في المسيح يسوع. لمعلوماتٍ إضافيّة، أنظر الملحق رقم (٩).

[٦٢] كلمةٌ يونانيَّةٌ **"Θεωρία"** وتعني **التأمُّلَ الروحيّ الهادِفَ إلى بلوغِ مرحلةِ رؤيةِ الله "**المشاهدة الرّوحيَّة**"**. إنّها هِبَةٌ من الرّوحِ القدس للَّذين يَحفَظونَ وصايا الله. وَفقًا للمدرسةِ الإسكندريَّة (أوريجانوس، اكليمنضوس الاسكندريّ وإيفاغريوس البنطيّ) فإنّ الثيوريّا تعني **"**معرفةَ الله**"** من خلال الخلقِ والأشياءِ المحسوسة والتّأمُّلِ فيها عقليًّا. هذه المعرفةُ وهذا التّأمُّلُ يقودانِ الإنسانَ إلى الاتّحادِ بالله. أمّا بحسب الفكر المدرسيِّ الكبّادوكيّ (باسيليوس الكبير، غريغوريوس النيصي وغريغوريوس النزينزي) فالثيوريّا هي **"اختبارُ الحقيقةِ المُطلَقة"** الَّتي تُحقَّقُ باكتمالِ الاتّحادِ بالله. إنّها الدخولُ في **"**غمامةِ المعرفة**"** الكامنةِ وراءَ الإدراكِ العقليّ والحِسِّيّ والَّتي، لا تُدرَكُ إلاّ في حُبِّ الله (الأغابي).

وبامتياز، إذ إنّ مؤلِّفَهُ قارئٌ متأمِّلٌ ومُصَلٍّ للكتاب المقدّس ومُتَبَحِّرٌ في لاهوته ورموزه.

فالله، ومن خلال الكتب المقدّسة والنبوءات، قد هَدَفَ إلى تحضير شعبه لاستقبال البُشرى الخلاصيّة، وذلك بواسطة الرّموز الَّتي تُنيرُ مسيرة الشَّعب رويدًا رويدًا إلى أن يبلُغَ ملءَ الزّمن. وحينَها لا يعودُ الرَّبُّ يتكلَّمُ بالرّموز، بل بالوسيط الوحيد بين الله والإنسان: الكلمة الإلهيَّة المتجسِّد. ودخولُ المسيح التَّاريخ البشريّ، والَّذي تمّ بواسطة العذراء مريم، قد حُضِّرَ له بواسطة رموزٍ أشارتْ إلى هذا الباب الملوكيِّ الَّذي سيَدخُلُ منه السَّيِّدُ إلى عالمنا وتاريخنا (حز ٤٤: ٢).

وقد وجد آباءُ الكنيسة القدّيسون – الَّذين تَمَيَّزوا بقراءتهم الصُّوفيَّة للكتاب المقدّس، أي التَّأمُّل بسرِّ الله الثّالوث – في هذا النّشيد عددًا كبيرًا من الرّموز والصُوَر في العهد القديم، دَلَّتْ على العذراء مريم، شَرَحوها تارةً بالنَّثر والشِّعر، وتارةً أخرى بالألحان الشجيَّة الملائكيّة، مُتَرَنِّمينَ بمزايا هذه المرأة الفريدة، الَّتي استطاعَ الله بطاعتها أن يُحقِّقَ ما تاقَ إليه، وهو أن يُعيدَ آدمَ إلى مجده الأوّل، إلى حالته الفِردوسيَّة الأولى، فيُلبسَه رداء المجد الإلهيّ، باعتبار أنّ مريم هي **المَسكِنُ الحيُّ الَّذي لم تَصنَعْهُ يدٌ بشريَّةٌ، بل هو من صُنع الله.**

القسم الأوّل

الأكاثستوس، تاريخ ولاهوت

١) هل تحتفلُ الأكاثستوسُ بعيدٍ مريميٍّ محدَّد؟

من المؤكَّدِ أنّ نشيدَ الأكاثستوس لم يؤلَّفْ للاحتفال بعيد البشارة فقط، إذ إنّ عيدَ أل ٢٥ من شهر آذار، أصبحَ عيدًا رسميًّا في بيئةٍ بيزنطيّة في أيّام جوستنيانوس، حوالي العام ٥٣٠م مع أنّه متأخِّرٌ عن تاريخ تأليفها، بالإضافة إلى أنّ مبنى النّشيد الاحتفاليّ يتعدّى صيغةَ البشارة ليتَّسِعَ لكلِّ الدّور الليتورجيِّ للميلاد، من البشارة إلى اللقاء "دخول السيّد إلى الهيكل"، على ضوء خلفيَّة أناجيل طفولة يسوع. إنّ عيدَ تهنئة العذراء الثيوطوكس يُحتفَلُ به في السّادس والعشرين من شهر كانون الأوّل، ابتداءً من أواخر القرن الرّابع الميلاديّ، وبلا شكٍّ، في زمن أفسس، ممّا يَعني أنّ مساحةَ النَّشيد تكمنُ في زمنٍ محدَّدٍ هو الاحتفالُ بميلاد السيِّد، وهي بكلِّ تأكيدٍ، لا تَشمَلُ أحداثًا أخرى، كالبشارة، الزيارة واللقاء. فالفرضيَّةُ ساريةُ المفعول هي أنّ الأكاثستوس (فالنِّظامُ الليتورجيّ القديم لدورِ الميلاد يتضمّن تحضيرًا للميلاد {من خلال بشارة مريم، الزيارة وتقديسِ المعمدان، الوحي إلى يوسف} واحتفالاً به {من خلال عبادة الرّعاة والمجوس}، وأيضًا تهنئةَ الثيوطوكس ثاني الميلاد وأخيرًا اللقاء بعد أربعين يومًا للميلاد) لا تحتفلُ بعيدٍ مريميٍّ محدَّدٍ، بل **بشموليّة سرِّ الأمِّ – البتول في سرِّ الابن المتجسِّد لأجل خلاصنا، السرِّ الَّذي يمتدُّ في**

الكنيسة في مسيرتها حتّى مجيء المسيح الثّاني المجيد في آخر الأزمان "Παρουσία" (مت ٢٤: ٣؛ ٢٧؛ ٣٧؛ ٣٩؛ ١كو ١: ٨؛ ١٥: ٢٣؛ ١تسا ٢: ١٩؛ ٣: ١٣؛ ٤: ١٥؛ ٥: ٢٣؛ ٢تسا ٢: ١، ٨؛ ٢بط ١: ١٦؛ ٣: ٤، ١٢؛ ١يو ٢: ٢٨). أمّا أعيادُ ميلادِ مريم ودخولِ البتولِ إلى قدسِ الأقداس، فجاءتْ بالاعتماد على تكريس كنيستَين مريميَّتَين في القدس؛ كما أنّ الكنيسةَ دَعَتِ السَّبتَ الَّذي قبل سبت لعازر من الصَّوم الأربعينيّ المقدّس بسبت الأكاثستوس؛ ولقد كانت الكنيسةُ تحتفلُ أيضًا في جمعةِ الفصح، بعيد البتول "ينبوع الفرح" أو ينبوع الماء الحيّ، إحياءً لذكرى تشييد المعبد المريميّ في القسطنطينيّة؛ وفي ١٨٤٤/٤/١ أدخلَ السَّعيدُ الذكر البطريركُ مكسيموس مظلوم "عيد زيارة والدة الإله لنسيبتها أليصابات" أيضًا في جمعة الفصح. نَستنتجُ ممّا تقدّم، أنّ الأكاثستوس تلعبُ دورًا ليتورجيًّا هامًّا في الدورَين الليتورجيَّين الميلاديّ والفصحيّ.

٢) هل الأكاثستوس نشيدٌ مريميّ أم هو نشيدٌ كريستولوجيّ؟

إنّ البيوتَ الاثنَي عشر المُنتهية باللازمة "افرحي يا عروسًا لا عروسَ لها" تتكلَّمُ، في الحقيقة، عن سرِّ مريم أمِّ الله، أي إنّها تحملُ طابعًا مريميًّا؛ أمّا البيوتُ الاثنا عشر الأخرى الّتي تَنتهي بِـ "هللويا"، فموضوعُها الرئيسُ هو السيِّد، أي إنّها تحملُ طابعًا كريستولوجيًّا. فالنّشيدُ هو بالتّأكيد نشيدٌ مريميٌّ، ولكنّه، في الوقت عينه، خاضِعٌ للمسيح. فمريمُ هي أيضًا خاضعةٌ للمسيح، وبالتّالي، فإنّ العقيدةَ المريميَّةَ هي أيضًا خاضعةٌ لتلكَ

الكريستولوجيَّة. من هنا، فإنّ حضورَ مريم المحتَفَلَ به في الأكاثستوس مُتَّصِلٌ بالمسيح: خاضعةٌ له وعاملةٌ فيه. وكما سنرى لاحقًا، في قسمَي الأكاثستوس، أنّ النَّشيدَ يضعُ للتَّأمُّل، في قسمِه الأوّل، **المسيحَ – التّاريخ** وفي قسمه التّالي، **المسيحَ – الإيمان**، وفي كلا القِسمَين، **البتولُ الثيوطوكس هي البتولُ – التّاريخ** كما ظهرَتْ في أناجيلِ الطفولة، **والبتولُ – الإيمان كما آمنتْ بها الكنيسة**، وكلّ ذلك يتأتّى من ارتباطِها واتّصالِها بابنِها الإلهيّ وخضوعها لتّدبيره الخلاصيِّ التّاريخيّ.

٣) مَن هو مؤلِّفُ الأكاثستوس؟

إنّ التَّقليدَ الكنسيَّ والسنكسارَ (الكتاب الَّذي يروي سِيَرَ القدّيسين والأعياد السيِّديَّة)، كملاحظةٍ أولى وأساسيَّة، لا يَلفِتانِ الأنظارَ إلى هُويَّةِ مؤلِّفِ النَّشيد، إذ إنّ المغزى الرئيسَ من النَّشيدِ لا يكمنُ في تركيزِ انتباهِ المؤمنين الكامل إلى المؤلِّف، بقدرِ ما هو إلى الأحداث التّاريخيَّة الَّتي رافقتِ النَّشيد، دون التَّغاضي عن المضمونِ اللاهوتيّ – العقائديّ – الكتابيّ والليتورجيّ لدور مريم التَّأسيسيّ في التّدبير الإلهيّ الَّذي اكتملَ في تاريخ الخلاص. هذه هي نقطةُ الانطلاق الرئيسيَّة، الَّتي من خلالها وُجِدَتْ بعضُ الفَرَضِيَّاتِ الَّتي تعزو نسبةَ النّشيد إلى مؤلِّفينَ كنسيِّينَ مشهورين في تاريخ الكنيسة بمركزهم وتأليفهم وأناشيدهم الليتورجيّة الَّتي ما زلنا نتغنّى بها في كنائسنا. **فالفَرَضِيَّةُ الأولى** تتَّجهُ نحو **البطريرك جرمانوس الأوّل**[٣] **بطريرك**

[٣] للإطّلاع على نبذة حياة البطريرك جرمانوس الأوّل، أنظر الملحق رقم (١٠).

القسطنطينيّة († ٧٣٣) وذلك استنادًا إلى عنوان بعض مخطوطات الترجمة اللاتينيّة (المؤرَّخة حوالي العام ٨٠٠م) للأسقف خريستوفورس، أسقف فينيسيا: **"نشيدٌ مقدَّسٌ إلهيٌّ لريمَ المُنتَصِرَة، للقدّيس جرمانوس بطريرك القسطنطينيّة"**. نُلاحِظُ أنّ أربعَ مخطوطاتٍ فقط تَدعمُ هذه النّظريّة. أمّا بعض المخطوطاتِ القديمةِ الَّتي تعودُ إلى القرن التّاسع الميلاديّ، فهي تَحذِفُ الاهتمامَ بتاريخيّةِ النّشيد وتؤسِّسُ صياغةً أخرى له. فالمقدّمةُ التّاريخيَّةُ لبعضِ هذه المخطوطات لا تتكلَّمُ بتاتًا عن تأليف الأكاثستوس، بل عن مرسومٍ بطريركيّ صادرٍ عنه، لترنيمها في يوم البشارة. كَتَبَ جرمانوسُ الكثير، إلاّ إنّ كتاباتِه الكثيرةَ ذهبَتْ خسارةً، إذ إنّ الإمبراطورَ ليون الثّالث حكمَ على كلٍّ أعمالِه بالحرق. نذكرُ منها: **(١) دراسات** عن آخر الحياة، المجامع المقدّسة، الهرطقات والبدع، تاريخ الكنيسة؛ **(٢) رسائل**: كتبَ أربعَ رسائل بارزةً بطولِها ومضمونها المتعلِّق بتصوّرات العبادة؛ **(٣) عظاتٌ مريميّة** تسعٌ منها مُثبَتَةٌ أصالتُها بكلِّ تأكيد، وهي تتمحورُ حول: حضور مريم في الهيكل؛ البشارة (عظة)؛ الانتقال **"الرُّقاد"**؛ تكريس معبدِ خَلكوبْرَتيا؛ الأكاثستوس؛ أجزاء من الحضور في الهيكل؛ تمجيد البتول. لقد تميَّزتْ عِظاتُ جرمانوس بطابعَين أساسيَّين هما: **(١)** أنّها غنيَّةٌ جدًّا بالاستشهادات الكتابيّة من العهدَين القديم والجديد والمراجع؛ **(٢)** أنّها ذاتُ طابعٍ رعويٍّ بارز، إذ إنّ جرمانوسَ يُشجِّعُ المؤمنين من خلالها على بناء جسور الثّقة والمحبّة نحو مريم. وعليه، فإنّنا نستطيعُ اختصارَ لاهوت جرمانوس المريميّ كالآتي:

١. **الأمومة الإلهيّة:** فعظاتُه ممتلئةٌ من الإعجابِ تجاه شخصِ مريم كنتيجةٍ لكِبَرِها (مكانتها رفيعة المستوى) وقداستِها. فأساسُ هذا كلِّه هو أمومتُها الإلهيَّة. إنّها **عرشُ الله، بيتُ مجده، السفينةُ المذهَّبةُ الَّتي تحوي المسيح**، وهي **الممتلئةُ نعمةً**.

٢. **الانتقال إلى السّماء:** فلقد أصبحت عقيدةُ انتقالِ مريم إلى السَّماءِ حقيقةً سهلةَ القبول في الكنيسةِ الشّرقيّة منذ القرن السّابع الميلاديّ. لقد استشهدَ البابا بيوس الثّاني عشر بجرمانوس في مرسومِه البابويّ الَّذي حَدَّدَ فيه عقيدةَ الانتقال. إنّ رؤيةَ جرمانوس لانتقالِ مريم إلى السّماء تنطلقُ من أنّ **مريمَ هي وسيطتُنا "شفيعتُنا" لدى الرَّبّ، وهي الَّتي حَمَلَتْ في أحشائها، مصدرَ الحياة والحياة الأبديّة الخالدة**.

٣. **الشفاعة السَّماويّة:** لقد دعا جرمانوسُ المؤمنين إلى العودةِ إلى مريم وإلى طلبِ مساعدتِها، حمايتِها وصلواتِها، لأنّ لشفاعتِها تأثيرًا على الخلاصِ الأبديّ. **من هنا نفهمُ السببَ الَّذي دعا بعض المؤرِّخينَ الكنسيِّينَ اعتمادَ فرضيَّة تأليف نشيد الأكاثستوس للبطريرك جرمانوس**.

الفرضيَّةُ الثَّانيةُ تَنسبُها إلى **البطريرك سرجيوس**[٦٤]، إلاّ أنّ مخطوطاتٍ قلّةً تَنسبُها إليه؛ بينما تَعزوها **الفرضيَّةُ الثالثة** إلى معاصره **جاورجيوس البيسيديّ**[٦٥]، إلاّ أنّ نِسبتَها له لا ترتكزُ على أساساتٍ تاريخيَّةٍ أو أدبيّةٍ.

---

[٦٤] للإطّلاع على نبذة حياة البطريرك سرجيوس، أنظر الملحق رقم (١١).

[٦٥] للإطّلاع على نبذة حياة جاورجيوس أسقف بيسيدية، أنظر الملحق رقم (١٢).

أمّا **الفرضيَّةُ الأخيرةُ والأقوى**، فهي الَّتي تَدعمُ فكرةَ أنّ **المرنِّمَ رومانوس**[٦٦] († ٥٣٠م) هو مؤلِّفُ نشيد الأكاثستوس، إذ إنّه قام بتأليف الكثير الكثير من "الأعياد الليتورجيّة"، كالميلاد، البشارة، ميلاد العذراء وأعياد القدّيسين والاحتفال بها، بالإضافة إلى الاحتفال بشخصيَّاتٍ وأحداثٍ تمّت في العهدَين القديم والجديد. إلاّ أنّ الواقعَ لا يبدو كذلك، إذ إنّ المخطوطاتِ القديمةَ (إذا لم تكن بعد سقوط القسطنطينيّة) لا تَحمِلُ اسمَ رومانوس كمؤلِّفٍ للأكاثستوس. فكلُّ نسبةٍ تُعزى إلى رومانوس المرنِّم تكونُ عاريةً من أيِّ أساسٍ لها، حتّى ولو كان رومانوس نفسُه قدِ استعملَ اللازمة "افرحي يا عروسًا لا عروسَ لها" (**"Χαῖρε, Νύμφη ἀνύμφευτε"**) كالأكاثستوس.

٤) فرضيّاتٌ حول تاريخيّة تأليف الأكاثستوس

إنّ هذا النّشيدَ قد وَصَلَ إلينا مجهولَ الاسم، حاملاً فقط عنوان "الأكاثستوس"، ويُرجَّحُ تاريخُ تأليفه بين أواخر القرن الخامس الميلاديّ وأوائل القرن السّادس الميلاديّ، التّاريخُ الَّذي شَهِدَ ازدهارَ "الأناشيدِ الطقسيَّة" للأعياد الليتورجيّة. لتحديد زمن تأليفها، تلعبُ المقاييس اللاهوتيَّة دورًا أكبرَ من المقاييس الليتورجيّة، لأنّ الأكاثستوس لا تُجاوِبُ موضوعَ أو صِيَغَ أيٍّ من الأعياد المريميّة في القرن السّادس، منذ الإمبراطور جوستنيان (إمبراطورٌ بيزنطيّ من ٥٢٧/٨/١م حتّى وفاتِه في ١٣ أو ٥٦٥/١١/١٤م)، كعيد

[٦٦] للإطّلاع على نبذة حياة القدّيس رومانوس المرنِّم، أنظر الملحق رقم (١٣).

البشارة، ميلاد مريم، تقدمتها إلى الهيكل وحضورها فيه... بقدر ما تُجاوِبُ على نحوٍ فريدٍ "عيدَ والدةِ الله" الَّذي بدأ يَنتَشِرُ في أواخر القرن الرّابع الميلاديّ، في محيط ميلاد السيّد. فالقياسُ الليتورجيُّ يَفتَرِضُ أنّ نشيد الأكاثستوس كُتِبَ قبل العام ٥٢٠ ميلاديّة.

من جهةٍ أخرى، يُلغي الاعتمادُ على عظة باسيليوس السلوقيّ († ٤٦٨) عن **"والدة الله"** فرضيَّةَ التَّأريخ السَّابق للأكاثستوس قبل مجمع خلقيدونية في العام ٤٥١م، إذ إنّه من المؤكَّد أنّ زمن تأليفها كان بعد مجمع خلقيدونية (٤٥١م)، وذلك لأنّ النّشيدَ متأثِّرٌ **بالمصطلحات الكريستولوجيّة الخلقيدونيّة**.

وعليه، فإنّ تاريخ تأليف النّشيد يتذبذبُ بين **النِّصف الثّاني من القرن الخامس الميلاديّ والعشر السنوات الأولى من القرن السّادس للميلاد**.

٥) كنيسةُ القسطنطينيّة، كنيسة الثيوطوكس بامتياز

لماذا تُكرِّسُ مدينةٌ لمريمَ والدةِ الله؟ لأنّ الكنيسةَ [المُقامةَ على صخرة المسيح، ودم الشّهداء القدِّيسينَ الأبرار، الَّذينَ جاهدوا الجهادَ الحَسَن في تقديم ذواتهم قربانةً حيَّةً تؤكَلُ في سبيل الدفاع عن إيمان الكنيسة] ومنذ الأجيال الأولى للمسيحيَّة تكرِّمُ العذراءَ مريم، مُعتَبِرةً إيَّاها **المثالَ الحياتيَّ الأعلى، لشعب الله في مسيرته نحو حَجِّه الأبديّ** (الرحلة المقدَّسة)، **وعلامةً أكيدةً للخلاص والتَّعزية**، مما جَعَلَ الجماعاتِ المسيحيَّةَ كلَّها على مختلف انتماءاتها، إلى التعلُّق بأُمِّ المسيح الإله والإنسان، فراحُوا يُعلُونَ لها المدائحَ والأناشيد، لِما

أدركُوا لها من دورٍ حيٍّ وفعَّالٍ في التّدبير الخلاصيّ. فصارتِ العذراءُ مريم، المثالَ الأوَّل لكلِّ مسيحيٍّ يَسعَى إلى اتِّباع المعلِّم الإلهيّ، وإلى سماع صوته العذب كما سَمِعَتْ هي، وإلى حِملِهِ في أعماق كيانه كما حَمَلَتْهُ هي، وإلى إعطائه للعالم كما فعلتْ هي.

إنطلاقًا من إيمان الكنيسة هذا، دعا **سفريانوس أسقف جبالة** († توفيَ في عهد الإمبراطور ثيودوسيوس الثّاني بين الأعوام ٤٠٨ – ٤٢٥م) في أواخر القرن الرّابع الميلاديّ وبدايات القرن الخامس الميلاديّ، كلَّ الشَّعب في القسطنطينيّة إلى العودة إلى مريم عند غزوات الأعداء كوسيلةٍ ذاتِ امتيازٍ لدى الرَّبِّ لقهر أعداء المسيحيِّين، كما تؤكِّده الليتورجيَّةُ البيزنطيّة في صلاة السَّاعة السَّادسة: "إذ ليس لنا دالَّةٌ من أجلِ خطايانا الكثيرة. فتضرَّعي أنتِ إلى الَّذي وُلِدَ منكِ. يا والدةَ الإله العذراء. **لأنّ طِلبةَ الأُمِّ لها قُوَّةٌ عظيمةٌ على استِعطافِ السيِّد**...". ولقد تَميَّزَ هذا الأسقفُ بلغته اللاهوتيَّة المريميّة البليغة من خلال: **(١)** استعمالِ المُصطَلح "ثيوطوكس" أيضًا في بيئة ومحيط الحضارة الأنطاكيّة؛ **(٢)** مظاهرِ التَّوقير والمَهابة تجاه مريم، "القدّيسة والبتولِ الكبيرة"؛ **(٣)** اللجوءِ إلى أُمِّ الله، ويُعتَبَرُ هذا الأسقفُ أوَّلَ من أعطى مريمَ تسميَة "**سيِّدتِنا**"كتسمية وساطةٍ وشفاعةٍ في أزمنةِ الكوارث والمخاطر والنّكبات. فشفاعةُ مريم السَّماويَّةُ لصالح الكنيسة في مسيرة حَجِّها، وقداستُها الكنسيَّة، تَضَعانِها بجانب صفِّ الرّسُل والشّهداء؛ **(٤)** التّأكيدِ على أنّ مريم موجودةٌ في مكانِ النّور، في أرضِ الأحياء، تَسمعُ أصواتَ التّسبيح والتَّمجيد وهي تَتَشَفَّعُ في المؤمنين أمام الرَّبِّ الديّان العادل.

نتيجةً لهذا الإيمان الكنسيِّ والشَّعبيّ، **كُرِّسَ كلُّ شعب القسطنطينيّة** (وربَّما كلُّ شعب الإمبراطوريَّة) **لوالدة الله "سيِّدتِنا"**. إنّ تكريسَ القسطنطينيّة لمريم، في التّفسير التّاريخيّ والليتورجيّ يَحفَظُ ذكرى تأسيس القسطنطينيّة[٦٧] كعاصمةٍ للإمبراطوريّة الرومانيّة في ١١ أيّار في العام ٣٣٠م.

بدأت مريمُ، في بدايات القرن الخامس الميلاديّ، تُعتبَرُ إشارةً للانتصار غيرَ مشكوكٍ فيها، وقد وُضِعَتْ أيقونتُها كرمزٍ على ثياب الجيش، وعلى العُملة البيزنطيَّة وعلى أبواب المدينة، وتأخذ دورَ المحامية الدّائمة عن الكنيسة بشقَّيها الكهنوتيّ والشعبيّ (كما نُرنِّمُ في الليتورجيَّةِ الإلهيَّة: "يا نصيرةَ المسيحيّين الَّتي لا تُخزى ووسيطتَهُمُ الدَّائمةَ لدى الخالق...") والمدينة والإمبراطوريّة، كما هو جَلِيٌّ في البيت الثّاني والعشرين من الأكاثستوس:

السلامُ عليكِ يا تاجًا كريمًا للملوكِ الأتقياء
السلامُ عليكِ يا فخرًا أثيلاً للكهنة الوَرِعين
السلامُ عليكِ يا بُرجَ الكنيسةِ الَّذي لا يَتَزَعزَع
السلامُ عليكِ يا سورَ المملكةِ الَّذي لا يُرام

---

[٦٧] اتَّخذتْ أسماءَ عدّة، منها: روما الجديدة الثّانية (ἡ Νέα, δευτέρα Ῥώμη)، روما الشرقيَّة، روما القسطنطينيّة، وروما الجديدة الَّذي يعودُ في أصلِه إلى الجدالِ الَّذي حَصَلَ بين الشرق والغرب، إثرَ الانشقاق الكبير خصوصًا، حيث استخدمَه الكتّابُ اليونان للفت الانتباه إلى المنافسة الحادة بين المدينة وروما "الأصليّة"، ولا يزال اسمُ "روما الجديدة" يُشكِّلُ جزءًا من الاسم الرسميِّ لبطريركيّة القسطنطينيّة. ثمّ أَطلَقَ عليها قسطنطينُ الأوّلُ الكبير اسمَه فدُعِيَتْ "قسطنطينوبوليس".

السلامُ عليكِ يا مَن بها تُرفَعُ شاراتُ الظَّفر

السلامُ عليكِ يا مَن بها تُدحَرُ الأعداء

يعودُ هذا الاهتمامُ إلى حدثٍ دينيٍّ مميَّز، حيث كان لمدينة القسطنطينيّة الافتخارُ بالحصول على ذخيرةٍ لمريم هو **ثوبُها الطّاهر**[٦٨]، الَّذي أُخِذَ من أورشليم، وأُحضِرَ إلى القسطنطينيّة، حيث وُضِعَ في معبد والدة الإله في **قصر الفلاخرني**[٦٩]، في العام ٤٥٨م، في عهد الإمبراطور لاون الأوّل التراقيّ (٤٥٧-٤٧٤م): "أيَّتُها النَّقيَّةُ الَّتي أنعمَ اللهُ عليها. لقد وَهَبتِ **لجميع المؤمنين** ثوبَكِ المقدّس. الَّذي ستَرتِ به جسدَكِ الطَّاهر. وشاحَ نقاءٍ. يا سِترًا عزيزًا للبشر.

---

[٦٨] **صلاةٌ مستَوحاةٌ من وضعِ "ثوبِ العذراء" في معبدِ الفلاخرني:** أيَّتُها السيِّدةُ الطّاهرة، الَّتي قدَّسَها اللهُ الآبُ واختارَها وجعلَها أهلاً لتجسُّدِ الكلمة. لقد جَعَلَكِ وبحقٍّ، اللهُ الكلمةُ المشاركُ الآبَ في الألوهيَّةِ، أُمًّا له بحسبِ الجسدِ الَّذي سكنَ فيه الرّوحُ القدس، الرّوحُ المعطي الحياة، الحافِظُ، بطريقةٍ نهائيَّةٍ لا تُلغى، نعمتَكِ لمدينتِكِ، الَّتي، مِن الآنَ فصاعدًا، لن تستطيعَ العينُ البشريَّةُ رؤيةَ التَّجديفِ على الكنيسةِ الإلهيَّةِ أو على خرابِ هذه المدينةِ الَّتي هي خادمتُكِ. وهكذا، يعلمُ كلُّ بربريٍّ يَحوكُ مؤامرةً عِدائيَّةً ضدّ مدينتِكِ، أنّ المدينةَ مُحَصَّنَةٌ بقوّتِكِ وقدرتِكِ الإلهيَّة. أعطِ سلامًا ثابتًا لكلِّ قاطنيها، مُبعِدَةً عنهم وعنها كلَّ فِتنةٍ أهليَّة. حرِّريها، أيَّتُها السيّدة، من الجوعِ والوباء، من النّارِ والزلزالِ ومن كلِّ لعنةٍ أخرى. أعطي أباطرتَنا المسيحيِّينَ حُكمًا طويلاً وسلاميًّا؛ احفظي لسنينَ كثيرة بطريركَنا الَّذي يُنيرُ الشَّعبَ ويُنيرُنا جميعًا. امنحي استحقاقاتِ خيراتِكِ للأحياءِ والأموات، لأنَّكِ أنتِ مصدرُ الحياةِ وكنزُ الخلاص، بالمسيح الإله المتجسِّد والمولودِ منكِ. آمين.

[٦٩] لمعلوماتٍ حول معبد الفلاخرني، راجع الملحق رقم (١٤).

فنُعيِّدُ لوضعِهِ بحُبٍّ. ونَصرُخُ نحوَكِ بإيمانٍ هاتفين: السَّلامُ عليكِ أيَّتُها البتولُ الجليلة. فخرُ المسيحيّين".

وبعد فترةٍ زمنيّةٍ متأخّرة، اكتُشِفَ زُنّارُ العذراء في عهد الإمبراطور يوستنيانوس (٥٢٧-٥٦٥م) ووُضِعَ في كنيسة خَلكُوبَرْتِيَّا، الَّتي أُطلِقَ عليها أيضًا اسمَ "كنيسة الصّندوق المقدّس": "يا والدةَ الإله. إنّ زُنَّارَكِ الكريم. الَّذي أحاطَ ببطنِكِ القابلِ الإله. هو **لمدينتِكِ** عِزٌّ لا يُغلَب. وكنزُ خيراتٍ لا يَنفَد. أيَّتُها الوالدة. الدَّائمةُ البتوليَّةِ وحدَكِ".

لقد أصبحَتْ هذه الذخائرُ موضوعَ تكريمٍ مُطلقٍ غيرِ محدود وعربونَ حمايةِ مريمَ للمدينة وضمانَها من تهديدات الفرس، البرابرة والعرب؛ فالقدّيسةُ أمُّ الله هي، في الحقيقة، الحِصنُ المنيعُ للدّفاع عن القسطنطينيّة ونُصرتُها. فكثيرةٌ هي الكنائسُ والأيقوناتُ والعظاتُ المكرَّسةُ لمريمَ الثيوطوكس، الَّتي رأى الأباطرةُ والبطاركةُ والشَّعبُ كلُّه فيها الملجأَ الأمين بعد الله، واختبروا ذلك في مناسباتٍ عديدة، من خلال ما كتبوهُ من أناشيدَ ليتورجيَّة، أذكرُ منها مثلاً ما جاءَ في صلاة غروب الآحاد باللحن الأول: "لِنُنشِدْ لِمَريمَ البتول. والدةِ السَّيِّد. مَجدِ العالمِ كُلِّهِ. المَولودةِ من نَسلٍ بشريّ. البابِ السَّماويّ. مِدحَةِ الَّذينَ لا جَسَدَ لهم. جمالِ المؤمنين. فإنها أَضحَتْ سَماءً وهَيكلاً للاَّهوت. ونَقَضَتْ حاجِزَ العداوة. وجَلَبَتِ السَّلامَ عِوَضاً عنه. وفَتَحَتِ الملكوت. **فهي لنا مِرساةٌ للإيمان. والرَّبُّ مَولودُها عاضِدٌ لنا. فَتَشَجَّعِ الآن. تشجَّعْ يا شَعبَ الله. لأنهُ يُقاتِلُ أعداءَنا. بما أنهُ على كلِّ شيءٍ قدير**".

٦) أحداثٌ عجائبيَّةٌ مُذهِلَةٌ رافقت الأكاثستوس

"أيَّتُها القائدةُ الَّتي لا تُقهَر، إليكِ أُرنِّمُ النَّصر، أنا مدينتُكِ، المنقذةُ من المخاطر، أُكرِّسُ لكِ أيَّتُها الثوطوكس نشيدَ شكرٍ، أنتِ الَّتي تَملِكينَ قدرةً لا تُغلَب، خلِّصيني مِن كلِّ نوعٍ من المخاطر، لأنّي سأصرخُ إليكِ: السَّلامُ عليكِ، يا عروسًا لا عروسَ لها". تَختَصِرُ هذه التّرنيمةُ (المنسوبةُ من التّرجمة اللاتينيّة لجرمانوس القسطنطينيّ) كلَّ الأحداث المُذهلة الَّتي قامت على يدَيِ البتول الثيوطوكس في حمايتها الوالديّة لعاصمة الإمبراطوريّة البيزنطيّة القسطنطينيّة. فهي تَدُلُّ بشكلٍ إيمانيٍّ عميقٍ على وساطة مريم وقدرتها الإلهيَّة في حماية جميع المُلتَجِئينَ إلى كنفها بإيمانٍ.

تتوجَّهُ أنظارُ الباحثينَ في تاريخيَّة هذا النّشيد إلى فترة حصار مدينة الله العظمى القسطنطينيّة على يد البرابرة والفرس وتحريرها المُذهِل في العام ٦٢٦م في عهد البطريرك سرجيوس († ٦٣٨م) الَّذي بَقِيَ في المدينة (مخطوطاتٌ قلّة تُشيرُ إلى أنّ الكاتب هو البطريرك سرجيوس) والإمبراطور هرقليوس الَّذي كان في تلك اللحظةِ بعيدًا عن العاصمة. يَروي السنكسارُ كيف أنّ شعب القسطنطينيّة كلَّه ومصفَّها الإكليروسيّ رتَّلوا، وهم مُنتَصِبونَ على أقدامهم (لأجل هذا السبب بالتَّحديد، نُلاحظُ أنّ الشَّعب لا يجلسُ بتاتًا حين يُرنِّمُ الأكاثستوس إلى يومنا الحاضر. لذلك يُقالُ له "النَّشيد الَّذي لا يُجلَسُ فيه")، لليلةٍ كاملة نشيد الأكاثستوس، للبتول الطّاهرة أُمِّ الكلمة، كعربون شكرٍ على تَدَخُّلِها في تحرير مدينتهم من الغُزاة. ويستمرّ السنكسارُ في وصف الحدثَين المُذهلَين الآخرَين اللَّذين رافقا تحرير القسطنطينيّة من

العرب بتدخُّل البتول الثيوطوكس: الحدثُ الأوّل تمّ في عهد قسطنطين الرّابع (٦٧٧-٦٧٨م)، يليه الحدثُ الثّاني الَّذي تمّ في عهد "ليون الثّالث" (٧١٧-٧١٨م).

فقد روى المتقدّم بين الكهنة في كنيسة القسطنطينيّة **ثيوذورس**[٧٠] كيف أنّ مريمَ تدخَّلَتْ لإحباط غزوتَين بربريَّتَين، الأولى في العام ٦١٩م، والثّانية في العام ٦٢٦م، وكأنّها هي مَن حاربتْ بنفسها في المعركة لصالح الإمبراطور المسيحيّ. وبعد حوالي القرن، روى **جرمانوس القسطنطينيّ** كيف أنّ مريم لحبِّها الأموميِّ للمؤمنين ولشفاعتها المُقتدِرَة بجانب الابن، استطاعَتْ أن تُحرِزَ نَصرًا استثنائيًّا للقسطنطينيّة ولكلِّ الإمبراطوريَّة على الأعراب، ومن المُرجَّح أن يكون التّاريخ هو الخامس عشر من شهر آب، عيد رقاد السيِّدة.

ففي عظةٍ له موضوعها حصار العرب للقسطنطينيّة، وهزيمتهم المنسوبة أيضًا إلى العذراء مريم، رَبَطَ البطريرك جرمانوس († ٧٣٣م) الأحداث العجائبيَّة الَّتي أجرَتْها مريم للقسطنطينيّة، بقصّة شعب إسرائيل عند خروجه من مصر بقيادة موسى وحادثة غرق خيل فرعون ومراكبه وفرسانه في البحر على يد الرّبّ المُقتدرة، وكيف أنّ مريم أخته [موسى] الَّتي هي رمزٌ للبتول، أعلنَتْ للإسرائيليِّينَ خلاصَهم بإنشادها نشيدَ الشّكر

[٧٠] لمعلوماتٍ حول ثيوذورس، أنظر الملحق رقم (١٥).

والتّعظيم لله (خر ١٥: ١٩-٢١)، ليُظهِرَ كيف أنّ **مريم هي العصا الّتي في يد المسيح**، تَضرِبُ وتُبيدُ أسطول وجيشَ الأعداء، وذلك في العام ٧١٨م.

٧) مواضيعُ تجاهلَها مؤلِّفُ الأكاثستوس

لقد تجاهل النّشيد الكلام عن روايات طفولة مريم، الّتي بدأتْ بالظّهور في بدايات القرن الثّاني الميلاديّ مع الآباء اليونان وبخاصّةٍ أوريجانوس: حبل حنّة العجيب بمريم، ميلادها حامل الفرح، دخولها وسَكَنها في هيكل الرَّبّ... كلُّ هذه المواضيع الأبوكريفيّة[٧١] جاءت متماسكةً في **القرن السّادس الميلاديّ**، حين قامتْ بعضُ كنائس القدس بتكريس هذه الأحداث، بالإضافةِ إلى تأسيس عيد ميلاد السيّدة، يليهِ دخولُها إلى قدس الأقداس، وفيما بعد حبلُ حنّة. ومن المعلومِ أنّ رومانوس ألَّفَ قنداقًا خاصًّا لعيد ميلاد السيّدة، مُطّلِعًا على طفولة مريم من زاوية الإعلان الإلهيّ للوالدَين الطّاعنَين في السّنّ. من هنا، نؤكِّدُ أنّ الأكاثستوس لم تتبعْ الخطَّ الأبوكريفيّ على مثال رومانوس، ممّا يُشكِّلُ سببًا وجيهًا في عدم نسبتها إليه، بل اتَّبَعَتْ

---

[٧١] كلمة يونانيّة "ἀπόκρυφος" تعني **"أخبأ وحجب"**. إلاّ أنّ التّقليد في العربيّة درج على استعمال لفظة "منحول" ولو لم يكم هذا الاستعمال صحيحًا. إنّ من بين الكتابات المنحولة ما ينطوي على عناصرَ لاهوتيَّةٍ وروحيَّةٍ تقويَّةٍ جديرةٍ بالثّقة، لا سيّما في ما يتعلّق بموضوع العذراء، بيد أنّها لم تجد محلاً لها في مجموعة الأسفار المقدّسة القانونيّة، إذ قد انسلّت إليها أساطير وروايات عجائبيّة يستثقل فهمُها، فلم تَعُدْ في مجملها جديرةً بالثّقة كالأسفار القانونيّة.

منهجيَّة الاسكندريّة وكبّاذوكيا الَّلذين يُركِّزان على الحياة البتوليّة لمريم. لا ذِكرَ أبدًا لنهاية حياة مريم الأرضيّة. فإنّه وبلا شكّ، أنّ زمن كتابة الأكاثستوس يتماشى مع ظهور فكرة الرّقاد في بعض الكتب الأبوكريفيّة. **فأبيفانيوس**، في **أواخر القرن الرّابع** الميلاديّ، تكلَّمَ عن النّهاية الممجَّدة لوالدة الإله الدّائمة البتوليّة. الأمرُ الوحيدُ المؤكَّد هو التّالي: أنّ مريم في السَّماء، بجانب الابن، وهي تعيشُ في أرض النّور والأحياء، لأنّها **أمُّ النّور الحقيقيّ ونَبعُهُ**، وأيضًا **أُمُّ الخلاص**، وهي بالتّالي، قادرةٌ على سماع التّسابيح والطَلِبات لكلِّ المتوجِّهينَ إليها، وهي تتمتَّعُ بسلطةٍ وقدرةٍ أموميّةٍ، تجعلُها أعلى مرتبةً من الرّسل والشّهداء. يدعمُ هذا الموقف كلٌّ من **سفريانوس أسقف جبالة وباسيليوس السلوقيّ الَّلذين يريان أنّ شفاعة البتول تمتدُّ من اليوم على الأرض وحتّى آخر يومٍ من تاريخ البشريّة**.

حين أعطى **إسحقُ الأورشليميّ** († ٤٥١م)، معاصرُ أفسس، موعِظَتَهُ عن أمِّ الله في الخامس عشر من شهر آب، لم يكن هذا التّاريخُ مكرَّسًا للانتقال بعد. حوالي العام ٤٥٠م شُيِّدَتْ أوّلُ كنيسةٍ دُعِيَتْ "قبرَ مريم" في الجسمانيّة؛ ثمّ جاءَ جوستنيانوس (إمبراطورٌ بيزنطيّ من ٥٢٧/٨/١م حتّى وفاتِه في ١٣ أو ٥٦٥/١١/١٤م) فنشرَهُ وأغناه. من هذا المنطلق، لا آثارَ للانتقال في نشيد الأكاثستوس. لا مواضيعَ أخرى أَتَتْ مع التّطوّر اللاحق، كاشتراك الأمّ في حياة ابنها وآلامه، إذ لا ذكرَ حتّى لقداسةٍ شخصيّة ما عدا البتوليّة والأمومة الإلهيّة.

هذا فيما يخصّ الأعيادَ المريميّةَ الليترجيّة. أمّا ما يختصّ بمواضيع الكتاب المقدّس (الَّذي سنراه لاحقًا المنبعَ الأوّل للأكاثستوس)، فلقد استثنى المؤلِّفُ ذكرَ مريم في جماعة الرسل بحسب نصٍّ لوقا: "وكانوا يواظبونَ جميعًا على الصَّلاة بقلبٍ واحد، مع بعضِ النِّسوةِ ومريمَ أُمِّ يسوع ومع إخوتِه" (أع ١: ١٤)؛ واستثنى أيضًا ذكرَ حضور أُمِّ يسوع في عرس قانا الجليل (يو ٢: ١-١١) وتحت الصَّليب (يو ١٩: ٢٥-٢٧): نصوصٌ كتابيَّةٌ هامّةٌ جدًّا من أجل فهمٍ عميقٍ لسرِّ مريم: فكثيرٌ من آباء الكنيسة كأوريجانوس والتّقليد الأوريجانيّ، باسيليوس الكبير وكيرلّس الاسكندريّ، سلَّطوا الأنوارَ على تفسير **"السَّيف"** الَّذي سيَنفَذ إلى نفس البتول في آلام الابن.

علاوةً على ذلك، وفي زمن جوستنيانوس، أَلَّفَ رومانوسُ المرنِّمُ قنداقَين ساطعَين: الأول لعرس قانا الجليل، والثّاني للأُمِّ الَّتي تَصعَدُ إلى موضع الجُمجُمة "الَّذي صُلِبَ فيه الرَّبُّ يسوع المسيح" مع يسوع حيث بَقِيَتْ مُنتَصِبَةً بقرب الصَّليب، تُمعِنُ نظرَها الأموميّ بابنها المصلوب والإيمانيّ بربِّها المخلِّص [وهنا يَطرحُ السؤالُ نفسَه: إذا كان رومانوس المرنِّم هو مؤلِّفُ الأكاثستوس، فكيف له أن يبقى صامتًا في نشيده عن لحظةٍ هي الأكثرُ تعبيرًا وقوّةً في تاريخ الإنسانيّة، الصَّليب؟].

بالإضافة إلى كلِّ ما ذُكِرَ سابقًا، **ترتبطُ الأكاثستوسُ** ارتباطًا لا يَعتريه تَشَوُّشٌ **بالفصح**، إذ إنّها لا تحتفلُ فقط بذكرى الأُمِّ المشتركة في آلام ابنها، بل تُعنَى بإظهار أيضًا أنّ أمومتها الإلهيَّة تَجدُ استمراريَّتَها وكمالها في السرِّ الفصحيّ الَّذي يَهدِفُ إلى إعادة ولادتنا وتوجيه خَطِّ رحلتنا الأرضيّة نحو

الفصح الأبديّ. لم يذكرْ كاتبُ النّشيد أيضًا شيئًا عن الأحداث الَّتي تمّتْ في حياة يسوع العلنيّة وتمحورتْ حول موضوع الأُمّ:

- حدث كفرناحوم المذكور في الأناجيل الإزائيّة (مت ١٢: ٤٦-٥٠؛ مر ٣: ٣١-٣٥؛ لو ٨: ١٩-٢١).
- هُتافُ المرأة المجهولة وجوابُ يسوع (لو ١١: ٢٧-٢٨).

يستثني النَّشيدُ بعضَ أحداثٍ من إنجيل الطفولة (مت ١-٢؛ لو ١-٢)، الَّذي يؤسِّسُ موضوعَ القسم الأوّل من النّشيد، كالتَّمجيد أو التَّعظيم "Magnificat"؛ في تقدمة يسوع إلى الهيكل، لا يأتي على ذكر نبوءة سمعان (لو ٢: ٣٣-٣٥) أو ابتهاج حنّة النبيّة (لو ٢: ٣٦-٣٨)، الَّلذين وجدا رواجًا واسعًا في عِظات ما قبل خلقيدونية؛ لم يُشِرْ أيضًا إلى ضياع يسوع في الهيكل واسترجاعه من قِبَلِ والدَيه (لو ٢: ٣٩-٥٢)، بالإضافة إلى حياته في الخفاء لثلاثين عامًا في بيت النّاصرة.

في نفس رواية البشارة الَّتي تَشغَلُ أربعةَ أبياتٍ (١-٤)، لا يتطرّقُ المؤلِّفُ إلى تعبير "الممتلئة نعمةً" (لو ١: ٢٨) أو إلى جواب مريم "ها أنا أَمَةُ للرّبّ، فليكن لي بحسب قولك" (لو ١: ٣٨)؛ بالتّوازي، في مشهد الزيارة الَّتي تُشكِّلُ موضوع البيت الخامس، لا يأخذ المؤلِّفُ بعين الاعتبار ابتهاج أليصابات أو سعادة مريم الإيمانيّة: "طوبى للَّتي آمنت..." (لو ١: ٤٥) إذ **إنّ المُسبِّبَ الأساسيَّ لحبلها البتوليّ بالكلمة هو "الإيمان"**. من هنا يُتَّضحُ أنّ **مؤلِّفَ الأكاثستوس يتعمَّقُ في سرد أحداث سرِّ التجسُّد الإلهيّ ليتورجيًّا**

أكثر منه بيبليًّا، إذ إنّه يُسلِّطُ الأضواء على النّصوص الإنجيليّة الَّتي تُعلِنُها الكنيسة في الزّمن الليتورجيّ للدّور الميلاديّ.

٨) الأكاثستوس، قراءةٌ تحليليّةٌ ورمزيَّة

- **التّناقضُ الظّاهِرُ** في المصطلحات التّاليّة (البيتان ١ و ١٣): النّاصرة – عدن، مريم – حوّاء، الخلق – الخلق الجديد والسّقوط – المصالحة.

- **النّاصرة وبيت إيل** (البيتان ٣ و١٥):

إنّ هذين المشهدَين الكتابيّين يَختَصِران مريم على أنّها **بيتُ الله وبابُ السّماء: ففي النّاصرة**، تسألُ البتولُ الملاك: "كيفَ يكونُ هذا، وأنا لا أَعرِفُ رجلاً؟" (لو ١: ٣٤). تَظهَرُ مريم في هذا المشهد أنّها تَجهَلُ السرَّ الإلهيّ، ولكنّها، في الوقت نفسه، ترغبُ في معرفته وانكشافه أمامَها. فكانَ جوابُ الملاكِ أنْ كَشَفَ لها **"الكيف"** من خلال التجسُّد الإلهيّ (أي أنّ الله سيأخذ حشا مريم مسكِنًا فخمًا له بتأَنْسُنِه)؛ و**في بيت إيل**، أبصرَ يعقوبُ في حُلمه سُلَّمًا سماويَّةً، رأى فيها كاتبُ الأكاثستوس رمزًا إلى مريم السُلَّمِ الحيِّ الرُّوحيِّ الَّذي نزلَ عليه العليُّ ليَظهرَ على الأرض ويتحدّثَ مع النّاس، بتعابيرَ أخرى، إنّها السُلَّمُ الَّتي من خلالها أصبح اللامنظورُ منظورًا واتَّحدَ السَّماويُّ بالأرضيّ: "وحَلَمَ حُلمًا، فإذا **سُلَّمٌ** مُنتَصِبٌ على الأرض ورأسُه يُلامِسُ السَّماء، وإذا ملائكةُ الله صاعِدونَ نازِلونَ عليه، وإذا الرَّبُّ واقِفٌ بالقُربِ من يعقوب، فقال: "أنا الرَّبُّ إلهُ إبراهيمَ أبيكَ وإلهُ إسحق. إنّ الأرضَ الَّتي أنتَ نائِمٌ عليها... فاستَيقَظَ يعقوبُ من نومِه وقال: "حقًّا، إنّ الرَّبَّ في هذا المكان، وأنا لا

أعلَم". فخافَ وقال: "ما أرهَبَ هذا المكان! ما هذا إلاّ **بيتُ الله!** هذا **بابُ السَّماء"** (تك ٢٨: ١٢-١٧).

- **مشهدُ الزّيارة، مدرسةُ الحكمة في أثينا ومدرسةُ يسوع على بحيرة طبريّا**

(البيتان ٥ و ١٧):

يكمنُ التّرابطُ بين البيتَين المذكورَين في الشخصيَّتَين زكريَّا وأليصابات، بالتّطابُقِ مع الأثينائيّين وصيَّادي الجليل (البيت ١٧)؛ بينما يُلمِّحُ مشهدُ الزّيارة إلى شخصيَّة زكريّا الَّذي بَقِيَ "أخرسَ" بسبب عدم إيمانه، إذ أراد، على نحوٍ غير ملائم، معرفةَ **"كيف"** لعمل الرَّبّ بتفكيرٍ وبمنطقٍ بشريٍّ محض: "بأيَّةِ طريقةٍ [كيف] أعرِفُ هذا وأنا شيخٌ كبير، وامرأتي طاعنةٌ في السِّنّ؟" (لو ١: ١٨). وفي موقفٍ متناغِمٍ مع زكريَّا، يَقِفُ الحكماءُ الفضوليُّون، لأنّهم يُريدونَ زَجَّ (إدخال) الأحداث الإلهيَّة في منظومة المنطق البشريّ العاجز والمحدود. لذلك أصبحوا كالأسماك البُكم أمام أعجوبة العذراء – الأمّ!

على الجهة الأخرى، يَنتصِبُ يوحنّا المعمدان وكذلك أليصابات أمّه وصيّادو الجليل، وقد تَقَبَّلوا بفرحِ النّعمة، أعلَنوا تَقَبُّلَهم الفَرِحَ لكلمةِ الله، وأصبحوا بالتّالي، الحكماءَ الحقيقيِّينَ المُتَبَحِّرينَ في أسرار الله: "... فأجابَهم: لأنّكم أُعطيتُم أنتم أن تَعرِفوا أسرارَ ملكوتِ الله، وأمّا أولئكَ فلم يُعطَوا ذلك" (مت ١٣: ١١). لأجل ذلك كلِّه، أضحتِ العذراءُ "إناءَ حكمةِ الله"، و"خزانةَ عنايتِه الإلهيَّة" وهي مَن تَنتَشِلُ المؤمنين من الجهالة إلى معرفة الله.

- **درجاتُ القداسة في الكنيسة** (البيتان ٧ و ١٩):

يَضَعُ (البيت ٧) رعاةَ بيت ساحور كخلفيَّةٍ للرّسُلِ والشّهداء الَّذينَ يُشكِّلونَ قمَّةَ القداسة الكنسيَّة حتّى يومنا هذا (لقد أُعطِيَتْ مريمُ المكانةَ الأولى في القرن الخامس فقط)؛ بينما يَحتَفِلُ (البيت ١٩) بالعذارى اللواتي أُعطينَ المكانةَ الثّالثةَ في هرميَّة القداسة في الكنيسة، ابتداءً من القرن الرّابع الميلاديّ. وهكذا تَبقى "الكنيسةُ الواحدةُ والمقدّسة" القاسمَ المشتركَ الَّذي يربطُ البيتَين ٧ و ١٩.

- **المجوسُ وقبولُ المسيح** (البيتان ٩ و ٢١):

يَتبَعُ هذان البيتان المنهجيَّةَ المجازيَّةَ والرّمزيَّة في قراءتِهما وتحليلِهما. فالمجوسُ (البيت ٩) الَّذين وجدوا المسيح في بيت لحم وقدّموا السّجود له، يُجسِّدونَ جميع القابعين في الظّلمة وظلال الموت، الَّذينَ أقبَلوا نحو النّور الحقيقيّ بواسطة **النّجم**. وقد رأى كاتبُ الأكاثستوس في **مريم ذاك النّجم الَّذي يقودُ الجميع إلى معرفة الإله الحقيقيّ وهو متوهِّجٌ بالفرح**. فالبيتان المذكوران آنفًا يُشيران ضمنيًّا إلى مرحلتَين مقدَّستَين طَبَعَتا بدايات المسيحيّة، هما: **(١) رفضُ الشَّيطان**، عبادتُه وأباطيلُه، وإعلانُ إيمان المعموديَّة (البيت ٩)؛ **(٢) مرحلةُ الاغتسال** الخاصّة بالمعموديَّة وما يَتبَعُهُ من **الوليمة الافخارستيّة** في ليلة الفصح (البيت ٢١)، حيث تَقودُ مريمُ المسيحيّين، مرةً أخرى، إلى عِلم الله ومعرفته، جاذِبَةً إيَّاهم إلى نور المسيح.

- **مريمُ وبعضُ الأحداث الكتابيَّة** (البيتان ١١ و٢٣):

يَصِفُ البيت ١١ مسيرةَ انتصار الشَّعب المُفتَدى من عبوديَّة مصر عبر البحر الأحمر نحو أرض الميعاد؛ بينما يُظهِرُ البيت ٢٣ مريم على أنّها **سفينةُ الله**، في مسيرتها المُنتصِرة نحو الحصول على السَّماء.

٩) موضوع الأكاثستوس الجوهريّ

نَستَشِفُّ إذن ممّا تقدّم أنّ مواضيعَ النّشيد تتمحورُ حول **العقيدة المريميّة الَّتي أعلنَها مجمع أفسس في العام ٤٣١م: مريمُ في سرّ الكلمة المتجسِّد**. فسرُّ الكلمة المتجسِّد، من وُجهة النَّظر الشرقيَّة الَّتي نادى بها إيريناوس، هو التَّعبيرُ الأخير الَّذي يُشكِّلُ دعوةَ الإنسان: **تأليه الإنسان في الله الكلمة المتأنسِن**. فالتجسُّدُ ليس محطّةً أو مرحلةً عابرة، إذ إنّه الأساس الَّذي يَختَصِرُ كلَّ تدبير الخلاص: إنّه حدثٌ تاريخيّ وسرٌّ يتجاوزُ التَّاريخ، عملٌ تمّ في الزّمن وهو، في الوقت نفسه، وراء متناول الزّمن (خارج الزّمن)، فعلٌ يَملِكُ فاعليّةً ديناميكيّةً في العالم حتّى يَصِلَ إلى ملئه وكماله.

إنّ مناسبة تأليف النّشيد لا تكمنُ في الاحتفال بعيدٍ مريميٍّ من الرزنامة الليتورجيّة (أو التَّقويم الليتورجيّ)، بل إنّ **والدةَ الله هي الشخصيَّةُ المركزيّةُ الحاضرةُ والعامِلةُ في الحياة الكنسيَّة**، انطلاقًا من خبرة المجمعَين المقدَّسَين المسكونيَّين وآباء الكنيسة اللاهوتيِّين، الَّذين رأَوا في **مريم صورةً للخلاص الأبديّ**، على مثال الأكاثستوس.

القسم الثاني
ينابيعُ الأكاتستوس

١) الكتاب المقدّس

يقول اللاهوتيُّ الكبير **هانس بالتازار** واصفًا شخصيّة مريم الكتابيّة: "عندَ تلاقي كلّ الطُرُقِ الآتيةِ من العهدِ القديم نحو العهد الجديد، يوجد اختِبارُ مريمَ لحياةِ الله، إختِبارٌ غنيٌّ ومُختَفٍ، وبالكاد نستطيعُ أن نَصِفَهُ. لكنّه اختِبارٌ مهم إلى درجة أنّهُ يَظهرُ دومًا كأنّه عمقٌ لكلّ شيءٍ يتراءى لنا. فيها تنتقِلُ صهيونُ إلى الكنيسة، والكلمةُ إلى الجسد، والرأسُ إلى الجسم. إنها في الواقع مكانُ البحبوحة الفائضة"[٧٢].

إنّ المصدرَ الأوّلَ الَّذي تَعتَمِدُ عليه الأكاتستوس في خطوطها اللاهوتيَّة العريضة هو **الكتابُ المقدّس**، وهذا واضحٌ في القسم الأول (البيوت ١-١٢)، حيث يتبعُ النَّشيدُ مشهدَ إنجيل طفولة يسوع: بشارة مريم، الزّيارة، الوحي ليوسف، عبادة الرّعاة، عبادة المجوس، الهرب إلى مصر، اللقاء مع سمعان؛ وفي خطٍّ مشابه، الاستعمال الواضح لبعض المواضيع والشّخصيَّات الكتابيَّة ذات الطّابع الرمزيّ، الَّتي ميَّزَتِ العهدَين القديمَ والجديد بإعلاناتها المريميّة: **(١)** مواضيع التّكوين: الفِردوس الأرضيّ، شجرة الحياة، الخطيئة وعقاب آدم وحوّاء، سُلَّم يعقوب؛ **(٢)** مواضيع الخروج: الخروج

[٧٢] Hans Urs Von Balthazar, ***Light of the word***, p. 30-34.

من مصر، عبور البحر الأحمر، مسيرة الشَّعب نحو أرض الميعاد، خيمة الرَّبِّ الَّتي ترمزُ إلى حضوره في وسط شعبه؛ **(٣)** موضوع نشيد الأناشيد: العروس (راجع أيضًا رؤ ١٩ و٢١)؛ **(٤)** مواضيع مختلفة من أشعيا (٧: ١٤) وحزقيال (٤٤: ١-٢).

يَرتَكِزُ النَّشيدُ بأكمله تاليًا على ثلاث كلماتٍ أساسيَّة حاضرةٍ في فكر وذِهن الكتابِ المقدّس ولاهوتِه، هي:

١. **"إفرحي – Χαῖρε"** (لو ١: ٢٨):

قبل الشّروع في تبيان مفهوم هذا المصطلح في الأكاثستوس، لا بدّ من إبراز مفهومه انطلاقًا من مصدره الرئيس، الكتاب المقدّس، وبخاصّةٍ إنجيل لوقا ١: ٢٨. فالمصطلح يظهر دائمًا في الترجمة السّبعينيّة[٧٣] في سياقٍ حيث

[٧٣] تُشكِّل الترجمة السّبعينيّة لقاء العالم اليونانيّ الأوّل مع وحي العهد القديم. فلقد كتب ديمتريوس الفاليريّ، مدير مكتبة الاسكندريّة، رسالةً إلى ملك مصر بطليموس الثّاني فيلاذلفوس (٢٨٥-٢٤٧ ق.م) يطالبه فيها بوضع الشّريعة اليهوديّة في المكتبة الملكيّة، ولكن، بعد ترجمتها إلى اللغة اليونانيّة. فقام الملك بإرسال مبعوثين إلى أورشليم للقاء ألعازر عظيم الأحبار آنذاك لمعرفة رأيه. فكان أن أرسل **اثنين وسبعين حاخامًا يهوديًّا إلى الاسكندريّة**، يمثِّلون أسباط إسرائيل الاثني عشر، حيث قاموا بترجمة الشّريعة في **اثنين وسبعين يومًا**، وكان ديمتريوس يُدوِّن النّصّ بصيغته المتَّفق عليها. وهذا هو سبب تسميّتها بالسّبعينيّة. فلقد جعلت هذه الترجمة اليهودَ الَّذين يعيشون الشّتات اليونانيّ، قادرين على قراءة الكتب المقدّسة في لغتهم المألوفة، وفتحت الفرصة أمام غير اليهود لدراسة

تُدعى صهيون إلى الفرح المسيحانيّ في منظور المستقبل (يو ٢: ٢١-٢٣؛ صف ٣: ١٤؛ زك ٩: ٩). يستعمل الملاك في بشارة مريم المصطلح ذاتَه الَّذي وظَّفه الأنبياء لدعوة صهيون الاسكاتولوجيّة إلى الفرح بالخلاص الَّذي منحه الله لها. وعليه، فإنّ **مريم هي المدينة الجديدة لحضور الله** بدلاً من صهيون القديمة، وهي، في الوقت نفسه، **المسكنُ الإسكاتولوجيّ لحضور الله في وسط شعبه** بدلاً من خيمة الاجتماع القديمة. إفرحي، أنتِ [مريم]، يا صهيون الجديدة، أورشليم الإلهيّة، المدينة المقدّسة من الله، الملك العظيم: في مساكنكِ يُعرف الله نفسُه: إنّها [مريم أمّ الربّ]، في الحقيقة، المدينةُ العظيمة، إنّها صهيون الروحيّة (تعود نفسُ الصّورة في نهاية كتاب الرؤيا ٢١: ٩-١٠). وبالتّالي، فإنّ **المسكن الإلهيّ لم يَعُدْ ضمن أسوار صهيون والمدينة العظيمة أورشليم، بل أصبح في رَحِم مريم**.

بعد هذه النبذة المختصرة عن المصطلح "إفرحي" في الكتاب المقدّس، نعود إلى الأكاثستوس لنجدَ أنّ هذا المصطلح ذُكِرَ "مئةً وستًّا وخمسين" مرّةً في إعلانات النَّشيد كلِّها. إنّها كلمةُ التَّحيَّة المنقولة من الملاك، والَّتي افتَتَحَتْ بدورها روايةَ البشارة (لو ١: ٢٦). إنّها، وبحسب النّصِّ اليونانيّ، تُشيرُ إلى الفرح؛ أمّا في اللغة السريانيّة والآراميّة فإنّها تعني "السَّلامُ عليك". لقد بَقِيَ هذا التَّعبيرُ يدلّ على السَّلام الأكثر شيوعًا

العهد القديم (راجع أع ٨: ٢٦-٤٠). ضِف إلى ذلك، أنّها أصحبت الكتاب المقدّس للمسيحيّين في القرون الأولى.

واستعمالاً في التّقليد اللاهوتيّ والليتورجيّ البيزنطيّ. يكتسِبُ هذا السّلامُ أهميَّةً استثنائيّةً إذ سلامٌ نازِلٌ من السّماء على فم الملاك مُرسل الله، وهو في الوقت نفسه، غيرُ موجَّهٍ إلى أيَّة خليقة، بل إلى المرأة الَّتي ستَحمِلُ اللهَ في مُستَودعها البتوليّ.

علاوةً على ذلك، فإنّ هذا السَّلامَ يحمِلُ طابَعَ الاستمراريّة: الفرح وليس الفرحَ الاعتياديّ الطّبيعيّ، بلِ الفرحَ المسيحانيّ ذا المنحى الخلاصيّ. من المنظور التّاريخيّ – الخلاصيّ للآباءِ اليونان، يتَّخِذُ الفرحُ منحًى ملموسًا ومحسوسًا للتَّجديد المقدَّم من الله للعالم البشريّ: إنّه ظهورُ الفداء والتّرميم في العمل. فاللحظةُ الَّتي حَمَلَ فيها الملاكُ بشرى الفرح للبتول، هي اللحظةُ نفسُها الَّتي صارتْ فيها البتولُ أُمَّ الخالق، حيث تحوّلَ الفرحُ ليكونَ ميزةَ الخلاص النّهائيِّ للبشريَّة السّاقطة في حوّاء العاصية؛ والمقارنةُ هنا لا تكمنُ فقط بين حوّاء جالبة الحزن والألم للبشريّة المنفيّة ومريم مُسبِّبة الفرح الخلاصيّ للبشريّة المفداة، بل وأيضًا بين العالم القديم والعالم الجديد، بين حالة ولادة البشر (تك ٣: ١٦) وولادتِنا نحن الجديدة في الرَّبّ (يو ٣: ٣، ٥...).

باختصار، **مريمُ هي العرشُ الملكيُّ للكلمة، والنَّجمةُ الَّتي عجَّلَتْ في إشراق الشمس من رَحِمِها** (مز ١٠٩: ٣)، **مُعلِنَةً بدءَ الخليقة الجديدة في المسيح يسوع**: "... أَوَتَجهلونَ أنَّنا، وقدِ اعتَمَدنا جميعًا في يسوع المسيح، إنَّما اعتَمَدنا في موتِه، فدُفِنَّا معه في موتِه بالمعموديَّة لِنَحيا نحن أيضًا **حياةً جديدةً** كما أُقيمَ المسيحُ من بين الأموات بمجدِ الآب؟" (رو ٦: ٣-٤)؛ "فإذا كان أَحَدٌ في المسيح، فإنَّه **خلقٌ جديد**، قد زالتِ الأشياءُ القديمة وها قد جاءتْ أشياءُ جديدة" (٢كو ٥: ١٧)...

٢. **"هللويا – Ἀλληλούϊα"** (رؤ ١٩: ١، ٣، ٤، ٦؛ إنّها العنوانُ لعشرينَ مزمورًا وخاتمةُ المزمور الأخير "١٥٠"):

ذُكِرَ هذا المصطلحُ "اثنَتي عشرة" مرّةً في النّشيد. إنّ تعبيرٌ عن الفرح، إذ إنّ العبارة العبريّة تعني "هلِّل وسبِّح واحمَد الرّبّ"، بالاعتراف له على كلِّ ما صنعه لشعبه. وترتبط هذه الفكرة بالاحتفال بحدث الفصح، إذ إنّ اليهود يرنِّمون عشية العيد أل "هلِّل" وهو رمزٌ للفداء والخلاص.

٣. **"العروس الَّتي لا عريسَ لها"** (نشيد الأناشيد؛ رؤ ١٩: ٦–٨؛ ٢١: ٢، ٩):

ذُكِرَ هذا التَّعبيرُ "اثنتي عشرة" مرّةً في النّشيد في نهاية القسم المريميّ. يَرِدُ هذا التّعبيرُ كثيرًا في كتب العهد القديم، وغالبًا ليُشدِّدَ على عهد الله "العريس" مع شعبه المختار "العروس". نكتفي بذكر نصٍّ أشعيا ٦١–٦٢ وهوشع ٢، علاوةً على سفر نشيد الأناشيد الَّذي يُشكِّلُ قصيدةَ حبٍّ بين العريس والعروس.

أمّا في العهد الجديد، فيَرِدُ معنى العرس الإلهيّ على لسان يوحنّا المعمدان في سياق كلامه عن يسوع وعن جماعته – كنيسته، يقول: "مَن كانت له **العروس** فهو **العريس**. وأمّا صديقُ العريس، الَّذي يَقِفُ يستمِعُ إليه، فإنّه **يفرحُ** أشدَّ **الفرح** لصوتِ العريس، فهوذا **فرحي** قد تمّ" (يو ٣: ٢٩)؛ وما قالَه بولس في رسالته إلى أهل أفسس، واصفًا سرَّ الاتِّحاد بين المسيح/العريس والكنيسة/العروس: "... إنّ هذا السِّرَّ لعظيم، وأنّي أقول هذا في أمر المسيح والكنيسة" (أف ٥: ٣٢).

إنّ التَّعبيرَ الأكثرَ عمقًا يكمنُ في **رؤيا ١٩: ٧ " ἡ γυνὴ αὐτοῦ "** (أي **"عروسه"** – عروس الحمل –) والَّذي يَتكرَّرُ، بطريقةٍ مماثلة في **رؤيا ٢١: ٩ " τὴν νύμφην τὴν γυναῖκα τοῦ ἀρνίου "** (أي **"العروس، امرأة الحمل"**)، ممّا يدلُّ على أنّ مؤلِّفَ الأكاثستوس يرغبُ في إظهار مريمَ "عروس الحمل البتول"، المدينة المقدّسة، أورشليمَ السَّماويّة، الأيقونةَ الإسكاتولوجيّة للكنيسة "شعب الله" في مسيرتها نحو الوطن الأمّ.

فالبتولُ الأرضيّة "مريم"، كما يُقدِّمُها مؤلِّفُ الأكاثستوس، **لم تَعرِفْ خبرةً زوجيّة، بل هي بتولٌ – أمٌّ للكلمةِ المتجسِّد، وهذا ما يجعلُ منها صورةً ورمزًا إسكاتولوجيًّا للكنيسة عروس الحمل**، مُشارًا إليها باكتمال المخطَّطِ الخلاصيّ، الَّذي ابتدأَ بالبشارة مرورًا بتجسُّدِ العمّانوئيل "الله معنا" وصولاً إلى ذورته بعد الانتصار الفصحيّ لكلِّ المختارين (رؤيا ٢١: ٢–٣).

يبدو أنّ مؤلِّفَ الأكاثستوس قد بنى في نظرته اللاهوتيَّة، على العدد "١٢" الَّذي يُشكِّلُ في رمزيَّته عددًا كتابيًّا وكنسيًّا بامتياز، وعَنوَنَهُ كنموذجٍ حيٍّ للاهوت المريميّ بالاعتماد على كريستولوجيَّة مجمع خلقيدونية (الَّذي سنتكلَّمُ عنه لاحقًا) والأدب الكتابيِّ الرؤيويّ، على الشَّكل التَّالي:

١. كريستولوجيَّة خلقيدونية

إذا ما تعمَّقنا جيِّدًا في تحليل العدد "١٢"، فإنّنا نَجِدُ أنّه مكوَّنٌ من عددَين هامَّين جدًّا في لاهوتِ رمزيّة الأعداد في التَّقليدِ الكنسيّ، هما: العدد

"١" والعدد "٢". فالعددُ "٢" يرمزُ إلى **طبيعتَي** الكلمة المتجسِّد، الإلهيَّة والإنسانيّة؛ بينما العدد "١" يرمزُ إلى **وَحدة** هاتَين الطَّبيعتين في **شخص** الكلمة المتجسّد، دون انفصالٍ أو تجزئة[٧٤]، لأنّنا نؤمِنُ بوحدانيَّة شخص المسيح الإنسانيَّة والإلهيَّة (كريستولوجيَّة مجمع خلقيدونية ٤٥١/١٠/٢٢).

بيد أنّ ثمّة سؤالاً يطرح ذاتَه علينا: ما هو مفهوم عبارة "كريستولوجيا" في اللاهوت العقائديّ والإكليزيولوجيّ (الكنسيّ) انطلاقًا من فكر الآباء القدّيسين في المجامع المسكونيّة الثلاثة الأولى، من خلال القرارات المجمعيّة الَّتي عبَّرت بوضوحٍ عن تعليم الكنيسة العقائديّ حول شخص يسوع المسيح منذ القرون الأولى وتمحورت حول سرّ المسيح:

أ. مجمع نيقية (٣٢٥م)

عُقِد هذا المجمع للردّ على البدع والهرطقات الَّتي كانت سائدةً في تلك الحقبة التّاريخيّة، نذكر منها:

مذهب التبنّي الَّذي لأجل "رغبته في المحافظة على وَحدانيّة الله علّم أنّ المسيح وُلِدَ ونما مثل سائر الناس، وأنّ الله الآب قد جعل منه ابنه، نظرًا لأفعاله"[٧٥]. إنّ هذا المذهب يدّعي إذن أنّ يسوع لم يكن إلهًا، بل تبنّاه الله فأصبح إلهًا.

---

[٧٤] E. M. Toniolo, ***Numeri e simboli...***, p. 286.

[٧٥] مجموعة باحثين، **تاريخ الفكر المسيحيّ**، ص٢٨٤.

مذهب آريوس[٧٦] الّذي لم يشكّ في إنسانيّة يسوع، إنما شكّ في ألوهيّة المسيح وذلك لشدّة إيمانه بتسامي الله وتعاليه. فالكلمة، على حسب بدعة آريوس، ليس أزليًّا على غرار الله الآب، ولكنّه استمدّ الوجود قبل الزّمن مباشرةً من الله الآب، بخلاف كلّ الخلائق، مع أنّه ليس هو من جوهر الله. وفي هذا الإطار ردّ المجمع المذكور بوضع الجزء الأوّل من قانون الإيمان: "نؤمن بإلهٍ واحد... وبربٍّ واحدٍ يسوع المسيح، ابن الله، المولود الوحيد من الآب، أي من جوهر الآب...". وبناءً على ما صدر، طهّر المجمع المفاهيمَ اللاهوتيّة من التفلسف الَّذي وقعت فيه بدعة آريوس. مع الإشارة إلى أنّ حركة نيقية هي تصاعديّة أي تنطلق من يسوع الإنسان إلى يسوع الإله.

ب. مجمع أفسس (٤٣١م)

إنّ محوره تمركز حول وحدة الألوهيّة والإنسانيّة في شخص يسوع المسيح. ويأتي لاهوته تنازليًّا، إذ ينطلق من ألوهيّة المسيح الّتي أقرّها مجمع نيقية السّابق ويتساءل عن كيفيّة الاتّحاد بين الطّبيعتين، مع أنّه لم يشكّ في ألوهيّة المسيح ولا في إنسانيّته. وقد طرح هذا التساؤل نسطوريوس الإنطاكي[٧٧] ، بطريرك القسطنطينيّة، إضافةً إلى أنّه رأى في يسوع المسيح

---

[٧٦] **آريوس:** كاهن من كنيسة الإسكندريّة، من أصلٍ ليبيّ، وُلِدَ سنة ٢٥٦م.

[٧٧] كاهن أنطاكيّ، اشتهر ببلاغته وروعة بيانه، فلفت إليه الأنظار. وفي سنة ٤٢٨م أصبح نسطوريوس، بدعمٍ من الإمبراطور ثيودوسيوس الثاني، أسقفًا على كرسيّ القسطنطينيّة عاصمة الإمبراطوريّة.

شخصَين: الله الكلمة من جهة، ويسوع المسيح من جهةٍ أخرى، مع استقلاليّة كلّ شخصٍ عن الآخر، إضافةً إلى رفضه للتجسّد وأن تكون مريم "أمّ الله"، إذ فضّل أن يدعوها "أمّ المسيح".

إزاء هذه الأفكار أعلن المجمع اعترافه بأنّ الكلمة صار واحدًا مع الجسد، إذ اتّحد به اتحادًا شخصيًّا، مشدِّدًا على عبادة الشخص الواحد، الابن والرّبّ، يسوع المسيح، وعدم تفرقته بين الله والإنسان وعدم الفصل بينهما. أمّا عن مريم العذراء، فقد أشار المجمع إلى أنّها ولدت بالجسد الإله الّذي صار واحدًا مع الجسد بحسب الطبيعة، وسمّاها والدة الإله.

ت. مجمع خلقيدونية (٤٥١م)

عُقِدَ هذا المجمع للردّ على تعاليم الراهب أوطيخا الخاطئة والّتي تركزت حول رفضه أن يكون المسيح من طبيعتين بعد الاتّحاد، معتبرًا أنّ الطّبيعة الإلهيّة امتصّت الطّبيعة البشريّة فلاشتها وزالت الإنسانيّة في الألوهيّة.

نرى أنّ المجمع دعا إلى ضرورة العودة إلى الكتاب المقدّس، والى مجامع نيقية، القسطنطينيّة الأوّل (٣٨١م) وأفسس معترفًا بقانون الإيمان الّذي حُدّد في نيقية-القسطنطينيّة. فميزة خلقيدونيا الأساسيّة هي الحفاظ على حقيقة إنسانيّة يسوع الّتي كانت مهدّدة من أوطيخا ومن بعده في لاهوت الطبيعة الواحدة **"المونوفيزيّة"**. فالمسيح هو إنسان حقيقي أخذ كل شيء من الطبيعة البشريّة، الجسد والنفس والإرادة والحريّة، وقد كان متّحدًا بالله في

عمق كيانه، فهو "ابن الله المولود من الآب قبل كلّ الدهور... إله حقّ من إله حقّ، مولود غير مخلوق، ومساوٍ للآب في الجوهر".

٢. الأدب الكتابيّ الرؤيويّ

- "المرأةُ الملتحفةُ بالشَّمس، والقمرُ تحت قدمَيها، وعلى **رأسها إكليلٌ** من **اثنَي عشرَ** كوكبًا" (رؤ ١٢: ١)؛
- المرأةُ المزيَّنةُ لأجل عرس الحمل (رؤ ١٩: ٧-٨)؛
- **مريم "المدينةُ المقدّسة، أورشليمُ الجديدة**، النّازلةُ من السَّماء من عند الله، **مهيَّأةً مِثلَ عروسٍ مزيَّنةٍ لعريسها**. وسَمِعتُ صوتًا جهيرًا من العرش يقول: هوذا **مسكِنُ الله** مع النّاس، فسَيَسكُنُ معهم وهم سيكونونَ شعوبَهُ وهو سيكونُ "اللهُ معهم". وسيَمسَحُ كلَّ دمعةٍ من عيونهم. وللموت لن يَبقى وجودٌ بعد الآن، ولا للحزنِ ولا للصُّراخِ ولا للألم لن يبقى وجودٌ بعد الآن، **لأنّ العالمَ القديمَ قد زال**" (رؤ ٢١: ٢-٤).
- **مريم عروسُ الحمل**: "تعالَ أُريكَ **العروسَ امرأةَ الحمل**. فحمَلَني بالرُّوحِ إلى جبلٍ عظيمٍ عالٍ وأرانِيَ المدينةَ المقدّسةَ أورشليم نازلةً من السَّماء من عندِ الله، **وعليها مجدُ الله**... لها سورٌ عظيمٌ عالٍ، ولها **اثنا عشرَ** بابًا، وعلى الأبوابِ **اثنا عشرَ** ملاكًا، وفيها أسماءٌ مكتوبةٌ هي أسماءُ أسباطِ بني إسرائيلَ **الاثنَي عشر**..." (رؤ ٢١: ٩-٢٧).

نَستَشِفُّ المغزى اللاهوتيّ لهذه الآيات بتأكيدها، ولو ضمنيًّا وبطريقةٍ مجازيَّة، على أنّ **مريم هي حوّاء الجديدة، إنَّها عروس الحمل وهي امرأة العهد الجديد بامتياز**، تلك المرأةُ الَّتي أعادتْ، بطاعتها وإيمانها، سُكنى

الله بيننا: "في البدءِ كان الكلمة، والكلمةُ كان لدى الله، والكلمةُ هو الله... والكلمةُ صارَ بشرًا، فسكنَ بينَنا..." (يو ١: ١، ١٤)، وهي مَن وَهَبَتْنا، ببتوليَّتها المكرَّسة الدّائمة، العمّانوئيل "أي الله معنا"، الَّذي بدوره مَنَحَنا الولادة الروحيَّة الجديدة بواسطة:

(١) البُنوَّة الإلهيَّة بالإيمان بالكلمة المتجسِّد: "أمّا الَّذينَ قبلوه، وهُمُ الَّذينَ يؤمنونَ باسمِه، فقد مكنَّهم أن يَصيروا أبناءَ الله: فَهُمُ الَّذينَ لا من دمٍ، ولا من رغبة لحمٍ، ولا من رغبة رجل، بل من الله وُلِدوا" (يو ١: ١٢-١٣)؛ **(٢) المعموديَّة:** "... ما مِن أحدٍ يُمكِنُهُ أن يرى ملكوتَ الله، إلاّ إذا وُلِدَ من عَلٍ... ما مِن أحدٍ يُمكِنُهُ أن يَدخُلَ ملكوتَ الله، إلاّ إذا وُلِدَ من الماء والرّوح" (يو ٣: ٣، ٥)؛ **(٣)** وأخيرًا **الصَّليب** (الذبيحة الافخارستيَّة): "... لكنّ واحدًا من الجنود طَعَنَهُ بحربةٍ في جَنبه، فخرجَ لوقتِه دمٌ وماء" (يو ١٩: ٣٤)، وهو مَن مَسَحَ من عيوننا أحزانَ الخطيئة ومرارتَها ونتائجَها، وأعادَنا إلى وطننا الأمّ "الفردوس السَّماويّ".

٢) مجمع أفسس (٤٣١م)

عُقِدَ هذا المجمع المقدّس للردّ على هرطقة نسطوريوسالَّذي قال إنّ في المسيح شخصَين متميّزَين أي الكلمة الَّذي من الآب والإنسان الَّذي من العذراء، ومتّحدين برباط كرامة وسلطة... وقد ادّعى أنّ مريم قد وَلَدَتْ إنسانًا، ورفض بالتّالي أن يدعوها والدة الإله (الثيوطوكس-**Θεοτόκος**)، وفضّل أن تُدعى والدة المسيح (خريستوتوكس-**Χριστότοκος**).

دحض **يعقوب السِّروجيّ** (٤٤٩-٥٢١م) أقوال نسطوريوس الهرطوقيّة في ما يخصّ وَحدة شخص المسيح الإلهيّة والإنسانيّة، وأُمومة مريم للمسيح الواحد الإله والإنسان، بتأكيده ببلاغة لغته اللاهوتيّة على أنّ **الإله صار إنسانًا وظلَّ إلهًا، وأنّ البتول ولدته وظلّت بتولاً، حتّى إنّ مريم تُعرَف بأنّها بتولٌ حقًّا وأُمٌّ حقًّا، وليست اثنتَين ولئن كانت في شكلَين، لكنّها واحدة، أي إنّها أُمٌّ وبتولٌ معًا، وعلى هذا النّمط، فإنّ العجيب الَّذي ولدته هو أيضًا إلهٌ وهو عينُه إنسانٌ أيضًا، ليس فيه أشكالٌ وأعداد لكي يُعرَف الواحد إلهًا والآخر إنسانًا**[٧٨].

وقد أعلن آباء المجمع وعلى رأسهم المدافع الشّرس عن عقيدة الكنيسة المستقيمة الرأي، **كيرلّس الاسكندريّ** (٣٨٠-٤٤٤م)[٧٩] أنّ الكلمة قد اتّحد بالجسد اتّحادًا أُقنوميًّا. فأُقنوم الكلمة هو نفسه شخص المسيح الَّذي هو شخصٌ واحدٌ في طبيعتَين، ويجوز بالتّالي أن تُدعى مريم العذراء "والدة الإله" (الثيوطوكس)، لأنّها وَلَدَتِ المسيح الَّذي هو شخصٌ واحدٌ في طبيعتَين، طبيعةٍ إلهيّة وطبيعةٍ إنسانيّة.

فبالرغم من قلَّة الكتابات عن العذراء إنْ في الأناجيل أو في أعمال الرسل، إلاّ أنّه من الواضح أنّ كلَّ مرحلة تَطَوُّرٍ طالت اللاهوت

---

[٧٨] مجموعة باحثين، **تاريخ الفكر المسيحيّ**، ص٥٧٥.

[٧٩] وُلِدَ نحو سنة ٣٨٠م وهو ابنُ أخت ثيوفيلس أسقف الإسكندريّة († ٤١٢). لمزيدٍ من المعلومات، أنظر الملحق رقم (١٦).

الأرثوذكسيّ في بيزنطيا، شَغَلَتْ أُمُّ الله تفكيرَ الآباء الَّذين جَعَلوا منها نموذجًا مسلَكِيًّا للحياة المسيحيّة. وفي الوقت نفسه، فقد رأى فيها الآباءُ **"الإنسانَ"**، وفوق ذلك، رأَوا فيها **"حامِلَةَ الله، الحاميةَ والوسيطة"**. فالآباءُ الكبّادوكيّون[٨]، وبخاصّةٍ **غريغوريوس النيصيّ**، قاموا بتأسيس كلِّ المراجع الرّمزيّة الَّتي تُشيرُ إلى والدة الله، بحيث بيّنوا أنّ الصيغة الأساسيّة لهذا التّأسيس، تكمنُ في **الاختبار الكنسيِّ الحيِّ لنموذج مريم**. ففي عِظَةٍ وَصَلَتنا من **بروكلوس** بطريرك القسطنطينيّة، في حضور خصمه نسطوريوس، في الكنيسة العُظمى "آيا صوفيّا"، في العام ٤٢٨م أو ٤٢٩م، أَظهَرَ بروكلوس، أنّ العذراء، المُشارَ إليها بتعابيرَ مختلفةٍ، كالكاملة القداسة والدّائمة البتوليَّة، هي والدةُ الله الثيوطوكس. بعد هذه المقدِّمة الآبائيَّة، نستطيعُ أن نَغوصَ في بحر مجمع أفسس ويليه مجمع خلقيدونية المسكونيَّين. في اعتقادي أنّ نصوصَ ومقرَّراتِ مجمع أفسس قد نالَتْ حظوةً عند مؤلِّف الأكاثستوس، إذ أُقِرَّ فيه المصطلحُ المريميُّ الأبرزُ في تاريخ اللاهوت المريميّ الكنسيّ ألا وهو الثيوطوكس، كمصطلحٍ يُميِّزُ الأرثوذكسيّة. ويفسِّر كيرلّس دفاعَه عن مريم كثيوطوكس، بقوله: "هل ندعو مريم ثيوطوكس؟ لا شكّ في ذلك وقد حَبلت بالله الكلمة

---

[٨] كبّادوكيّة إقليمٌ في آسية الصّغرى يقع غربي أرمينية وكان محميّةً رومانيّةً في القرن الأوّل قبل الميلاد، ثمّ ولايةً رومانيّةً في القرن الثاني للميلاد؛ وفي ما بعد مركز إشعاعٍ مسيحيّ كان له أثرٌ واسع في انتشار المسيحيّة. وفي القرن الرّابع الميلاديّ لمعت أسماء ثلاثة في كنيسة كبّادوكيّة هم: القدّيس باسيليوس الكبير († ٣٧٩)، القدّيس غريغوريوس النَّزينزيّ († ٣٩٠) والقدّيس غريغوريوس النّيصيّ († ٣٩٤).

المتأنّس وولدته. هذا الاسمُ تقليديٌّ ورد عند جميع الآباء الأرثوذكسيّين في الشّرق والغرب"[٨١]. ويؤكِّد أيضًا "أنّ مريم هي أُمُّ أحد الأقانيم الثلاثة، إذ إنّ الكلمة المتجسّد هو الأقنوم الثاني من الثالوث الأقدس"[٨٢].

بناءً على هذا اللاهوت الكيرلّسيّ، أكَّدَ المجمعُ أنّ مريم هي في الحقيقة أمُّ الله "ثيوطوكس"، مُبيِّنًا الصيغةَ الَّتي تبَّناها الآباء، من أنّ الطَّبيعةَ البشريَّةَ الَّتي اتَّخذها الكلمة، قدِ اتَّحدتْ بشخصه الإلهيّ. فهذه الوَحدةُ بين الطّبيعتَين الإلهيَّة والإنسانيّة في شخص المسيح، ستكونُ محورَ تدخُّلات كيرلّس الاسكندريّ وعظاته الَّتي سنطّلِعُ على مضامينها بعد حين، والَّتي وَصَفَها مؤلِّفُ الأكاثستوس في البيت الخامس عشر، بقوله: "السلامُ عليكِ يا نَبأً لغير المؤمنين مُلتَبَسًا (النّسطوريون والهراطقة). السلامُ عليكِ يا فخرًا للمؤمنين لا التباسَ فيه (الكيرلّسيّون والمؤمنون)".

إنّه لَمِنَ الملاحظ أنّ مجمعَ أفسس لم يَكتُبْ أبدًا "نموذجَ الإيمان"، بل دَرَسَ ملفاتٍ عدّة، منها: رسائل كيرلّس، رسائل نسطوريوس، عِظاتٌ من مؤلِّفينَ مختلفين، تجميعُ مستنداتٍ لشهاداتٍ آبائيَّةٍ سابقة... وقد وافق المجمعُ بالتّالي على عقيدة كيرلّس الاسكندريّ حول اتّحاد الطَّبيعتَين غير المتحوِّل في المسيح، وأدانَ بدعةَ نسطوريوس[٨٣].

---

[٨١] مجموعة باحثين، **تاريخ الفكر المسيحيّ**، ص٦٣٢.

[٨٢] **المرجع نفسه**، ص٦٣٥.

[٨٣] اعتنق نسطوريوس نظريات معلّمه "آريوس" وأيّدَ كمالَ ناسوت المسيح، غير أنّه شدَّدَ كثيرًا على التَّمييزِ بين ناسوتِه ولاهوتِه مُعتَبرًا أنّ مريم وَلَدَتْ طبيعةَ المسيح

إنّه مجمعٌ اتَّخذ من رسالة كيرلّس الثّانيّة إلى نسطوريوس نَصًّا أساسيًّا وجوهريًّا لصياغة عقيدته، الَّتي فيها بَيَّنَ تفسيرَه الكريستولوجيّ، داعِمًا رؤيتَه هذه بنموذج مجمع نيقية وبالكتب الإلهيّة، قال: "إنّنا نعترفُ بأنّ الكلمةَ صار واحدًا مع الجسد، إذِ اتَّحدَ به اتّحادًا شخصيًّا. فنَعبُدُ الشَّخصَ الواحدَ الابنَ والرَّبَّ يسوع المسيح. إنّنا لا نُفرِّقُ بين الله والإنسان ولا نَفصِلُ بينهما وكأنّهما اتّحدا الواحدَ بالآخر اتّحادَ كرامةٍ وسلطة... ولا ندعو الكلمةَ المولودَ من الله مسيحًا آخرَ غير المسيح المولود من امرأة. وإنّما نَعترِفُ بمسيحٍ واحدٍ هو الكلمةُ المولودُ من الآب وهو الَّذي اتّخذَ جسدًا. أعطى المجتمعون عبارة **"والدة الإله"** (ثيوطوكس) الأهميّةَ ذاتَها في عقيدة **التجسُّد** لعبارة **"المساوي في الجوهر"** في عقيدة الثّالوث، وذلك لأنّها تحافظ على وحدة شخص المسيح".

فكيرلّسُ نفسُه، في عِظَةٍ احتفاليَّة في أفسس (أُدخِلَتْ هذه العِظةُ في أعمال مجمع أفسس)، أظهرَ إشاراتٍ عدّة حول مفهوم علم الخلاص[٨٤]

الإنسانيّة وليس طبيعتَه الإلهية، وقال بأنّ تسميتَها بـ "والدة الإله" تعني أمرَين اثنَين: إما أنّ يسوع ليس إنسانًا كاملاً، وهذا ما كان يقوله أبوليناريوس؛ وإمّا أنّه إلهٌ مخلوق، وهذا ما كان يقولُه آريوس.

[٨٤] إنّ التَّاريخَ الخلاصيّ (أو تاريخ الخلاص) هو كخليَّةِ نحلٍ تُنتِجُ لاهوتَ كلِّ نشيدِ الأكاثستوس. فهو جزءٌ من خلقِ العالم بمَن فيهم الملائكة وكلُّ الحقائقِ المنظورة، وبشكلٍ خاصٍّ خلق الإنسان الَّذي يُعتَبَرُ الموضوعَ المركزيَّ في تاريخ الخلاص، وبخاصّةٍ بعد السّقوطِ في آدم. **الخلقُ والسّقوط، النبوءاتُ وشخصيَّاتُ العهدِ القديم**، كلُّها تقودُنا بطريقةٍ جوهريّةٍ إلى **المسيح الفادي وكنيسةِ المخلَّصين**. فمنهجيَّةُ النّشيدِ ترتكزُ على القراءةِ الحِكَمِيَّةِ للأحداث: فهو لا يَذكرُ آدمَ ليَصِلَ إلى المسيح، ولا الشَّعبَ القديمَ ليَصِلَ

"Soteriology" وامتداده في الإطار التّاريخيّ – الخلاصيّ، مُتَضمِّنًا العنوان "الثيوطوكس" والعقيدة الأرثوذكسيّة للأمومة الإلهيَّة. في سلسلة تهنئاتٍ، مباشرةٍ وغيرِ مباشرة، موجَّهةٍ بطريقةٍ شخصيَّةٍ لمريم، ومُحتَفِلَةٍ بالأحداث الَّتي جَرَتْ **لأجلِها "ϩⲓ ’ⲛⲉ"** إذ وَضَعَتِ التّدبيرَ الخلاصيّ برُمَّته موضع التَّنفيذ التّاريخيّ والجغرافيّ، يقول: **"**السلامُ عليكِ من جهتنا، مريم والدة الله، يا كنزَ جميع سكّان الأرض، أيُّها النّورُ المتعذِّرُ إطفاؤه، يا تاجَ العذارى، يا صولجانَ الأرثوذكسيَّة، أيُّها الهيكلُ الطَّاهر، أيَّتُها الأمُّ والبتول**"**:

- لأجلكِ هَتَفَتِ الأناجيلُ المقدّسةُ "مبارَكٌ الآتي باسمِ الرَّبّ" (مت ٢١: ٩)؛
- السَّلامُ عليكِ يا مَن حَمَلَتْ في حشاها البتوليِّ المقدّس غيرَ الموسوع؛
- لأجلكِ مَجَّدَتِ الأرضُ كلُّها الثَّالوثَ الأقدس وعَبَدَتْهُ؛
- لأجلكِ ابتَهَجَتِ السَّماء؛ لأجلكِ تهلَّلَتْ أجواقُ الملائكة ورؤساء الملائكة؛
- لأجلكِ وُضِعَتِ الشّياطينُ في الفضاء؛ لأجلكِ سَقَطَ الشَّيطانُ المجرِّبُ من السَّماء؛
- لأجلكِ أُعيدَتِ الخليقةُ السَّاقطةُ إلى السَّماوات؛
- لأجلكِ أُعيدَتِ الخليقةُ الأسيرةُ في سجن عبادة الأوثان إلى معرفة الحقيقة؛
- لأجلكِ أُعطِيَتِ المعموديَّةُ المقدّسةُ للمؤمنين؛
- لأجلكِ أُشيدَتِ الكنائسُ على الأرض كلِّها؛

إلى الكنيسة **"**شعبِ الله الجديد**"**، بل يُعلِنُ أنّ المسيحَ هو آدمُ الجديد وأنّ الكنيسةَ هي إسرائيلُ الجديد، إذ إنّ قلبَ تاريخِ الخلاص هو المسيحُ وكنيستُه: حدثٌ لم يُغلق بعد، لأنّه في انتظارِ اكتمالِه النّهائيّ في اليومِ الأخير للتّاريخِ البشريّ؛ فنُلاحِظُ كيف أنّ القسمَ الأوّلَ من النّشيدَ ابتدأَ ببشرى الملاك، بينما الأخير أُغلِقَ بشفاعةِ مريمَ أمام المسيح الدّيّان: **"البشارة والدينونة، بدايةٌ تاريخيَّةٌ واكتمالٌ اسكاتولوجيّ"**.

- لأجلكِ حَصَلَتِ الشُّعوبُ على المغفرة والارتداد؛
- لأجلكِ تألَّقَ الابنُ الوحيدُ لله كالنّور على جميع القابعينَ في الظلُمات وظلال الموت (لو ١: ٧٩)؛
- لأجلكِ تنبَّأَ الأنبياء؛ وبواسطتِكِ بَشَّرَ الرُّسُلُ جميعَ الشُّعوب والأمم بالخلاص؛
- لأجلكِ مُنِحَ الأمواتُ القيامةَ من مثوى الأموات؛
- لأجلكِ مَلَكَ الملوك[٨٥].

إنّ الرسالةَ الآبائيَّةَ الأكثرَ عُمقًا لسرِّ مريم الثيوطوكس هي: **حضورُها الجذريّ في سرِّ المسيح المتجسِّد وسرِّ الكنيسة**: مريم هي مَنبَعُ مجيءِ ابن الله المخلِّص ومصدرُه؛ مريم هي في قلب التَّدبير الإلهيّ الَّذي أعلنَه الأنبياء، وبشَّرَ به الرّسل، واحتفلتْ به أجواقُ الملائكة، وحاولت قوى الشَّرِّ والشّياطين عرقلتَه والَّذي آمنَ به الوثنيّون؛ مريمُ الثيوطوكس هي في الكلمة والأسرار الَّتي تُولِّدُ الكنيسة، في العبادة الَّتي تُقدِّمُ اللهَ في الرُّوح والحقّ، في الخلاص الحاضر حتّى اليوم الأخير.

يركِّزُ كيرلّس الإسكندريّ في عِظَته هذه على ارتباط **بتوليَّة مريم الدَّائمة** بـِ **"الكنيسة"** و**"يسوع"، ابنِها** (أي الثيوطوكس) **وعريسِها** (أي الكنيسة) **الطّاهر"**، يقول: **"**إنّ إرادةَ السَّماء أن نُكرِّمَ نحن **الوحدةَ** ونَعبُدَها، أن نُطيعَ الإمبراطورَ عزيزَ الله ونكونَ تحت إمرةِ الرؤساءِ والسُّلُطات، أن نُبَجِّلَ ونُقدِّمَ العبادةَ الحَسَنَةَ للثَّالوثِ غيرِ المنقسم، مُحتفلينَ، بمزاميرَ وأناشيد، بمريمَ الدّائمةِ البتوليّة

[٨٥] M. Santer, ***The Authorship and Occasion…***, p. 144-150.

وبالكنيسة المقدّسة، وابنِها وعريسِها الطّاهر، الَّذي له يَليقُ كلُّ مجدٍ إلى دهر الدّاهرين. آمين".

إلاّ أنّ الترجمةَ اللاتينيّةَ لِما قاله كيرلّس حول "الكنيسة" "sanctum videlicet (Dei) **templum**" أَعطَتِ الجملة اليونانيّة "δηλονότι τὴν ἁγίαν **ἐκκλησίαν**" معنىً جديدًا، بحيث أعادَ المترجِمُ معنى الجملة لا إلى الكنيسة، بل إلى مريم بالعلاقة مع الكلمة المتجسِّد، وقد أصبحتِ **الهيكل** بكلِّ تأكيد، إذ أدخلتْ هذه القراءةُ تفسيرَ "الكنيسة" كبناء أي كهيكل لِتَجِدَ لها صدًى في سفر الرؤيا: "ولم أرَ فيها هيكلاً، لأنّ الرَّبَّ الإلهَ القديرَ هو هيكلُها، وكذلك الحمل" (رؤ ٢١: ٢٢). وهذا ما يُمكننا ملاحظته في بعض الأناشيد الَّتي تُتلى في عيد دخول السيّدة إلى الهيكل (٢١ تشرين الثاني من كلّ عام)، إذ تَصِفُها الليتورجيّةُ المقدّسة بأنّها **"هيكلُ المخلِّص الأطهر"**، **"الهيكلُ النّاطقُ لقداسة مجد المسيح إلهنا"**، **"ستكونُ بالحقيقة هيكلاً كليَّ القداسة لإلهنا القدّوس"** و**"الهيكلُ الَّذي وسعَ اللاهوت"**...

أمّا الرّابطُ مريم/الكنيسة فهو موجودٌ في النّصِّ المعروف لاكليمنضوس الاسكندريّ في القرن الرّابع الميلاديّ، حيث دُعِيَتْ مريمُ "بالعذراء الطّاهرة والكنيسة الَّتي بلا دنس".

- **لقب "والدة الإله" قبل مجمع أفسس**

إنّ أوّل شهادة لاستعمال هذا اللقب نجدها في رسالة ألكسندروس أسقف الإسكندرية حول مجمعٍ التأم في الإسكندرية في العام ٣٢٠م للحكم

على بدعة آريوس: "بعد هذا تناولنا عقيدة القيامة من بين الأموات الَّتي صار فيها ربنّا يسوع المسيح باكورة الثمار فقد لبس، في الحقيقة، لا في المظهر فقط، جسدًا اتّخذه من مريم والدة الإله". إلاّ أنّ هناك صلاةً تتوجَّهُ إلى مريم العذراء بهذا اللقب، ويبدو أنّها تعود إلى **نهاية القرن الثالث الميلاديّ**: "يا والدة الإله، لقد لجأنا إلى حنانِك، فلا تُعرضي عن ابتهالاتِنا في المحن، بل نجّينا من المخاطر، يا من هي وحدها نقيّة ومبارَكة".

وقد ورد هذا اللقبُ عند كثيرٍ من آباء الكنيسة **قبل** مجمع أفسس، ممّا يُبرهِنُ عن شيوعه في الكنيسة الجامعة منذ القرون الأولى. نكتفي هنا بذكرِ بعض أقوالهم: * **أثناسيوس الكبير** (٢٩٦- ٣٧٣م)، بطل الإيمان القويم والمدافع عن العقيدة المسيحيّة في وجه الهرطقة الآريوسيّة: "إنّ الكلمةَ هو نفسُه قد وُلِدَ بالجسد من مريمَ والدةِ الإله"؛ * **كيرلّس الأورشليميّ** (٣١٣- ٣٨٧م): "رئيسُ الملائكة جبرائيل يَشهدُ لله في حمله البشارةَ إلى مريم، والعذراء والدة الإله مريم تَشهدُ له أيضًا"؛ * **غريغوريوس النِّيصي** (٣٣٥- ٣٩٥م): "إنّ ابنَ الله قد اتّخذ لنفسِه جسدًا من العذراء، لذلك حقٌّ للعذراء أن تُدعى والدةَ الإله"؛ * **غريغوريوسُ النزينزي "اللاهوتيّ"** (٣٢٩-٣٩٠م) بقوله: "إذا لم يؤمِنْ أحدٌ أن مريمَ هي والدةُ الإله، فهو غريبٌ عنِ الله. هذا ليسَ بلقبِ شرفٍ، إنما هو عقيدةٌ تُحدِّدُ مفهومَ كون المسيح، يَحوي في ذاته في آنٍ معًا اللاهوتَ الكاملَ والناسوتَ الكامل، في اتحادٍ بلا انفصالٍ أو تغيير"[٨٦].

---

[٨٦] إنّ أقوال الآباء هذه مأخوذة من موقعٍ إلكترونيٍّ بعنوان الشبكة الأرثوذكسيّة العربيّة الأنطاكيّة: "القدّيسة مريم والمجمع المسكونيّ الثالث".

من أين أتى هذا اللقب؟ يجد هذا الاسم جذوره في الكتاب المقدّس، ولقد استقاهُ المسيحيّون من قول أليصابات وهي حاملٌ بيوحنّا المعمدان، حين زارتها مريم نسيبتها وهي حاملٌ بيسوع: "من أين لي هذا أن تأتيَ أمُّ ربِّي إليّ؟" (لو ١: ٤٣). فيسوعُ المسيح هو "الرّبّ"، ولقبُ الرّبِّ هو من أسماء الله. هذا ما نُرنِّمُهُ في صلاة السَّحر كلَّ يوم: "الرّبُّ هو الله وقد ظَهَرَ لنا. مباركٌ الآتي باسم الرَّبّ". فإذا كان المسيح هو الرّبّ، فأمُّ الرّبِّ هي "والدة الإله".

٣) مجمع خلقيدونية (٤٥١م)

عُقِدَ هذا المجمع المقدّس للردّ على هرطقة الراهب أوطيخا الَّذي قال إنّ الكلمة ليس له بعد التجسّد سوى طبيعة واحدة، هي الطّبيعة الإلهيّة. وقد أعلن آباءُ المجمع القدّيسون بقاءَ الطّبيعتَين، الإلهيّة والإنسانيّة، متّحدتَين في شخصٍ واحد وأقنومٍ واحد بدون اختلاطٍ ولا تحوّلٍ ولا انقسامٍ ولا انفصال، وعلَّموا بصوتٍ واحدٍ أنّه يجبُ الاعترافُ بالابن الواحد نفسه، الرَّبِّ يسوع المسيح: "هو نفسُه كاملٌ في الألوهيَّة، وهو نفسُه كاملٌ في الإنسانيَّة، إلهٌ حقيقيٌّ وإنسانٌ حقيقيٌّ، مع نفسٍ عاقلةٍ وجسد؛ مُساوٍ للآب في الجوهر بحسب الألوهيَّة، ومساوٍ لنا في الإنسانيَّة ما عدا الخطيئة (عب ٤: ١٥)؛ مولودٌ من الآبِ قبل كلِّ الدّهور بناءً على الألوهيَّة، ولكنّه، هو نفسُه، في آخرِ الأزمان، من أجلِنا ومن أجلِ خلاصِنا، وُلِدَ من مريم، البتولِ الثيوطوكس بحسبِ الإنسانيَّة؛ مسيحٌ واحد، ابنٌ، ربٌّ، كلمةٌ، مولودٌ وحيد، الَّذي يجبُ أن يُعرَفَ بطبيعتَينِ متَّحِدَتَينِ بلا انفصالٍ وبلا تَحَوُّلٍ في شخصٍ واحدٍ وكيانٍ واحد: إنّه المخلِّصُ الأوحد".

إنّ النَّصَّ العقائديَّ لخلقيدونية، يَستَرجِعُ بإحكامٍ عقيدةَ أفسس، ويُحدِّدُ مريمَ على أنَّها "أمُّ الله". إلاّ إنّه وفوقَ كلِّ شيء، يُحدِّدُ أنّ يسوع هو المسيح، الابنُ والرَّبُّ الوحيد، وأنّ له طبيعتَين متَّحدتَين ومتمايزتَين، تَلتَقِيان وتَتشاركان في شخص وكيان الكلمة الواحد. من هنا يَظهرُ جَلِيًّا أنّ كاتب النَّشيد أرادَ أن يَختَصِرَ سرَّ مريم في كلِّ امتداداته الخلاصيَّة استنادًا إلى سرّ المسيح كما أعلنَه مجمعُ خلقيدونية وأَشَرنا إليه سابقًا.

٤) باسيليوس السلوقيّ († ٤٦٨م)

في مقابل الاعتماد الأكيد على عِظَةِ كيرلّس الاسكندريّ الَّتي ألقاها في أفسس، نَلحَظُ أنّ مؤلِّف الأكاثستوس قدِ اعتمدَ في تأليفه على مصدرٍ أساسيٍّ ثانٍ من الآباء هو **باسيليوس السلوقيّ** الَّذي كتبَ عِظَةً عن "والدة الله"، واصفًا بكلماتٍ بليغةٍ التّدبير المُدهش لأمومة مريم الإلهيَّة والمصطلحَين البتول – الأمّ، اللَّذين يُكمِّلُ أحدُهما الآخر، من زاوية تاريخ الخلاص:

الأكاثستوس (البيت ١)	**١) باسيليوس**
السلامُ عليكِ، يا مَن بها يُشرِقُ الفرحُ	منكِ، في الحقيقة، وُلِدَ الفرحُ للجميع
السلامُ عليكِ، يا مَن بها يتلاشى الألمُ.	وقد اضمحلَّ للجميع الألمُ القديم
الأكاثستوس (البيت ٢)	**٢) باسيليوس**
إنّ استثنائيَّةَ صوتِكَ (الملاك)	إنّ استثنائيَّةَ البُشرى قد جَلَبَتْ
تبدو لنفسي عَسِرَةَ القبول.	حدثًا غير متوقَّع

٣) باسيليوس	الأكاثستوس (البيت ١٥)
بَقِيَ (الكلمة) مع الَّذين هم تحت (الأرضيّون)	إنّ الكلمةَ غيرَ المحصور، كان بجُملتِه مع الأرضيّين
ولم يَبعُدْ على الإطلاق عن الَّذين هم فوق (السّماويّون)	ولمْ يَغِبِ البتَّةَ عن السَّماويّين
إذ لم يُحقِّق تنازلاً مكانيًّا	إذ قد صارَ تنازُلٌ إلهيٌّ
بل أنجزَ تنازلاً إلهيًّا	لا انتقالٌ مكانيّ.

من الجدير ذكرُهُ أيضًا أنّ هناك قواسمَ مشتركةً أخرى بين الأكاثستوس وعِظَةِ باسيليوس، نذكرُ منها: **(١)** موضوع البتوليّة الَّتي تحوَّلتْ كفيلةً لسرِّ الكلمة المتجسِّد (البيت ٣)؛ **(٢)** نموذج مريم جَعَلَ منها فردوسًا للبتوليّة، حيث أنبَتَتْ شجرةَ الحياة، فأَضحَتْ مريمُ الوسيطةَ بين الله والبشريَّة المنفيَّة (البيت ١٣)؛ **(٣)** الكلمة الَّذي في رَحِم البتول هو مَن مزَّقَ وقَوَّمَ صكّ دَين البشريَّة (البيت ٢٢)، إذ إنّ السيّدَ صارَ إنسانًا ليدعوَ الإنسانَ من جديدٍ ويَمنحَهُ الخلاص (البيت ١٨). بناءً على كلِّ تشابيه الأكاثستوس واعتمادها على عظة باسيليوس السلوقيّ، نستطيع القول، بطريقةٍ عفويَّة، إنَّ مؤلِّف الأكاثستوس هو نفسُه باسيليوس السلوقيّ، بحيث لا ننسى المناسبة الَّتي أُلِّفَتْ لأجلِها الأكاثستوس وهي **الاحتفالُ بوالدةِ الله، في سرِّها الشَّامل**، في اللحظة الَّتي شَيَّدَتْ فيها الإمبراطورةُ بُلخاريا[٨٧] معبدًا خاصًّا للعذراء في البلاط الإمبراطوريّ، أصبحَ مرجِعَ السّلطات الإمبراطوريَّة وكافَّة شعب القسطنطينيّة.

[٨٧] للإطّلاع على نبذة حياة القدّيسة بلخاريا، أنظر الملحق رقم (١٧).

القسم الثالث

بُنيةُ الأكاتستوس ولاهوتُها

يتألَّفُ هذا النَّشيدُ من ٢٤ مقطوعةً شعريَّةً في اللغة اليونانيّة. وقد اختارَ الكاتبُ هذا العدد لأنّه يُمثِّلُ حروفَ الأبجديَّةِ اليونانيّة الَّتي يُشيرُ حرفاها الأول "A" (Alpha) والأخير "Ω" (Omega) إلى حقيقةٍ كتابيَّةٍ ولاهوتيَّةٍ هي أنّ المسيح هو "الألفُ والياء، هو الأوَّلُ والآخِر، هو البدايةُ والنِّهاية" (رؤ ٢٢: ١٣). وبذلك، فإنّ هدف هذا النّشيد يبدو واضحًا وجَلِيًّا من أساسه وهو معرفةٌ أعمق لشخص الكلمة المتجسِّد، يسوع المسيح، مصدرِ كلِّ شيءٍ، من خلال الدور الخلاصيِّ الَّذي قامتْ به العذراءُ الطّاهرة، والدةُ الله.

تُقسَمُ هذه المقطوعات أل ٢٤ إلى قسمَين متساوِيَين، كلّ قسمٍ يتضمّن ١٢ بيتًا، كالتّالي:

- **القسم الأوّل:** البيوت ١-١٢ وهي تُظهِرُ فكرةَ النّشيد التاريخيّة/القصصيّة لإنجيلَي الطّفولة (متّى ولوقا).
- **القسم الثّاني:** البيوت ١٣-٢٤ وهي تُبرِزُ فكرةَ النّشيد اللاهوتيّة/العقائديّة بحسب إيمان الكنيسة، الَّتي تُظهِرُ بالتّتابُع مركزيَّةَ شخص المسيح، الكلمة المتجسِّد، في قلب الأحداث المريميّة.

١) البُعد التّاريخيّ

إنّ القسم الأوّل من الأكاثستوس يتبَعُ ترتيب الأناجيل للأحداث الخلاصيَّة، وبخاصّةٍ تلك المتعلّقة بمريم، بحيث لا يهتمّ الكاتب بإبراز تتابُعِها بحسب التسلسل الزمنيّ أو التّاريخيّ؛ فعلى سبيل المثال، لا يُشيرُ الكاتبُ إلى طرد الباعة من الهيكل على يد يسوع، ولا يُلمِّحُ إلى أيَّة أحداثٍ من حياة المسيح العلنيّة الَّتي كانت مريمُ حاضرةً فيها، كعرس قانا الجليل، كفرناحوم، موضع صلب المسيح "الجلجثة"... فالبيوتُ الَّتي تتعلَّقُ بالبشارة، على سبيل المثال (البيوت ١-٤)، لا تُلقي الضَّوء على مصطلح "الممتلئةِ نعمةً" (لو ١: ٢٨) ولا على جواب مريم: "ها أنا أَمَةٌ للرَّبِّ" (لو ١: ٣٨) رغم أنّ هذين المصطلحَين يأخذان حيِّزًا واسع النِّطاق في التَّقليد التَّفسيريّ والوعظيّ البيزنطيّ في القرون السَّابقة.

أمّا في مشهد الزّيارة، فالكاتبُ يُركِّزُ الانتباه فقط على تقديس (أو تكريس) المعمدان عند سلام مريم، ولا يَذكرُ تهليل أليصابات أو نشيد العذراء، بالرّغم من أنّ الفكرتَين الكتابيَّتَين قد حازتا على اهتمام الواعظين في القرنَين الرّابع والخامس الميلاديَين. إنّ الاحتفال بالميلاد في الكنيسة (أواخر القرن الرّابع أوائل القرن الخامس الميلاديّ) جَعَلَ منه دورًا ليتورجيًّا شبيهًا بدور الفصح الليتورجيّ، إذ أصبحَ يتضمّنُ تحضيرًا زمنيًّا ليتورجيًّا، بالاحتفال في يوم الميلاد (٢٥ كانون الأوّل)، ثم بتهنئة العذراء أمِّ الله (٢٦ كانون الأوّل)، يليها الظّهور الإلهيّ (٦ كانون الثّاني) ويُختَمُ هذا الدّور بعد

أربعين يومًا في ذكرى دخول السيّد إلى الهيكل ولقاء سمعان الشّيخ (٢ شباط). ففي الميلاد، تَحتفِلُ الكنيسةُ بميلاد المسيح كانكشافٍ لليهود والأُمم (الرّعاة والمجوس) للإلوهيَّة الظّاهرة في جسدٍ بشريٍّ؛ بينما تَحتفلُ في الظّهور (وهو عيدُ الأنوار) في الذكرى القديمة لمعموديّة المسيح في الأردن. من هنا فإنّ الآراء تتَّجه بمجملها إلى أنّ ارتباط الاحتفال بالأكاثستوس بعيدِ البشارة بات ضعيفًا، وهو يُشيرُ بحسب الدّور الميلاديّ الليتورجيّ، الَّذي ذكرناهُ سابقًا، إلى أنّ الاحتفال بها يدخلُ ضمن سرِّ التجسُّد، بالاعتماد الأساسيّ على نصِّ لوقا ١: ٢٦-٣٨، إذ إنّ العيدَ المريميَّ الأوّل هو **"عيد تهنئة العذراء"** والَّذي تَحتفِلُ به الكنيسةُ في السّادس والعشرين من شهر كانون الأوّل من كلّ عام، وهذا مُثبَتٌ في زمن ما قبل أفسس ومحفوظٌ في الكنائس النّسطوريّة والسّريانيَّة تحت عنوان "التَّهنئة" حتّى يومنا الحاليّ. فالليتورجيَّةُ البيزنطيّةُ تَضَعُ نصَّ متّى ٢: ١٣-٢٣ "الهرب إلى مصر والعودة منها" كنصٍّ إنجيليٍّ أساسيٍّ لعيد تهنئة العذراء. استنادًا إلى كلِّ ما تقدّم، فإنّ الأكاثستوسَ لم تُؤلَّفْ للاحتفال بعيدٍ مريميٍّ محدَّد، بل كُتِبَتْ بهدف احتفال الكنيسة **"بسرِّ أمِّ الله"** بناءً على النّصوص الإنجيليَّة لطفولة المسيح والاقتراب من السرِّ الفصحيِّ للمسيح القائم من خلال فهم وعيش الطقوس الليتورجيّة "النَّصّ الكنسيّ" والشّهادة للإيمان الشخصيّ الخاصّ، وهذا ما جعل الكنيسة البيزنطيَّة تَحتفِلُ في السَّبت الخامس من الصّوم الأربعينيّ المقدّس "بسبت الأكاثستوس" لارتباطه **"بسرِّ المسيح المتجسِّد، المائت والقائم"**.

قراءةٌ تحليليَّةٌ لاهوتيَّةٌ ورمزيَّةٌ لمواضيع القسم الأوّل

- **البشارة**

البيت الأوّل: مبادرةُ الله في الحَبَل البتوليِّ جَعَلَتِ العذراء قلب الخليقة الجديدة، عرش الله، ما وراء شرائع الطَّبيعة. فالملاكُ في الحقيقة، جاءَ مُسبَقًا ليُؤَدِّيَ، في مريم، التَّحيَّةَ للكلمة الَّذي صار جسدًا في الرَّحم. إنّه حدثٌ في طَور الاكتمال: الفرحُ الَّذي أُعلِنَ اليوم، سيكونُ غدًا الفرحَ الَّذي يُزيح، بطريقةٍ نهائيَّةٍ، الإدانةَ القديمة. وهكذا، تَحتَفِلُ الأكاثستوسُ في تاريخ الخلاص عبر أبعادٍ ثلاثة – الماضي، الحاضر والمستقبل – تَلتقي في التجسُّد الافتدائيّ الَّذي يُعلِنُ أيضًا السرَّ الفصحيَّ. فالأكاثستوس تُرنِّمُ مريمَ كنقطة انطلاقٍ لفهم كلِّ هذا التّاريخ.

البيت الثاني: مريم، المخلوقةُ الإنسانيّة، وُجِدَتْ أمام حدثٍ غير مفهومٍ ملأَها من الدّهشة. فلقد كانت تُعتبر حالة بقاء البنت عذراء في البيئة اليهوديّة كعقابٍ أو حتّى كلعنة. من هذا المنطلق، فإنّ حريّة اختيار البتوليّة تبدو غير واردة بتاتًا. أمّا في حالة مريم، فالأمر مختلف تمامًا، إذ إنّ هذا البيت يجد خلفيّته في إنجيل لوقا، حين قالت مريم للملاك: "كيف يكون هذا ولا أعرف رجلاً؟" (لو ١: ٣٤). إنّ صيغة مريم في هذه الآية فريدةٌ من نوعها في الكتاب المقدّس كلِّه، إذ إنّنا نقف أمام حالةٍ فريدةٍ في تاريخ الخلاص، تجسُّد

ابن الله[٣٨]. **فبتوليّة مريم ليست مجرّد تقشّفٍ وزهدٍ بشريٍّ، بل لها سِمَةٌ إلهيّة تكمن في جَعلها** [مريم] **مكانًا لكشف الحبّ الإلهيّ للإنسان** الَّذي يقابله هذا الأخير بالتخلّي عن مشيئته الخاصّة لإتمام مشيئة الآب بالطّاعة.

تَقف مريم خاشعةً أمام هيبة هذا الحدث الإلهيّ [التجسُّد] الَّذي يستحيل على العقل البشريّ أن يتصوّرَه وعلى المنطق الإنسانيّ أن يُدركه. إلا أنّ مريم استطاعت إدراكه بإيمانها النيِّر، وباستسلامها لإرادة الله، وبتبنّيها لتدبيره الخلاصيّ كأساسٍ روحيٍّ لحياتها.

البيت الثالث: العذراءُ بسؤالها "كيف" بدأتْ تُدركُ السرّ من خلال المعرفة الاختباريَّة لله. فمريمُ الآن، هي السُلَّمُ الحقيقيُّ ليعقوبَ الَّذي بواسطته تنازلَ الله وهي، في الوقت نفسه، الجسرُ الَّذي يُصعِدُ الأمواتَ إلى السَّماء. فلقد أرادتِ العذراءُ أن تَعرِفَ **"الكيف"** الَّتي تَجعلُها تُلائِمُ نفسَها مع أمومةٍ لا تُعطِّلُ أبدًا البتوليّةَ بقدر ما تُحقِّقُ فيها ومن خلالها سرًّا إلهيًّا. مع أنّ الملاك لم يَستَطِعْ قول "كيف" لهكذا حدثٍ مُعجزِ البيان، فاحتفل بالثيوطوكس كأوّل مُتَقَبِّلَةٍ للأسرار الفائقة الطّبيعة. فالعذراءُ الأُمّ هي مَن

---

[٣٨] يؤكِّد القدّيس **أثناسيوس الإسكندريّ** أنّ كلمة الله تجسَّد ليُعيدَ معرفة الله ويُبطل الخطيئة، ويؤلِّه الإنسان ويوحِّدَه بالله بموهبة الرّوح القدس، ويمنحَه الخلود. فالتجسُّد يهدف إلى الفداء. الكلمة يتجسّد ليعيدَ الإنسان إلى أصله، إذ إنّه مخلوقٌ على صورة الله. فلاهوتُه إذن يتلخَّص في الفكرة الرئيسة في لاهوت الآباء اليونانيّين: "تجسَّدَ كلمة الله ليؤلِّه الإنسان" (راجع: مجموعة باحثين، **تاريخ الفكر المسيحيّ**، ص٤٦١).

مُنِحَتْ **"معرفةَ"** الحدث من خلالِ اختبارٍ شخصيٍّ مُتَعذِّرٍ إبلاغُهُ أو قولُه للآخرين، إذ إنّها تَحَوَّلتْ هي نفسُها إلى سرِّ إيمانٍ، مُتعذِّرٍ بلوغُهُ على ذوي المعرفة العقليَّة الإنسانيّة **"حكماءِ هذا العالم"**، لأنّهُ خُلاصَةُ الحقيقة الخلاصيّة.

البيت الرابع: لأنّ الرُّوحَ القدسَ ملأَ جسدَها، فقد جَعَلَها حُبلى بطريقةٍ إلهيَّةٍ تُعجِزُ البيان. مُظَلَّلاً من فضيلة العَلِيِّ، أصبحَ رَحِمُ مريم حقلَ حِنطةٍ **"قمح"** لكلِّ مَن يرغَبُ في أن يَحصُدَ بالإيمان خلاصَه الشخصيَّ الخاصّ.

- **الزّيارة** "زيارة مريم لأليصابات"

البيت الخامس: مريمُ الممتلئةُ بالمعرفة والنّعمة الإلهيَّة نَشَرَتِ الكنيسةَ المجتمعةَ حول الكلمة المتجسِّد. فبعدَ أن نالتْ مريمُ هبةَ الله وأصبحت مشتركةً فيها، جاء دورُ يوحنّا ثم باقي أفراد عائلة زكريّا.

في خلفيَّة هذه التَّحيّات، تَقِفُ نبوءةُ أشعيا ١١: ١-٩ (جذع يسّى) الَّتي تُذكِّرُنا بنصِّ إنجيل لوقا ١: ٤٢-٤٤ (مباركةٌ ثمرةُ بطنِكِ) وأيضًا لوقا ١: ٨-١٧ (الأعمالُ الكهنوتيّة لزخريَّا واستجابةُ صلاتِه)، لتُظهِرَ هذه النّصوصُ أنّ مريم هي جذع الغصن المقدّس؛ إنّها الحقلةُ الَّتي تُنبت (حرفيًّا **"تَفلَحُ"**) الفلاَّحَ نفسَه؛ إنّها المائدةُ حيث تُوضَعُ خُبُزاتُ الرَّحمات الإلهيّة؛ إنّها المكانُ المقدَّسُ والمُثمِرُ، حيث يَجِدُ فيه المؤمنون القوت والملجأ. فحياتُها البتوليّةُ الَّتي تَجذِبُ الخيرات الإلهيَّة (راجع لو ١: ٣٠) هي كشذا (عبير،

طِيب، عِطر...) بخور المصالحة: لأجلها، ليس فقط زخريًّا، بل كلّ إنسانٍ يستطيعُ بالإيمان أن يكونَ قريبًا من الله: **إنّها كنيسةُ زيارة الله للبشر.**

- **شكّ يوسف**

البيت السادس: حتّى يوسف الَّذي راوَدَهُ الشّكُّ في قلبه، تَقَبَّلَ تاليًا المعرفةَ وهبةَ الله. فيوسُفُ الَّذي أَضاءَه الله من العلاء، خَرَجَ عن أفكاره البشريَّة المتناقضة والمتغايرة (هي أن يَكشِفَ الإنسانُ عن وجوهِ اختلافٍ قويَّةٍ عند مقابلته بشيءٍ آخر) وأدركَ، بواسطة الإيمان وفي الفرح المُوحَى، السِّرَّ الإلهيَّ للأمومة البتوليَّة "من الرّوح القدس".

- **عبادة الرّعاة**

البيت السابع: الرّعاة، جاؤوا لِيَعبدوا الكلمةَ المولودَ من مريم ويُبشِّروا به. إنّهم يُمثِّلونَ نمطَ الرُّسلِ والشّهداء؛ فالرّعاةُ الحقيقيّونَ للكنيسة همُ الَّذين يُبشِّرونَ بإنجيلِ المسيح. إنّ الرُّعاةَ الَّذينَ أسرعوا لرؤية **"الرّاعي"** النّازلِ من السَّماوات، تفاجأوا عندما وَجَدوهُ **"كحملٍ بريءٍ"**. فمواضيعُ **المسيح– الرّاعي** و **المسيح– الحمل** (وبالتّوازي **المسيح–الكلمة** و **المسيح– القوت**) تتمازَجُ بعضُها مع بعض. فالرُّعاةُ الَّذين اندفَعوا بسرعةٍ إلى بيت لحم هم الشَّعبُ الَّذي أتى إلى الكنيسة بجذلٍ وفرح؛ هم قطيعُ المؤمنين الَّذي يُحوَّطُ بسياج الرّاعي؛ هم رُسُلُ اليوم الَّذين ما زالوا يُعلِنونَ المسيحَ الَّذي أعلنَهُ رعاةُ بيت لحم في الأمس؛ إنّهم ذخائرُ وأيقوناتُ الشّهداء، الَّذينَ شَهِدوا للمسيح واعترفوا به حتّى ساعة استشهادهم.

وانطلاقًا من السِّرِّ المحتَفَل به ميستاغوجيًّا[٨٩] **"Μυσταγωγός" تَظهَرُ مغارةُ بيت لحم في الأمس على أنّها المائدةُ الإفخارستيَّةُ اليوم**. فالاحتفالُ البيزنطيّ لليتورجيَّة الإلهيَّة يُصَوِّرُ مريمَ مأوى **"الخراف الصَّغيرة العاقلة"** (اكليمنضوس الاسكندريّ) المُحكَم الإغلاق على أعداء الإيمان، وفاتحةَ أبواب السَّماء: هذا ما جعل الكنيسة البيزنطيّة تضعُ أيقونةَ البشارة على الباب الملوكيّ، ليدخُلَ منه المُحتَفِلُ (الكاهن أو الأسقف) ويخرجُ وكأنّه صورةُ المسيح، تَتميمًا لِما قد رآهُ حزقيال في ٤٤: ١-٤: "البابُ الَّذي لن يدخلَ منه إنسانٌ إلاّ الرَّبّ إله إسرائيل".

إنّ النّشيدَ المثلَّثَ التَّقديس يُرافِقُ دخولَ إنجيل المسيح؛ ويُعلَنُ نصٌّ من الرسل؛ ويُعترَفُ جماعيًّا بالإيمان؛ ثمّ تَحتفِلُ دورةُ القرابين بموت السيِّد الَّذي عَرَّى الجحيم وجهنّم، وبقيامته من بين الأموات الَّتي أُلبسنا بها المجد. في هذه اللحظات، تَحضُرُ مريم، أُمُّ الرّاعي الحقيقيّ (راجع يو ١٠) الَّذي يُشرِفُ على القطيع وهي، في الوقت عينه، أُمُّ الحمل الطّاهر الَّذي قدَّمَ ذاتَه ذبيحةَ الفداء على المائدة الافخارستيّة.

- **عبادة المجوس**

البيت الثامن: المجوسُ الَّذين اتّبعوا النَّجمَ يُجسِّدونَ البشرَ الَّذين قبلوا البُشرى وساروا نحو معرفة واختبار الله الحقيقيّ. فالمجوسُ الَّذين رأَوا النَّجمَ العجيب، واتَّبعوا مسيرَه، يرمزونَ إلى مسيرة الموعوظينَ الَّذين سَمِعوا

[٨٩] لمعلوماتٍ أشمل وأعمق عن **المستاغوجيَّة**، أنظر الملحق رقم (٦).

إعلانَ الكلمة من رُعاة الكنيسة، وساروا على ضوئها نحو المعرفة الكاملة للإله الحقّ.

البيت التاسع: المجوسُ الَّذين وصلوا إلى البيت حيث وجدوا الطّفلَ مع مريمَ أُمِّه (مت ٢: ١-١٢)، نبذوا الشَّيطانَ وعبادةَ الأوثان وكلَّ أعمال الشّرّ، والتَزموا واتَّحدوا بالسيِّد الوحيد الحليم، المسيح المتجسِّد. إنّهم مثالُ الموعوظين الَّذين وصلوا إلى جرن المعموديّة ورفضوا الشَّيطانَ والعالم واعترفوا بالإيمان: إنّهم قد رَفَضوا الشَّيطانَ عدوَّ البشر، وقبلوا المسيحَ صديقَ البشر.

فالليتورجيّةُ البيزنطيّةُ كانت تَحتَفِلُ قديمًا بالمعموديّة في لحظتَينِ منفصِلَتَين: طقسِ التَخَلّي أو نكران الذات، وفيه إعلانُ رفضِ الشّيطان والتخلّي عن سياساتِه وأباطيلِه... ويُقامُ يوم الجمعة العظيمة، وطقسِ التَّغطيسُ العِماديّ، وفيه إعلانُ الإيمان بالمسيح المخلِّص من عبوديّة وأَسر الشّرّ، ويُقامُ ليلةَ السَّبت المقدّس **"سبت النّور"**: **إنّه النَّهارُ السِّرّي "لاستنارتِهم الروحيّة"**: مريمُ هي أُمُّ النَّجم الحقيقيّ الَّذي لا يَضمَحِلُّ (يتلاشى) والَّذي يُوضِّحُ نورَ الإيمان الممتلئَ في الله الواحد والثّالوث؛ ولأنّها أيضًا الأُمُّ الَّتي أَظهَرَتِ المسيحَ كربِّ الرّحمة والرّأفة، فهي تَجذِبُ الجميعَ إلى المعرفة الحقيقيّة وإلى الطّريق الصّحيح، وذلك لأنّ المسيحَ هو "الطّريقُ والحقّ والحياة" (يو ١٤: ٦).

البيت العاشر: هيرودسُ الَّذي لم يَشأْ أن يُقبلَ إلى الإيمان، بَقِيَ قابِعًا في ظُلُماتِ الجهل، بينما المجوس، بعد أن أَتَمُّوا العملَ بمشيئةِ الله، بالعودةِ إلى بلادِهم (مت ٢: ١٢) تحوَّلوا إلى مُبشِّرين بالإنجيل، عبر رؤيتهم وإيمانهم. فرسالةُ الإيمان تُرافِقُ شهادةَ الحياة، وعلى جميع المعمَّدين إنجازها كالمجوس، عندما يَعودونَ إلى ديارهم: إنّهم سُفراءُ المسيح (٢كو ٥: ٢٠) والشَّاهدونَ على الحقيقة في مسيرتهم الجديدة (إذ إنّهم أصبحوا خليقةً جديدة) نحو أرضهم.

- **الهرب إلى مصر**

البيت الحادي عشر: يَروي متّى ٢: ١٣-٢٣ هربَ الطِّفل يسوع مع أُمِّه ويوسُف إلى مصر، وإقامةَ وعودةَ العائلة المقدّسة من مصرَ إلى الأرض الموعودة. لاقتراح كتابةٍ ميلاديّةٍ ومعًا فصحيَّةٍ للحدث، يَضَعُ النَّشيدُ في قِسمِهِ التَّفسيريّ، توكيدًا لدخول السيِّد إلى أرض مصر، مستَذكِرًا بطريقةٍ علنيَّةٍ ومُظهِرًا اكتمالَ نبوءة **أشعيا ١٩: ١-٢٥**: "قولٌ على مصر: هوذا الرَّبُّ يَركَبُ على غَيمٍ سريعٍ ويَدخُلُ مِصر، فَتَضطَرِبُ أَوثانُ مِصرَ من وجهِهِ...". **إنّ "الغَيمة" تَرمزُ إلى مريم وتَرِدُ في كثيرٍ من عظات القرن الخامس الميلاديّ.**

تُعيدُنا نبوءةُ أشعيا أيضًا إلى موضوعٍ أساسيٍّ هو خروجُ الإسرائيليِّينَ من مصر، عبورُهم البحرَ الأحمر، غَرَقُ فرعون، واجتيازُ الصَّحراء [قيادتُهم من عمود غمامٍ ونارٍ، إطعامُهم المَنّ وإطفاءُ عطشهم من الصَّخرة] نحو أرض الميعاد. إنّ كتابةَ رموز هذه الأحداث في الاحتفالات الفصحيَّة لكلِّ الكنائس تَرقى إلى الرُّسل. فنقرأُ مثلاً ما جاء على لسان

بولس في رسالته الأولى إلى أهل كورنثس ١٠: ١-٤: "فلا أُريدُ أن تَجهَلوا، أيُّها الإخوة، أنّ آباءنا كانوا كلُّهم تحت الغَمام، وكلُّهم جازوا في البحر، وكلُّهم اعتَمَدوا في موسى في الغَمامِ وفي البحر، وكلُّهم أَكَلوا طعامًا روحِيًّا واحِدًا، وكلُّهم شَرِبوا شَرابًا روحيًّا واحِدًا، فقد كانوا يَشرَبونَ من صخرةٍ روحيَّةٍ تَتبَعُهم، **هذه الصَّخرةُ هي المسيح**".

إنّ مسيرةَ الشَّعب المرمَّم الَّذي خرجَ من جرن المعموديّة كما خرجَ إسرائيلُ قديمًا من مصر عبر البحر الأحمر متوجِّهًا نحو أرض الميعاد، هي مسيرةٌ متوجِّهةٌ نحو **الامتلاء في المسيح**. هنا، تُقدَّمُ مريمُ على أنّها **"البحرُ"** الَّذي غرَّقَ الشَّيطانَ "الفرعونَ الحقيقيّ"، "الفرعونَ العقليّ" كما يَدعوه أوريجانوس وأمبروسيوس؛ إنّها عمودُ النّار الَّذي أحضرَ المسيحَ – النّورَ، قائدَنا؛ إنّها الغمامُ المُنعِشُ **"المُرَطِّبُ"** الَّذي وَهَبَ المسيحَ قيامتَنا للعالم المائت؛ إنّها **"الصَّخرة"** الَّتي تَسيرُ مع الشّعب، مُروِيَةً إيّاه بماء الحياة؛ إنّها **"المُولِّدةُ"** الدّائمةُ للمَنِّ السَّماويّ؛ وهي **"كوسيطةٍ"** تَتَولَّى بعنايتها مسيرةَ شعب الله، الَّذي يتوقُ، بوَساطتِها، إلى لقائِه المسيحَ المخلِّص.

وبما أنّ المسيحَ هو الماءُ الحيّ (راجع يو ٤: ١٠-١٥؛ ٧: ٣٧-٣٩ وهي نصوصٌ ذاتُ طابَعٍ عِمادِيٍّ بارز)، وهو خبزُ الحياة النّازلُ من السَّماء (راجع يو ٦: ٣٢-٥٨ وهو نصٌّ فِصحِيٌّ وعِمادِيٌّ نموذجيّ)، فمريم هي الَّتي وَلَدَتْهُ وهي الَّتي ستَستَمِرُّ على إعطائِه للمؤمنين: **إنّها القَطرَةُ الَّتي تُنعِشُ شعبَ الله الجديدَ في الصَّحراء بماء الحياة، وهي الَّتي تُغذِّيهِ بالخبزِ السَّماويِّ**؛ بكلماتٍ أخرى، **إنّها أرضُ الميعادِ الحقيقيّة لجميع الشُّعوب الرّاغبة في معرفة الله،**

واختباره بالإيمان الشخصيِّ المَعيش، حيث اللقاءُ مع السيِّد المولود منها، وحيث أصبحتْ هي "الحليبُ والعسل" كتعبيرٍ مجازيٍّ للغذاء الروحيّ لكلِّ مَن يأتي إليه.

- **اللقاء مع سمعان**

البيت الثاني عشر: إنّ سمعانَ، وبحسبِ الأوريجانيّينَ والكبّاذوكيّين، يُمثِّلُ المحطَّةَ الأخيرة الَّتي يُمكِنُ أن يَبلُغَها إنسانٌ على هذه الأرض، والَّتي تقومُ على "المعرفة" والاختبارِ الروحانيِّ للسِّرّ أي **التَّأمُّل الروحيّ [المشاهدة الرّوحيّة للإلهيَّات "Θεωρία"]** (راجع حاشية رقم ٦٢، ص١٣٧)، إذ لا يستطيع أحدٌ، في الحقيقة، أن يَعرِفَ اللهَ بالجسدِ المحسوس، إذا لم يَبلُغْ قمّةَ المسيرة الروحانيّة، التَّنقية "التَّطهير".

يَكتبُ باسيليوس الكبير في عِظةٍ له عن ميلاد المسيح، مُتحدِّثًا عن شخصيَّتَين كتابيَّتَين هما حنّةُ وسمعان، الَّلذين عاشا حالةَ الانتظار المسيحانيّ وشاهدا، بأُمِّ أعينِهما، تحقيقَه في الزّمن، بالطِّفلِ يسوع، يقول: "حنَّةُ المُبشِّرةُ وسمعانُ الَّذي حَمَلَ الطِّفلَ بين ذِراعَيه، عابِدًا فيه اللهَ الكبير، غيرَ مُستَخِفٍّ بالَّذي رآه، بل مُحتَفِلاً بعَظَمَةِ أُلوهيَّتِه. ففي الحقيقةِ أنّ القدرةَ الإلهيَّةَ قد ظَهَرَتْ من خلال الجسدِ البشريّ، كنورٍ عَبرَ البِلَّور، مُضيئًا على الَّذين حَصَلوا على القلبِ الطّاهر والنَّقِيّ".

إنّ لقاءَ سمعان الشيخ بالطِّفل يسوع يُشكِّلُ نقطةَ ارتكاز المحطّات الأساسيَّة للشَّعب المرمَّم الخارج من جرن المعموديّة، كالانقياد من الرّوح

القدس، واقتناء المعرفة المثاليَّة "الكاملة" (أو "التَّأمّل الحقيقيّ") واكتشاف الحقيقة الإلهيَّة للمسيح والمخطَّط الإلهيّ للآب.

خلاصة القسم الأوّل:

إنّ النَّشيدَ يُفتَتَحُ ببشارة مريم من الملاك الَّتي تأخذ حيِّزًا واسعًا لأهميَّتِها اللاهوتيّة، إذ إنّه مع مريم بدأَ سرُّ الكنيسة، عروسِ الكلمة، من خلال عطيَّة الله (البيت ١) وتَقَبُّل الخليقة (بيوت ٢-٤)؛ بواسطة مريم، سُكِبَتْ معرفةُ الكلمة المتجسِّد ونعمتُه، على يوحنّا المعمدان وبيت زكريّا (البيت ٥)، ثمّ على يوسف (البيت ٦)، وقد ظهرتْ بطريقةٍ اعتلانيَّةٍ للرّعاة، رمزِ الرّسلِ المبشِّرين والشّهداء (البيت ٧)، وللمجوس، رمزِ الشّعوب الوثنيَّة الَّتي عَرَفَتِ الإيمان (البيوت ٨-١٠) وأخيرًا، على جميع شعب المؤمنين، أي على الكنيسة الخارجة بطريقةٍ روحيّةٍ من مصر نحو الوطن الأمّ "المدينةِ المقدّسة أورشليمَ الجديدة" (البيت ١١)؛ ونَجِدُ في سمعان، الَّذي أظهرَ المسيحَ نورًا لكلِّ الأُمم ومجدًا لإسرائيل، رمزًا رفيعَ المستوى لإنسانٍ وَصَلَ إلى المعرفة الإيمانيّة المثاليَّة، لسرِّ الكلمةِ الَّذي أصبحَ بشرًا لأجل خلاصنا (البيت ١٢).

٢) البُعد العقائديّ والإكليزيولوجيّ (الكنسيّ)

١. البُعدُ المسيحانيّ (الكريستولوجيّ):

يتلخَّصُ هذا البُعدُ في ثلاثِ حقائقَ كريستولوجيّة اللاهوت، نَلحظُها في: **"الحبل البتوليّ"** (البيت ١٣)، و**"الأمومة الإلهيَّة"** (البيت ١٥)، و**"الولادة البتوليَّة"** (البيت ١٧).

٢. البُعدُ الكنسيّ (الإكليزيولوجيّ):

ثلاثُ حقائقَ أخرى ذاتُ أبعاد إكليزيولوجيَّة اللاهوت، تَظهرُ بوضوحٍ في **"بتوليَّة مريم المكرَّسة لسُكنى الكلمة"** (البيت ١٩)، و**"الحضور الأموميّ الرّوحيّ للثيوطوكس** ، المرتبط بجوهره **بأمومة مريم الإلهيَّة** الَّتي تَمنحُها صلاحيَّةَ استمرار ممارسة **أمومتها في الكنيسة"** (البيت ٢١)، و**"حمايةُ البتول السَّماويّة"** (البيت ٢٣).

إنّ هذه الحقائقَ الثّلاث تتضمّنُ ثلاثةَ نماذجَ لحضور مريم الإكليزيولوجيّ، إذ تَضَعُها مِثالاً يُقتَدى به أمام العذارى، وأمام المؤمنين الَّذينَ أُعيدَ إحياؤهم من جديدٍ في المعموديّة، وأخيرًا أمام الكنيسة في مسيرتها نحو أرض الميعاد الإسكاتولوجيَّة "السَّماء".

قراءةٌ تحليليَّةٌ لاهوتيَّةٌ ورمزيَّةٌ لمواضيع القسم الثاني

١. البُعد الكريستولوجيّ:

- **الحَبَل البتوليّ**

البيت الثالث عشر: الحبلُ البتوليُّ يُعيدُ الفِردوسَ المفقودَ على الأرض، لأنّ الخالِقَ نَزَلَ إلينا، باحِثًا عن خليقته السقيمة والعقيمة الخاطئة. يَصِفُ هذا البيت الفردوسَ المفقود، الَّذي طُرِدَ منه المذنبون، إلاّ أنّه لا ينفي وجودَ فردوسٍ آخر ازدهرَ من جديدٍ في مريم بواسطة حياتها البتوليّة وبتوليَّتها الخصبة، إذ أصبحت هي شجرةَ الحياةِ الحقيقيّةَ الَّتي تُغذّي المؤمنين. مريمُ هي حوّاءُ الجديدة، حوّاءُ البتول، الَّتي نَفَخَتْ حياةً جديدةً (راجع يو ١٠: ١٠، ٢٨) هي "الكلمة المتجسّد" في المؤمنين.

نُلاحِظُ أنّ تحيَّاتِ هذا البيت تلمِّحُ ضمنًا إلى مواضيعَ طَرَحَها سفرُ التّكوين في ٢: ٨-٢٤ (الفردوس المفقود وخلق المرأة) وفي ٣: ١-١٣ (الإغواء أو الإغراء"من قِبَلِ الحيّة"، والتَّعرِيَة وقضاء الله). إنّ وُجهةَ نظر آباء القرن الرّابع الميلاديّ – أثناسيوس، الكبّاذوكيّون، أمبروسيوس ويوحنّا فم الذهب – وآباء القرن الخامس الميلاديّ، تكمنُ في رؤيةِ "البتول" كهديَّةٍ أُعطِيَتْ مع الخلق وفُقِدَتْ من قِبَلِ حوّاء، لأجل سماعها إغراءَ الحيّة، حيث دَخَلَتِ الخليقةُ مرحلةً جديدةً تَمَيَّزَتْ بالفساد والتَعَفُّن والخطيئة... إنّها الَّتي أَلغَتِ المعصِيَةَ وفتحتِ الفردوس.

أمام هذا الواقع الجديد للبشريَّة الَّتي فقدتْ صورةَ الله، كان لا بُدَّ من حوّاءَ جديدةٍ تُصلِحُ بانجذابها نحو طاعة الله ما أَفسدَتْهُ القديمةُ بإغوائها. مع مريم، حوّاءَ الجديدة، ومع نَمَطِ عيشها في اللافساد، لاحَتْ في الأُفُقِ ملامِحُ البتوليَّة المفقودة على الأرض والشَّبيهة بالملائكة؛ فيها، أَزهَرَ الفردوسُ الجديد شجرةَ الحياة؛ فيها، نَزَلَ، ليقودَ الخاطئينَ ويدعوهم ثانيةً إلى الفردوس المفقود، **القاضي نفسُه** الَّذي وبعدلٍ أدانَنا وحَكَمَ علينا: لأنّ مريمَ بقدسيَّة حياتِها أصبحتْ هي حامية المصالحة بين الله والبشر ورِداء الَّذين تَعَرَّوا من النِّعمة الإلهيَّة.

البيت الرابع عشر: إنّ العَلِيَّ إذ تنازلَ إلينا، فقد هَدَفَ إلى اجتذابِنا إلى الأعالي من جديد، أوّلاً بالمعرفةِ التَّأمُلِيَّة، ثم بالمجدِ الإلهيّ. وبحسبِ النّظرةِ الإنجيليّة، لا أحدَ يستطيعُ أن يَصعدَ إلاّ الَّذي نَزَلَ (راجع يو ٣: ١٣)، ولأنّه نَزَلَ لأجلنا، فالجميعُ أصبح باستطاعتِهم الصُّعودُ وراءَه نحو الحقيقة السّماويّة. استنادًا إلى هذه النّظرة، يَستعيدُ العائدونَ إلى السيِّد حياتَهم في ملكوت السّماوات.

- **الأمومة الإلهيَّة**

هناك مَن لم يتقبَّلْ هذه العقيدةَ الَّتي حدَّدها لاحقًا مجمعُ أفسس ومجمعُ خلقيدونية، إذِ اعتبرَ آباءُ المجمعَين القدّيسونَ أنّ مريم بأمومتِها الإلهيَّةِ هذه، أصبحتْ مجدًا وافتخارًا لكلِّ المسيحيّين الأرثوذكسيّين (المستقيمي الرأي). فالخلاصُ الَّذي أتانا به المسيحُ لا يتوقَّفُ فقط على مَحوِ الخطيئة

وإنهاءِ الإدانة، بل يتعدّاهُما ليكونَ دخولاً في مشاركةٍ معه، فالكلمةُ الأبديُّ يَهَبُنا الحياة الَّتي تعني الدّخولَ في معرفتِه وفي اختبارِه "والحياةُ الأبديَّةُ هي أن **يَعرِفوكَ** أنتَ الإلهَ الحقَّ وحدَكَ، و**يَعرِفوا** الَّذي أرسلتَهُ، يسوعَ المسيح" (يو ١٧: ٣): **الخلاصُ، في الحقيقةِ، هو الكلمة**. مريم، ولأنّها الثيوطوكس فهي **"البابُ"** الَّذي يُدخِلُنا إلى السرّ، وهي عينُها، **"مفتاحُ"** ملكوت المسيح (البيت ١٥).

البيت الخامس عشر: الأمومةُ الإلهيَّة، بعد السِّرِّ الثَّالوثيّ، تَفتَحُ للأمواتِ الكنوزَ الإلهيَّة وتُقيمُهم من سرِّ الهاويّة، إذ إنّ رائحةَ أمومتِها الإلهيَّةِ العَطِرَة، تَصعَدُ كبخورٍ ذكيٍّ أمام عرشِ الله، الَّذي أعطى العالَمَ بواسطتِها المخلِّصُ والخلاص. إنّها، في الحقيقة، حدثٌ يجبُ أن يُعتَرَفَ به كحقيقةٍ إيمانيّة، إذ إنّها البابُ الَّذي من خلاله نستطيعُ إدراكَ البُعدِ السِّرِّيّ لسرِّ التجسُّد الإلهيّ (**ميستاغوجيّة مريم هي أنّها تَكشِفُ لنا مضامينَ هذا السِّرِّ الَّذي يَعجِزُ عن وصفِه وإدراكِه العقلُ البشريّ**[٩٠]): إنّها حقًّا **عرشُ الله**، إنّها الأكثرُ ضياءً وبهاءً من السِّيرافيم الوّاقِفينَ أمام العرشِ السّماويّ يُسبِّحونَ الله بأصواتِهم الملائكيّةِ العذبة (أش ٦: ١-٨)؛ إنّها **المَسكِنُ الحيّ**، الأكثرُ استحقاقًا من الشِّيروبيم، لمجد الرَّبِّ النّازل إلينا (حز ١: ٤-٢٨).

---

[٩٠] هذا ما تؤكِّده الليتورجيّةُ البيزنطيّة، إذ تُعلِن في نشيد السيّدة (اللحن الرّابع): "إنّ **السِّرَّ الخفيَّ منذ الأزل**، والمجهولَ عند الملائكة، قد **ظَهَرَ** للَّذين على الأرض **بكِ** يا والدةَ الإله، وهو الإلهُ تجسَّدَ باتِّحادٍ لا اختلاطَ فيه، وتقبَّلَ الصَّليبَ طَوعًا من أجلِنا، وبه أقامَ أوَّلَ مَن جُبل، وخلَّصَ من الموت نفوسَنا".

فهي، لأجلِ ذلك، تَملِكُ القدرةَ، أكثرَ من بطرس، على مفاتيحِ الملكوت (مت ١٦: ١٨)، لتُدخِلَنا في مُلكِ المسيح، وتَهَبَنا الأملَ بالخيراتِ الأبديّة: "تبارَكَ اللهُ أبو ربِّنا يسوعَ المسيح، شَمَلَنا بوافِرِ رحمتِهِ فوَلَدَنا ثانيةً لرجاءٍ حيٍّ بقيامةِ يسوع المسيح من بين الأموات" (١بط ١: ٣).

البيت السادس عشر: الملائكةُ المُندَهِشون يتأمَّلونَ في معرفةِ الكلمة وألوهيَّتِه المتنازِلة نحو البشر. نَجِدُ خلفيَّةَ هذا البيت المدائحيّ الكتابيَّة في نصِّ رسالة بطرس الأولى الَّذي يؤكِّدُ أنّ الملائكةَ أيضًا يَقِفونَ مُتَعجِّبينَ في السَّماء ومتأمِّلينَ في سرِّ التجسُّد الَّذي جَعَلَ اللهَ المُتَعذِّرَ بلوغُه من الجميع، مألوفًا عند البشر: "... وكُشِفَ لهم أنّ قِيامَهم بهذه الأمورِ لم يَكُنْ من أجلِهم، بل من أجلِكم. وقد أَخبَرَكم الآنَ بتلك الأمورِ أولئك الَّذين بشَّروكم بها يُؤيِّدُهُمُ الرُّوحُ القدس المُرسَلُ من السَّماء، والملائكةُ يَشتَهونَ أن يُمعِنوا النَّظَرَ فيها" (١بط ١: ١٢).

- **الولادة البتوليَّة**

البيت السابع عشر: تَصِلُ الولادةُ البتوليَّة إلى نقطةٍ مميّزة من انعدام قدرة الفهم عند الحكماء، الفلاسفة والعُقَلاء وانكشافِ نور الحكمة الإلهيَّة "الرّوح القدس" للبُسَطاء والمؤمنين. فعدمُ إيمان الأثينيِّينَ ومَيلُهم إلى الاحتكام إلى الفلسفةِ كقدرةٍ أساسيَّةٍ للمعرفة والقضاء، تُشبهُ حالةَ زكريَّا في عدم إيمانه الَّذي صيَّرَهُ أبكمَ وغيرَ قادرٍ على التّعبير عن نفسه. فيُشبِّهُ مؤلِّفُ الأكاثستوس زكريَّا والأثينيِّين كالأسماك البُكم، غير القادرين على شرح بتوليَّة مريم بعد ولادتها العمّانوئيل، وقابعينَ في أفكارهم الخاصّة البعيدة

عن مفهوم الإيمان وقدرة الله "ما هو غيرُ مستطاعٍ عند البشر، مُستَطاعٌ عند الله" (مت ١٩: ٢٦؛ لو ١٨: ٢٧).

أمّا الخلفيَّةُ الكتابيَّةُ لهذا البيت الأكاثستوسيّ، فتكمنُ في نَصَّين: **(١) خطبة بولس في الأريوباغُس**[٩١] (أع ١٧: ١٦-٣٣): "وبينما بولسُ يَنتَظِرُهما في آثينة، ثارَ ثائِرُه إذ رأى المدينةَ تملأُها الأصنام... وكانَ أيضًا بعضُ الفلاسفةِ الأبيقوريّين[٩٢] والرِّواقيِّين[٩٣] يُباحِثونَه... "؛ و **(٢) حكمة العالم والحكمة المسيحيّة** (١كو ١: ١٨-٢٥): "... فقد وَرَدَ في الكتاب: "سأُبيدُ حكمةَ الحكماءِ وأُزيلُ فهمَ الفُهَماء". فأينَ الحكيم؟ وأين عالمُ الشّريعة؟ وأينَ المُلحِكُ في هذه الدّنيا؟ أَلَم يجعلِ اللهُ حكمةَ العالم حماقة؟...".

على الطَّرَف الآخر، نَجِدُ التّناقضَ الواضح في المواقف بين فلاسفة أثينا والمؤمنين الَّذين يُشكِّلونَ النّموذجَ الحيَّ لصيَّادي الجليل (مت ٨: ٢٣-٢٧؛ لو ٥: ٤-١١؛ يو ٢١: ٦-١١) الَّذين تَمَيَّزَ إيمانُهم بالبساطةِ والسذاجة... مريمُ هي هذه القدرةُ السِّرِّيَّةُ الَّتي تَجذِبُنا خارجَ جهلِنا، مانحةً إيَّانا نورَ المعرفة الحقيقيَّة؛ إنّها السَّفينةُ الَّتي تُخَلِّصُنا، وهي الميناءُ الأمينُ لكلِّ المُبحِرين

---

[٩١] يُمثِّلُ المركزَ الحضاريَّ للأثينيّين المثقَّفين.

[٩٢] **الفلسفة الأبيقوريّة:** أسَّسَها الفيلسوفُ اليونانيّ الوثنيّ أبيقور في العام ٣٠٦ ق.م في أثينا. لمعلوماتٍ تفصيليَّة، أنظر الملحق رقم (١٨).

[٩٣] **الفلسفة الرِّواقِيَّة:** هي مدرسةٌ فلسفيَّةٌ تأسَّستْ في العام ٣٠٨ قبل الميلاد في أثينا، عن يد الفيلسوف زينون الفينيقيِّ الأصل. لمعلوماتٍ تفصيليّة، أنظر الملحق رقم (١٩).

القادِمين إلى المسيح المولود منها والَّذي سيُشكِّلُ للجميع المحطةَ الأخيرة لِرُسُوِّ السَّفينة عند رصيف المرفأ.

البيت الثامن عشر: لأنّ كلَّ حدثٍ عجائبيٍّ يعتمدُ بفرادته على حريَّةِ إرادةِ الله الَّتي تبحثُ عن خلاصِ البشريَّة. وبالتّالي، لا يُمكن للعقل البشريّ أن يستوعبَ هذه الأحداثَ ويشرحَها. **فالتجسُّدُ هو حدثٌ اختياريٌّ وطَوعِيٌّ تمَّ إلهيًّا من قِبَلِ الله،** ليُصبحَ قريبًا منّا ويدعوَنا بلُطفٍ إليه، ليُلبسَنا من جديدٍ حُلَّةَ العرس، عرس الحمل الفصحيّ. إنّ هذا الحدثَ الإلهيّ يُجسِّدُ في الحقيقة مَثَلِ الابن الشّاطر، الَّذي عاشَ متغرِّبًا عن هُويَّتِهِ ومُتَعرِّيًا من شخصيَّته الحقيقيّة، كيف استقبلَه اللهُ المتجسِّدُ في شخص "الأب" بعطفٍ ورِقَّة ودعاهُ إلى أحضانه وألبَسَهُ حُلَّةَ البنوَّة من جديد: "... فقامَ ومضى إلى أبيه. وكان لم يَزَلْ بعيدًا إذ رآهُ أبوه، **فتحرَّكَتْ أحشاؤُه وأسرعَ** فألقى بنفسِهِ على عُنُقِهِ وقبَّلَهُ طويلاً... فقال الأبُ لخَدَمِهِ: أَسرِعوا فأتوا **بأفخرِ حُلَّةٍ وألبِسوه،** واجعَلوا في إصبَعِهِ خاتَمًا وفي قَدَمَيهِ حِذاءً..." (لو ١٥: ٢٠، ٢٢).

٢. البُعد الإكليزيولوجيّ:

- **البتوليَّة السَّرمديَّة "الأبديَّة" لمريم**

البيت التاسع عشر: البتوليَّةُ الدّائمةُ لمريم تَخُصُّ إيمانَ الكنيسة المُعتَرَفَ به من المجامع الشّرقيَّة والغربيّة دون استثناء، من آباءِ الكنيسة ولاهوتيِّيها (من القرن الرّابع إلى السّادس الميلاديّ)، من الليتورجيّة وأخيرًا من المؤمنين: **إنّها بتوليَّةٌ مكرَّسةٌ بفضل المسكن الجسديِّ للكلمة،** وقد

أصبحَتْ بدورها بدايةً ونموذجًا لكلِّ بتوليَّةٍ في الكنيسة، إذ تَبقى مريمُ هي المِثالُ الكامل والدّاعمُ الرئيسُ لكلِّ بتوليَّةٍ مكرَّسة.

فأبياتُ هذا القسم تَستعيدُ تعليمَ أثناسيوس والكبّادوكيِّين عن البتوليَّة، الَّتي تُجسِّدُ مريمَ كمرآةٍ للحياةِ العُذريَّةِ وقائدةٍ دائمةٍ للعذارى اللواتي يَسِرْنَ معها نحو العريسِ الإلهيّ. من هنا نؤكِّدُ أنّ بتوليّةَ مريم الدّائمةَ هي مِثالٌ لكلّ العذارى في اتّباع المسيح وحميميّةِ اللقاءِ مع العريس، إذ إنّ العذارى هُنَّ عمودُ الطّهارةِ المقدّسة، بابُ الخلاصِ الأبديّ وبدايةُ الذريَّةِ الجديدة. فالَّذينُ أُعطَوا الامتيازَ في اتِّباعِ نَهجِ الحياةِ البتوليَّةِ نفسِه الَّذي للبتول – المكرَّسينَ والمكرَّسات – فإنَّهم مدعوونَ إلى الخليقةِ الجديدة، الَّتي ليست من لحمٍ ودم، بل بالإيمانِ والرّوح على ما جاء في الإنجيل الرّابع: "... فَهُمُ [أي المؤمنونَ باسمِه] الَّذينَ لا مِن دمٍ، ولا مِن رغبةِ لحمٍ، ولا مِن رغبةِ رجلٍ، بل من الله وُلِدوا" (يو ١: ١٣). كنتيجةٍ لِما تقدّم، فإنّ العذراءَ مريم **تَدعمُ المسيرةَ الرّوحيَّةَ** للمكرَّسينَ والمكرَّسات، **الَّتي لن تَجِدَ كمالَها إلاّ في اللقاء مع العريس الإلهيّ**، خارج إطار ومحدوديَّة الزّمن الأرضيّ: **إنها طريقُ الاتِّحاد بالله.**

البيت العشرون: من مُسَلَّمات البتوليِّة المكرَّسة، هدفٌ واحِدٌ ووحيد، يتمثَّلُ في إعطاء التَّسبيح والمجد للسيِّد، وفي المواظبة على قراءة النّصوص الكتابيَّة وفي الصَّلاة المتواصلة المستمرّة، الَّتي تَجعَلُ العائشينَ في البتوليّة من مكرَّسينَ ومكرَّسات، مُستحِقّينَ الحصولَ على النِّعَم والخيرات

الإلهيَّة الغزيرة، الَّتي أَغدَقَها العَلِيُّ على الَّذين يُحِبُّونَه ويتَّقونَه، والَّتي لا تُحصَى ولا تُعَدّ.

- **أمومتها الروحيَّة في الكنيسة**

يَصِفُ هذان البيتان، بطريقةٍ شعريَّة، **الليلةَ الفصحيّة** الَّتي تؤكِّدُ النّهايةَ الخلاصيَّةَ للتجسُّد وتُعلِنُ سرَّ الآلام الفادية. وهنا، يَظهرُ بوضوحٍ الظَّرفُ أو البُعدُ التّاريخيّ للبشريَّةِ كلِّها بعد سقوطِها في آدم: **"الدَّين القديم"** ومعًا **"نحن الَّذين فَقَدنا النّعمة"**. فعالمُ الخطيئةِ هو في أساسِ خلفيَّةِ التّرميم، إذ إنّه وَقَفَ ضدَّ المشيئةِ الأبديّةِ للابن، الَّذي أَتى شخصيًّا وسَكَنَ فيما بيننا، نازلاً من السَّماوات، مُمزِّقًا صكَّ دَينِنا القديم. وهنا إشارةٌ مباشرةٌ تُذكِّرُنا بنصِّ رسالةِ بولس إلى أهل **كولسي**: "... كُنتُم أمواتًا أنتم أيضًا بزلاَّتِكم وقَلَفِ أجسادِكم، فأحياكُمُ اللهُ معه وصَفَحَ لنا عن جميعِ زلاَّتِنا، ومحا ما كانَ علينا من صَكٍّ وما فيه من أحكامٍ وأزالَ هذا الحاجِزَ مُسمِّرًا إيَّاهُ على الصَّليب" (كول ٢: ١٣-١٤). من هنا نُدرك أنّ أمومة مريم الإلهيَّة مرتبطةٌ كثيرًا بحدث آلام وقيامة المسيح، إذ إنّ **مريم**، في الحقيقة، **تتجلَّى كخادمة الليلة الفصحيَّة**، وقدِ افتتحَتْ موكبَ المؤمنين وراء القائم، الَّذي هو نورٌ لجميع المؤمنين. وعليه، فإنّ **التجسُّدَ مُتَّحِدٌ**، بطريقةٍ غيرِ قابلةٍ للانحلال، **بالفصح والأسرار الفصحيَّة** الَّتي تُجدِّدُ حياةَ المؤمنين. وبالتّالي، **فإنّ أمومةَ مريم الإلهيَّة**، كما تَظهرُ من هذه الزاوية، **تُصبَغُ بقيمةٍ خلاصيَّة**، لأنّ **مريم** بالتّحديد قد **أشعلَتِ النُّورَ الإلهيَّ**

في البشارة، **المسيحَ المتجسِّد، الَّذي تحوَّلَ في فصحه، إلى نور حياةٍ ومعرفةٍ للجميع.**

أخيرًا، تَظهرُ أمومةُ مريم، من وُجهة نظرٍ إكليزيولوجيّة، على أنَّها **"أمومةٌ فصحيَّة"**، الَّتي تَفتَحُ وتَدعمُ **مسيرةَ شعب الله نحو أرض الميعاد الإسكاتولوجيّة** "السّماء".

البيت الحادي والعشرون: يُجسِّدَ هذا البيتُ مريمَ على أنّها حاملةُ الشَّمعةِ الفصحيَّة، أعني بها المسيحَ الَّذي يُضيءُ على القابِعينَ في الظُّلُماتِ وظلالِ الموت؛ مريمُ هي مَن تَفتَتِحُ الموكبَ نحو "المعرفة الإلهيَّة" الَّتي تُبانُ في سرِّ المعموديّة المرتبط قديمًا بسبت النّور العظيم المقدّس. لأنّه فيها ومنها سَطَعَ النّورُ في الظُّلمات: "والنّورُ يُشرِقُ في الظُّلُمات، ولم تُدرِكْهُ الظُّلُمات" (يو ١: ٥)، وقد أصبحَ مَرئِيًّا، ليُعيدَ صيرورةَ وولادةَ أبناءِ الله الَّذين يَقبَلونَهُ من خلال الإيمان: "أمّا الَّذين قَبِلوه، وهُمُ الَّذين يؤمنونَ باسمِه، فقد مَكَّنَهم أن يَصيروا أبناءَ الله" (يو ١: ١٢).

ونَجِدُ أيضًا خلفيَّةً كتابيَّةً واسعةَ الاستعمال في ليتورجيًّا المعموديّة، بحسب التّقليد الرّسوليِّ والآبائيّ. نُلقي نظرةً على أهمِّ هذه النّصوص، منها: **(١) المزمور ٢٨: "**... صوتُ الرَّبِّ على المياه، إلهُ المجدِ أرعَد، الرَّبُّ على المياهِ الغزيرة..."، **(٢) المزمور ٤٤: ٨: "**أَحبَبتَ البرَّ وأَبغَضتَ الشَّرّ. لذلك مَسَحَكَ اللهُ إلهُكَ، بزيتِ الابتهاج دون أصحابكَ"، **(٣) يوحنّا ٩: "**الأعمى منذ مَولِدِهِ والاغتسالُ في بركةِ سِلوام".

بحسب نظرةِ الآباء والليتورجيَّة، يُجسِّدُ الأعمى منذ مَولدِهِ شخصيَّةَ الموعوظ الَّذي يأتي إلى بِركةِ سِلوام، للاغتِسالِ وللحصولِ على الرؤية: **مريمُ هي بِركةُ سِلوامَ الحقيقيّةُ، الَّتي تَغسِلُ بشاعةَ الخطيئة**؛ إنّها جرنُ المعموديّةِ الَّذي يُغطَّسُ فيه الموعوظ ليتنَّقى، وهي الكأسُ الَّتي تَسكُبُ زيتَ الابتهاج على رأس المعتَمِد (كيرلّس الاسكندريّ)، إنّها المادّةُ العَطِرَةُ للميرون المقدّس، الَّذي يُغطِّي المُعتَمِدَ بكليَّته بطِيب المسيح؛ إنّها أخيرًا، حياةُ الوليمة المقدّسة، الَّتي تَجعَلُ المولودِينَ الجُدُدَ بالمعموديّة يشترِكونَ في ليلة الفصح السَنِيَّة.

ولأنّ مريمَ هي الأُمُّ وهي أساسُ إنسانيَّة الابن، الَّذي باسمِه عُمِّدْنا وفيه استَنَرنا، فهي النَّبعُ الَّذي يَفيضُ فينا باستمرارٍ أسرارَ الولادة الثّانية، وهي الأنهارُ الفيّاضةُ بالماء الإلهيِّ الحيّ، لأنّه، إذا كانت المياهُ الَّتي تُنَقِّينا والنّورُ الَّذي يُنيرُنا هو المسيح، فهو نَبَتَ من مريم[٩٤].

البيت الثاني والعشرون: فالمسيحُ، لأجل أن يُنهِيَ الحكمَ الَّذي أصدرَهُ اللهُ على الجدَّينِ الأوَّلَين وعلينا من بعدهما كوَرثةٍ، نَزَلَ من السّماء وجَعَلَ مَسكِنَهُ فيما بيننا (راجع يو ١: ١٤)، وبسرِّهِ الفصحيّ مَزَّقَ صَكَّ الحكم الإلهيِّ علينا، وسَمَّرَه [الصكَّ] على الصَّليب: "ومَحا ما كان علينا من صَكٍّ وما فيه من أحكامٍ وأَزالَ هذا الحاجزَ **مُسمِّرًا إيَّاه على الصَّليب**" (كول ٢: ١٤) وبالتّالي، حرَّرَنا من الدّينونة.

---

[٩٤] Ermanno Toniolo, ***L'inno Acatisto...***, p. 67.

- **شفاعتها السَّماويَّة**

البيت الثالث والعشرون: تُقدِّمُ الأكاثستوسُ الثيوطوكسَ "كهيكلٍ حيٍّ لله"، إذ يبدو أنّ النّشيدَ يُصوِّرُها كمكرَّسةٍ لهيكل، وهذا ما يجعلُنا نستَنتِجُ أنّ المؤلِّفَ يميلُ إلى إظهارِ تكريسِ معبدِ الفلاخرني في القسطنطينيّة، أو الكنيسةِ الَّتي شَيَّدَها الإمبراطور ليون الأوّل لتحتَويَ الذخيرةَ المقدّسةَ لأُموفوريون "ثوب" مريم. كما، في الحقيقة، طقسُ تكريس الهيكل – الَّذي يُذكِّرُنا **بتكريس هيكل سُلَيمان**، بواسطة نزول مجد الله: "... لأنّ مجدَ الرَّبِّ قد ملأَ بيت الرَّبّ، حينئذٍ قال سليمان: قالَ الرَّبُّ إنّه يَسكُنُ في الغَيم المُظلِم، وإنّي قد بَنَيتُ لكَ بيتَ بهاءٍ مكانًا لسُكناكَ للأبد" (١مل ٨: ١-١٣) – الَّذي يُقدِّسُهُ مُحوِّلاً إيَّاه إلى مكان حضور الله ومجده، كذلك مريمُ في لحظة التجسُّد، حين نَزَلَ عليها الرّوحُ القدس (لو ١: ٣٥)، تَقَدَّسَتْ من الله وأصبحتِ المكانَ الحيَّ لذاك المجد الإلهيّ: **لقد وَضَعَ الكلمةُ الأبديّ مَسكِنَهُ فيها ومنها اتَّخَذَ الطَّبيعةَ الإنسانيَّة.**

إنّ طقس تكريس الهيكل في الكنيسة البيزنطيّة يَستَذكِرُ حدثَين هما: **بناءُ تابوت العهد وخيمة الاجتماع "المَوعِد"** (خر ٢٥-٢٦؛ ٣٦-٣٧) **وتكريسُهما الإلهيُّ بنزول غمام المجد:** "... ثمّ غَطَّى الغَمامُ خَيمةَ الموعد وملأَ مجدُ الرَّبِّ المَسكِن، فلم يَستَطِعْ موسى أن يَدخُلَ خيمةَ الموعد، لأنّ الغَمامَ كان حالاً عليه ومجدَ الرَّبِّ قد ملأَ المَسكِن" (خر ٤٠: ٣٤-٣٥): إنّه الغَمامُ الَّذي من خلاله تقدَّمَ الله على الشَّعب في مسيرته نحو أرض الميعاد: "وكان، إذا ارتفَعَ الغَمامُ عن المَسكِن، يَرحَلُ بنو إسرائيلَ في جميع مراحلِهم، وإذا لم يَرتَفِع، لم يَرحَلوا إلى يوم

ارتفاعِه، لأنّ غمامَ الرَّبِّ كان على المَسكِنِ نهارًا، وكانتِ النَّارُ في الغمام ليلاً، على مَشهَدِ جميع بيت إسرائيل في جميع مراحِلِهم" (خر ٤٠: ٣٦-٣٨).

مريمُ هي "الخيمةُ" الحقيقيّةُ لله، "قدّوس القدّيسين"، وهي الأكثرُ قداسةً والأكثرُ اتِّساعًا من هيكل سُلَيمان؛ إنّها "تابوتُ العهد" المَطلِيُّ من الدّاخل والخارج، ليس بصفيحةِ ذهبٍ، بل **بحضور الرّوح القدس**. فانطلاقًا من كونها "القدّيسةَ الَّتي تفوقُ القدّيسين"، و"التَّابوتَ المذهَّبَ بالرّوح"، أصبحتْ مريمُ **مُغَطَّاةً بالقداسة الإلهيَّة** الَّتي أوجَدَتْها أهلاً لسُكنى الكلمة الَّذي ومن خلال سُكناهُ فيها، جَعَلَها مقدّسةً وممجَّدة؛ إنّها مَن تُوحِّدُ الكنيسةَ والإمبراطورَ المسيحيّ، إذ إنّ البيتَ يتضمّنُ صورةً مجازيَّةً: **برج – سور / الكنيسة – الإمبراطوريّة**، هدفها إظهار الوحدة المترابطة بين الهرميّة الدينيّة والسّلطة المدنيّة الإمبراطوريَّة، إذ يُصوِّرُها النَّشيدُ على أنّها تاجٌ كريمٌ للملك وفخرٌ مجيدٌ للأحبار (الأساقفة)؛ **هي مَن تقودُ جماعةَ المسيحيِّينَ إلى الانتصار على الأعداء المنظورينَ وغيرِ المنظورين؛ إنّها مَن تَحمي بالجسد والنَّفس، مسيرةَ كلِّ مؤمنٍ نحو الوطن الأبديّ.**

من هنا، فإنّ حضورَ مريم السَّماويَّ في الكنيسة الحاجَّة والمجاهدة على الأرض، مثل التَّكريس والحبّ اللَّذين تُظهِرُهما مريم للكهنة والمؤمنين انطلاقًا من كونها الملجأَ الأمين والمُدافعةَ عنهم، يُنيرانِ دربَ المؤمنين في مسيرتهم التّصاعديّة من أورشليم الأرضيّة إلى أورشليم السَّماويّة. يَستَذكِرُ هذا البيتُ أحداثًا كتابيَّةً **كسفينةِ نوح الحامية وهيكلِ أورشليم في حياةِ شعبِ إسرائيل**، ليُعيدَ قراءتَها انطلاقًا من زاويةِ اختباراتِ المسيحيّين لقوّة

مريم الحامية **لمسيرةِ الكنيسةِ المنظورةِ** عبر الأجيال. فالكاتبُ يَحتَفِي بمريم على أنّها حاميَةُ إيمانِ المسيحيّين الحقيقيَّة والمنيعة في وجهِ المُعتَدينَ البرابرة على مدينةِ الله القسطنطينيّة، وهي أيضًا مجدُ الإمبراطوريَّةِ والكنيسة.

البيت الرابع والعشرون: يُظهِرُ هذا البيتُ مريمَ في بُعدَين أساسيَّين يَطبَعانِ الحياةَ الإنسانيّةَ للمؤمن: **الأوّل، ذو طابَعٍ أرضيٍّ**، بمعنى أن تكونَ مريمُ الحاميَةَ بالنِّعمة عن شعبِ الله في المخاطرِ الَّتي تَعترضُ مسيرتَه الأرضيّة هنه؛ **والثّاني، ذو طابَعٍ إسكاتولوجيٍّ**، إذ يَطلُبُ المؤلِّفُ أن تكونَ مريمُ خلاصَ المؤمنينَ من العقاب الأبديّ. هذا ما تؤكِّدُه صلاةُ بولس المتوحِّد (وتُقالُ في صلاة النّوم الكبرى) السّاطِعَة بأنوارها اللاهوتيّة المريميّة، يقول: **"... ففي هذا العُمرِ الحاضر، كوني معي** كشفيعةٍ ومُعينةٍ حارَّة، تَصُدُّ هجماتِ أعدائي وتَهديني إلى الخلاص. **وفي حينِ وَفاتي كوني معي**، لتُحدِقي بنفسي الشقيَّة، وتُقصي عنها مناظِرَ الشّياطينِ الأشرارِ المُظلِمة. **وفي يومِ الدّينونةِ الرّهيبِ كوني معي**، لتُنقِذيني من العِقابِ الأبديّ، وتَجعَليني وارِثًا لمجدِ ابنِكِ وإلهِنا المُعجِزِ البيان، الَّذي أرجو الفَوزَ به بوَساطَتِكِ ونُصرَتِكِ، يا والدةَ الإلهِ الفائقةَ القداسةِ سيّدتي...**"**.

خلاصة القسم الثاني:

نَستنتجُ ممّا تبيَّنَ لنا آنفًا أنّ مصدرَ هذا القسم الثّاني هو **إيمانُ الكنيسة**، المنقولُ من الرسل والمعلَّمُ في الرّمز (الحبل البتوليّ)، والمحدَّدُ بالمجامعِ الكنسيَّة (الأمومة الإلهيَّة)، والمعترَفُ به من الآباء والليتورجيّة (الولادة البتوليَّة، البتوليّة الدّائمة والوسيطة السَّماويّة). فأمومةُ مريم الروحيّةَ ترتبطُ في عُرىً

وثيقةٍ بأسرار بدايات الكنيسة: لقد فَهِمَ الشّرقُ والغرب في هذا الوقت وعبَّروا عن **الاستمراريَّة الأسراريَّة بين رَحِمِ البتول ورَحِمِ الكنيسة**، بين المسيحِ الَّذي وُلِدَ من مريم في بيت لحم وجسدِهِ [أي الكنيسة] الَّذي وُلِدَ من الأسرار في فصحه.

٣) مريم في سرّ المسيح وسرّ الكنيسة

إنّ المجمعَ الفاتيكانيَّ الثَّاني في كلامِه عن "الكنيسة"، خصَّ العذراءَ الطّاهرةَ فصلاً كاملاً مُعَنونًا "الطوباويَّةُ مريم البتول، والدةُ الله في سرِّ المسيح وسرِّ الكنيسة"[٩٥] الَّذي يؤكِّدُ على ما جاءَ في القرن الخامس الميلاديّ: "الطوباويَّةُ مريم البتول ثيوطوكس في سرِّ الكلمةِ المتجسِّد وسرِّ الكنيسةِ عروسِه". إنّه وصفٌ عامّ لعمل الثيوطوكس في التَّدبير الخلاصيّ الَّذي صَنَعَهُ الآبُ في المسيح، ومن خلاله، ما زال مستمرًّا في الكنيسة. **فمريمُ حاضرةٌ على طولِ مسيرةِ الكنيسةِ الأرضيَّة الَّتي عبر الأزمنةِ والتّاريخ، ستَصِلُ إلى المجد الإلهيّ: إنّه الخروجُ الفصحيُّ من أرضِ العبوديّةِ نحو الوطنِ الأمّ السَّماويّ.**

فالنّشيدُ، وبلا شكٍّ، كُتِبَ ليَحتَفِلَ بالثيوطوكس في السرِّ الخلاصيِّ للتجسُّد، الَّذي يَجِدُ اكتمالَهُ في فصح الموت والقيامة، والَّذي من خلاله، سيَنسكِبُ الرّوحُ القدس، الرّوحُ المحيي [الَّذي يُعطي الحياة لأنّه مصدرُها

---

[٩٥] **المجمع الفاتيكانيّ الثاني**، دستورٌ عقائديٌّ في الكنيسة، الفصل الثامن، ص١٠٥-١١٦.

ومَنبعُها] على المؤمنين؛ إلاّ أنّ الكاتبَ يُغلِقُ، بطريقةٍ مُبطَّنةٍ، سرَّ الفصح، مُحتَفِلاً بأمِّ الله في الكنيسة، في مسيرتها.

١. مريم في سرِّ المسيح

يحتفلُ **القسم الثّاني** من النّشيد (البيوت ١٣-٢٤) بمريم في سرِّ المسيح، ويتألَّفُ من جزأين:

- **الجزء الأوّل** (البيوت ١٣-١٨) ويحتوي على ثلاثة مبادئ مرتبطةً ارتباطًا وثيقًا **بسرِّ المسيح**، هي:

أ. الحبلُ البتوليّ (البيت ١٣).

ب. الأمومةُ الإلهيَّةُ الَّتي أقرَّها مجمعُ أفسس ومجمعُ خلقيدونية (البيت ١٥).

ت. الولادةُ البتوليّة المُعلنةُ في لاهوت الكنيسة الجامعة وليتورجيَّتِها (البيت ١٧).

- أما **الجزءُ الثّاني** (البيوت ١٩-٢٤)، فيَقتَرِحُ ثلاث حقائقَ مريميّةٍ أخرى، مرتبطةً ارتباطًا وثيقًا **بسرِّ الكنيسة**[٩٦]، هي:

أ. البتوليَّةُ السّرمديّة لمريم وعلاقتُها بالبتوليّةِ الكنسيّة (البيت ١٩).

ب. مبدأُ الأمومةِ الرّوحيّةِ لمريم في الكنيسة من خلال الأسرارِ المقدّسة (البيت ٢١).

ت. حقيقةُ الحمايةِ السَّماويّة والحضور الفاعِل لمريم نحو الكنيسةِ الحاجّة (البيت ٢٣).

---

[٩٦] يَبحَثُ سرُّ الكنيسة في سرِّ المسيح/الرأس الَّذي يَمنَحُ جسدَهُ السّريّ الحياة. إنّه يُعالِجُ سرًّا، يُرى من خلال مَظهرَينِ ثُنائيَّين هما: **المسيح/الكنيسة**، **الرأس/الجسد** و**العريس/العروس**.

٢. مريم في سرِّ الكنيسة

يتألَّفُ **القسم الأول** من بُعدَين أساسيَّين هما:

- **البُعد الكريستولوجيّ** (الأبيات ١-٦)

أ. الكلمةُ بدأَ حضورَه المتجسِّدَ في الأمّ بقدرةٍ إلهيَّة (البيت ١).

ب. أظهرَ فيها أولى أعمالِه العجائبيّة، الحبل البتوليّ والولادة البتوليّة (البيت ٣).

ت. ومن خلالها، صَنَعَ أولى عجائبه "ارتكاضُ الجنين في بطنِ أليصابات" (البيت ٥).

كما نُلاحِظ، فإنّ هذه الحقائقَ تُبيِّنُ **الظّهورَ الأولَ لسرِّ المسيح الخلاصيّ**.

- **البُعد الكنسيّ** (الأبيات ٧-١٢)

أ. **رعاةُ بيت ساحور** الَّذين يُجسِّدون، رمزيًّا وكنسيًّا، رعاةَ الكنيسة ومبشِّريها في كلِّ زمانٍ ومكان (البيت ٧).

ب. **المجوسُ** الَّذين أصبحوا رمزًا للإيمان بالمسيح وإعلانِه من خلال جرن المعموديّة (البيوت ٨-١٠).

ت. **شعبُ الله** الَّذي خرجَ من الجرن كما فَعَلَ قديمًا إسرائيلُ عند خروجِه من مصر، مدعوٌّ إلى السَّير نحو أرض الميعاد الَّتي هي أورشليمُ الجديدة (البيت ١١).

فمن خلال ما تقدّم، فإنّ الأكاثستوس لا تُعالِجُ سِرَّين مختلفين، واحدٍ للمسيح والآخر للكنيسة، بل تبحثُ في **سرٍّ واحدٍ تاريخيٍّ في طريقه إلى الاكتمال: سِرٌّ يُعانِقُ كلَّ البشريَّة وكلَّ الخليقة في المسيح، سرٌّ يَختَصِرُ في الكنيسة مسيرةَ شعب الله نحو الاكتمال النهائيّ الإسكاتولوجيّ** (الأُخرويّ).

٤) الأكاثستوس، ملخَّصُ اللاهوت المريميّ

يبحثُ الأكاثستوس في سرِّ مريم الثيوطوكس انطلاقًا من سرِّ ابنِها الإلهيّ وتغلغله في التّاريخ البشريّ عبر تاريخ الخلاص الَّذي أتمّه الكلمةُ المتجسِّد أثناء حياته الأرضيّة وتَوَجَّهُ على خشبة الصَّليب، مُعلِنًا قيام العهد الجديد بدمه الخاصّ.

١. سرُّ مريم

ويُبرِزُها من نواحٍ ثلاث أساسيَّة هي: الحبلُ البتوليّ؛ الولادة البتوليّة والأمومة الإلهيّة، وقد أَتَينا على تفنيدها بالتّفصيل.

٢. مريمُ في سرِّ الكلمة المتجسِّد

وهو الموضوع الأبرزُ في هذا النّشيد والذي يَكشِفُ عملَ سرِّ الكلمة (ومريم فيه) منذ الخلقِ والسّقوط، والممتدَ في تاريخ العالم والكنيسة حتى اكتمالِ الملكوت: آدمُ وحوّاء، البشريّةُ المحتَضَرَة (السّاقطة)، الملائكةُ والأشرار، المؤمنونَ البسطاء والنسّاك، الكنيسة والإمبراطوريّة: كلُّ هؤلاء يُشكِّلونَ البيئةَ التي دَخَلَها الكلمةُ وعَمِلَ فيها. إنّ البيتَ الأوّل من النّشيد يُقدِّمُ سرَّ الكلمة المتجسِّد **كحدثٍ خلاصيّ** في يومِ البشارة، من خلال مريم، مُعيدًا الوعدَ الإلهيَّ للجدَّينِ آدم وحوّاء (تك ٣: ١٥)، ونبوءة أشعيا النبيّ (أش ٧: ١٤) ولقد دُعِيَتِ الخليقةُ نفسُها للحياة، لأنّ البتولَ وَلَدَتِ العمّانوئيل وجدَّدتْ شرائعَ الخليقةِ نفسَها عبر جيلٍ جديد.

فمؤلِّفُ النّشيدِ لم يُعبِّر بشكلٍ واضح عن نبوءات العهد القديم، وذلك لأنّ كلَّ العِظاتِ المريميّةِ اليونانيّةِ في القرنَين الرّابع والخامس الميلاديَّين تؤثِرُ اختيارَ **نبوءةِ أشعيا ٧: ١٤** (**"آيةُ"** البتول الحُبلى) الَّتي أكّدَها متّى في إنجيله وفسَّرَها بتوسُّعٍ كلٌّ مِن يوستنيانوس، إيريناوس وأوريجانوس... **والنّصُّ الرمزيّ لحزقيال ٤٤: ٢** (**"البابُ المُغلَق"** المتّجه نحو الشّرق، والَّذي لن يدخله إلا السيّدُ الرَّبُّ نفسُه)، النَّصُّ الَّذي من خلاله يُدافِعُ التَّقليدان الشّرقيّ والغربيّ عن **"ولادة مريم البتوليّة"**.

ومع ذلك، فإنّ الأكاثستوس يُلمِّحُ ضمنيًّا إلى نبوءة أشعيا في التَّحيات (**χαρετισμοί**) المريميّة في البيت الأوّل، عبرَ كلمتَين: **"العلاء** أو **العُلى"** و **"العمق"**، تتكرَّران في النَّصِّ اليونانيّ **لأشعيا ٧: ١١**: **"**سَلْ لنفسِكَ آيةً من عِندِ الرَّبِّ إلهِك، سَلْها إمّا في العُمْق، وإمّا في العَلاءِ من فوق**"** (**"εἰς βάθος ἢ εἰς ὕψος"**). فكاتبُ النّشيد يُظهِرُ في البيت الأوّل من الأكاثستوس امتدادَ البُعد **التّاريخيّ – الخلاصيّ لحدث التجسُّد**، بقوله: "السلامُ عليكِ يا **عُلُوًّا** لا تَسمو إليه أفكارُ البشر. السلامُ عليكِ يا **عُمقًا** لا تَبلُغُهُ حتّى أبصارُ الملائكة". انطلاقًا ممّا تقدّم، يُمكِنُنا أن نُلاحظَ في هذا المحور صورتَين أساسيَّتَين، هما:

أ. سرّ الكلمة العامل في البشريَّة المحتَضِرَة

إنّ بتوليّةَ مريم تُشكِّلُ في مضامينِها اللاهوتيّة والروحيّة حدثًا سماويًّا، ملائكيًّا وأخرويًّا "إسكاتولوجيًّا". فبتوليَّتُها تَحمِلُ في التَّصميم

الخلاصيّ طابعَ **الشّفاعة** ليس فقط لحوّاء أو للجنس الأنثويّ بل للبشريّةِ جمعاء: إنّه **الدورُ الشخصيّ – التاريخيّ لمريم**. تَضُمُّ هذه الناحيةُ الشخصيّة – التاريخيّة بُعدًا آخرَ هامًّا هو **البُعد الأموميّ – التاريخيّ** بطريقتَين هما:

١. أصبحتِ البتوليّةُ الخَصبةُ جالبةً للحياة والمغفرة في المسيح. نرى في هذا البُعدِ مقارنةً مميّزةً بين **بتوليّة مريم وشجرة الفردوس** الحاملةِ ثمارَ الحياة أو كالثيابِ الممجَّدة التي غَطَّتْ ليس فقط الجدَّينِ الأولَين بل البشريّةَ جمعاء.

٢. **الولادةُ البتوليّة في الفرح**. الفرحُ الملائكيّ ليس فقط إعلانَ الفرح للمرأة التي حلَّتْ عُقمَ البشريّةِ وإدانتَها بولادتِها في الألم ابنَها الإلهيّ: إنّه إعلانُ الفرحِ الشموليّ الذي أنهى حالةَ الإدانةِ للإنسان القديم[٩٧]: "السّلامُ عليكِ يا مَن بها يُشرِقُ الفرح. السّلامُ عليكِ يا مَن بها تضمحِلُّ اللعنة. السّلامُ عليكِ يا قيامةَ آدم السّاقط. السّلامُ عليكِ يا مُنقِذةَ حوّاءَ من الدموع" (البيت ١).

في الخلاصة نقولُ بأنّنا نِلنا الخلاصَ بالعذراء وذلك: **(١)** لأنّ عِطْرَ بتوليَّتِها جَلَبَ المغفرة وجَذَبَ حضورَ اللهِ في وَسَطِنا؛ **(٢)** لأنّ ولادتَها البتوليّة في الفرح قد رمَّمَتْ ألَمَ حوّاء وأَنهَتْ الإدانة؛ **(٣)** لأنّها وفوق كلِّ ما ذُكِرَ أعطَتنا المخلِّص. في هذا الإطار نستطيعُ أن نُدرِكَ معنى شفاعة العذراء للبشريّة إذ إنَّها "السُلَّمُ السّماويُّ الذي به انحدرَ الإله" وهي "الجِسرُ النّاقِلُ الأرضيِّين إلى السّماء" (البيت ٣).

---

[٩٧] Ermanno Toniolo, ***L'inno Acatisto...***, p. 34.

أمرٌ هامٌّ آخر: التَعبيران النَقيضان ترميم – سقوط هما ليسا تعبيرَين يشمَلان بُعدًا تاريخيًّا فقط، بل يُعبِّران كلاهما عن عالَمَين مختلِفَين تمامًا: **(١)** عالم الخطيئة والإدانة الَّذي نَشترِكُ فيه جميعًا؛ **(٢)** عالم التجديد والترميم الذي دُعينا إلى المشاركة فيه. وبالتّالي، لم يَعُدِ الرّابطُ آدم–المسيح، حوّاء–مريم، بل أصبح مريم–المسيح–البشريّة المحتاجة إلى الإصلاح والترميم.

ب. سرُّ الكلمةِ العامل في الكنيسة المرمَّمة (المحرَّرة، المُفتداة، المخلَّصة)

١. مريم منذ نشأة الكنيسة

يتأمَّلُ النّشيدُ مريمَ على أنّها قاعدةُ الإيمان، على لسانِ الرسل، وفي قلبِ الشهداء لأنّها تُعلِنُ الكلمةَ المولودَ منها للبشريّةِ جمعاء. فأهميَّةُ مريم لا تأتي فقط من كونها مثالاً حيًّا، بل وأيضًا من مبدأ السببيَّة المُناطِ بها. فآباءُ الكنيسة الذين تَعمَّقوا في دراسة اللاهوت المريمي، فهموا بوضوحٍ التّشبيه المثير للاهتمام بين: **(١) رَحِمِ مريم وجرن المعموديّة؛ (٢) الولادةِ البتوليّة للمسيح وولادتِنا الجديدة بالماء والرّوح**.

فرحمُ مريم الَّذي وَلَدَ المسيح بطريقةٍ عذريَّةٍ وبتوليّة، هو جرنُ المعموديّة الَّذي يَلِدُ المؤمن ولادةً روحيّةً عذريّة دون زرعٍ بشريّ (يو ١: ١٢–١٣؛ ٣: ٣، ٥–٦). من هنا، فإنّنا نَجِدُ أنّ الأمومةَ الإلهيَّة لمريم تَقَعُ في صميمِ ولادةِ المؤمنين في الكنيسة، وفي الوقتِ نفسِه، أنّها تُشكِّلُ مركزيَّةَ حجِّهم إلى الوطنِ الأمّ "السّماء".

٢. مريم وشعبُ الله: حاجُّونَ إلى الوطن الأمّ

إنّ النّشيدَ يوحي إلى رحلة إسرائيلَ في الصحراء نحو أرض الميعاد، كبحرٍ يجبُ أن نَعبُرَهُ لِنَصِلَ إلى الميناء. إنّ الأكاثستوس، ومن خلال الرّمزيّة اللاهوتيّة، تُعيدُ قراءةَ حدث الخروج على ضوء سرِّ مريم دونَ فصله عن سرّ الكلمة الإلهي بكونها أمَّ الكلمة: **(١)** فإذا كان المسيحُ الماءَ الحيّ، فمريمُ هي الصخرةُ التي أنبعَتِ الماءَ الَّذي لا يَنضُبُ (الخالد)، الماءَ المعطيَ الحياة الَّذي تاقَ إليه الكثيرون (خر ١٧: ١-٧؛ يو ٤: ١٠-١٥؛ ٧: ٣٧-٣٩): "السلامُ عليكِ يا صخرةً أروَتِ العِطاشَ إلى الحياة" (البيت ١١)؛ **(٢)** وإذا كان المسيحُ المنَّ والخبزَ المُحيي، فمريمُ هي مَن أعطتهُ وقَدَّمَتهُ للكثيرين (يو ٦: ٣٥؛ ٤٨-٥١...): "السلامُ عليكِ يا غِذاءً يقومُ بدلَ المَنّ" (البيت ١١)؛ **(٣)** وإذا كان المسيحُ الطريقَ التي من خلالها نُنهي حجَّنا الأرضيّ وتحوُّلَنا فيه، فمريمُ هي الميناءُ الذي فيه نَرسو، هي أرضُ الميعاد التي نَتوقُ إليها والتي من خلالها يتدفَّقُ اللبنُ والعسلُ الإلهي: "السلامُ عليكِ يا أرضَ الميعاد. السلامُ عليكِ يا مَن يجري منها اللبنُ والعسل" (البيت ١١).

٣. مريم والعذارى

إنّ مريمَ وبحسب اللاهوت الروحيِّ الشّرقيّ، هي الأولى في مسيرة الارتقاء المسيحي. وبحسب آباء القرنَين الرّابع والخامس الميلاديَّين وتقليد الكنيسة القديم، فإنّ التَّعبيرَ الأكثرَ عُلُوًّا في الحياة المسيحيّة، بعد الاستشهاد، هو **البتوليَّةُ** الَّتي تتضمَّنُ، في معناها الشّموليّ، الجسدَ، القلب، النَّفس،

الرّوح، القُدُراتِ الإنسانيَّةَ والحياة. وهي تَظهَرُ **كمشروعٍ إنجيليّ، كضمانةٍ لكلِّ الفضائل وبخاصّةٍ المحبّة، كتمرينٍ دائمٍ يَهدِفُ إلى تعميق رابط الإنسان بجماله الأكثر نقاءً وصفاءً، بتوازنه الدّاخليِّ وصورته الإلهيّة. فالبتوليَّةُ إذن هي الحياةُ الملائكيَّة بامتياز**، لأنّها تَكشِفَ لنا صورةَ البشريَّة الحقيقيَّة. لأجل ذلك، تحوَّلَتِ العذراءُ إلى "علامةٍ" مستمرةٍ لكلِّ شعب الله، "كنموذجٍ" لتمرين الفضائل الإنسانيَّةِ (كالحكمة، المعرفة، القُدوة الحَسَنَة، الضَّمير الحيّ، الاتّضاع...) والإلهيَّة (الإيمان، الرجاء والمحبّة). فلا يُمكنُنا أن نُدرِكَ البُعدَ الإنسانيّ والروحيّ للبتوليّة خارج إطار تدبير الله الخلاصيّ، إذ إنّها تجديدٌ وترميمٌ للحالة الفردوسيَّة وإعادتُها إلى أصلها الإلهيّ: إنّها **الحياةُ الملائكيّةُ** بامتياز؛ هي حياةُ الميلاد الروحيّ للإنسان؛ وأخيرًا إنّها إشتراكٌ في وليمة الحمل السّماويّة. من هنا يتَّضِحُ أنّ **البتوليَّةَ** كما جاءتْ في عُرف وتقليد آباء الكنيسة، **ليست عُقمًا**، بل إنّها **مليئةٌ بالثّمار**. هكذا تَظهرُ مريمُ في الأكاثستوس على أنّها سورُ الدِّفاع للعذارى ولجميع الآتينَ إليها انطلاقًا من **أمومتها البتوليّة**. هذا ما أكَّدَه باسيليوس الكبير حين صَوَّرَ أُمَّ الله كحاميةٍ للعذارى، الَّتي أصبحتْ نموذجًا أصليًّا لَهُنَّ. نختمُ بكلماتٍ روحيّةٍ وجَّهها القدّيس كبريانوس في مقالةٍ بعنوان **"في مسلك العذارى"**، قال: "إنَّهنَّ الزَّهرةُ المتفتِّحةُ على غصن الكنيسة... والقسمُ الأكبر رونقًا من قطيع يسوع المسيح... فيهنّ يتبدّى خصبُ أُمِّنا الكنيسة المجيد"[٩٨].

---

[٩٨] مجموعة باحثين، **تاريخ الفكر المسيحيّ**، ص٣٦٥.

٤. مريم والمؤمن

بعد أن يُرنِّمَ النَّشيدُ سرَّ مريم والدةِ الإله، تَظهرُ أمامَنا آيتانِ وحيدتانِ تَصِفانِ العذراء على أنّها "شفاءُ الجسد وخلاصُ النَّفس" (البيت ٢٣) بناءً على عملها الخلاصيّ تجاه المؤمنين.

إنّ أساس العلاقة بين مريم والمؤمنين كما تَصِفُها الليتورجيّة البيزنطيّة تكمن في أنّ مريم بولادتها للمؤمنين الإله المتجسِّد، قد جعلتهم، من خلال هذا الحدث الإلهيّ الخلاصيّ "التجسُّد"، يشتركون بفعاليّةٍ وديناميكيّةٍ روحيّةٍ في الطّبيعة الإلهيّة بهدف ارتقائهم نحو بلوغ حالة الاتّحاد بالله **"التألُّه"**. هذا ما بيَّنه **مكسيموس المعترف** (القرن السّابع للميلاد): "... فالله ينزل إلى العالم، ويصير إنسانًا، والإنسان **يرتفع** نحو **الكمال الإلهيّ**، ويصير إلهًا، وذلك لأنّ **اتّحاد الطّبيعتَين** هذا، الإلهيّة والإنسانيّة، سبق الله فحدّده في مشورته الأزليّة، وهو **الغاية الأخيرة** الَّتي لأجلها خُلِقَ العالم من العدم"[٩٩].

٥. مريم والجماعةُ الدينيّة والسياسيّة للإمبراطوريّة المسيحيّة

يَنتَصِبُ في أروقة **القصر الإمبراطوريّ** في القسطنطينيّة هيكلٌ شُيِّدَ لأمِّ الله يحوي في داخله ثوبَ العذراء الطّاهرة سيّدة الحماية؛ أمّا مدينةُ **القسطنطينيّة**، وفي مطلع القرن الخامس الميلاديّ، فاعتبرتْ مريم **الحاميةَ الَّتي لا تُغلَب في مواجهة البرابرة الجاحدي الإيمان**: "السلامُ عليكِ يا مَن خلَّصَتنا من شَعائرِ البرابرة" (البيت ٩).

---

[٩٩] فلاديمير لوسكي، **اللاهوت الصّوفيّ لكنيسة الشرق**، ص١١٤.

بإبراز هذا الموضوع المريميّ "العذراء سيّدة الحماية"، يُعلِنُ النَّشيدُ مريم على أنّها **الهيكلُ الحيُّ لله**: **(١) فخرُ الكهنة**: "السلامُ عليكِ يا فخرًا أثيلاً للكهنةِ الوَرِعين" (البيت ٢٣)؛ **(٢) مجدُ الأباطرة المسيحيّين**: "السلامُ عليكِ يا تاجًا كريمًا للملوكِ الأتقياء" (البيت ٢٣)؛ **(٣) برجُ الكنيسة**: "السلامُ عليكِ يا بُرجَ الكنيسةِ الَّذي لا يتزعزع" (البيت ٢٣)؛ **(٤) حِصنُ الإمبراطوريّة**: "السلامُ عليكِ يا سورَ المملكةِ الَّذي لا يُرام" (البيت ٢٣).

ملخَّص:

١. الألقابُ المُعطاة لمريم

ثيوطوكوس "والدة الإله"، عذراء، قدّيسة، مبارَكة وطاهرة. والجديرُ بالذِكر أنّه لا يوجد أيّةُ إشاراتٍ تدلُّ على القداسة، الملكيّة والكرامة. هذا يعني أنّ هدفَ النّشيدِ يكمنُ في أن لا يكونَ مديحًا أو إطراءً، بل لاهوتيًّا، مما يُوحي عُمقَ الوعي للسرّ المريمي في القرن الخامس الميلاديّ.

٢. قداسةُ مريم

تأتي قداسةُ مريم كنتيجةٍ لحياتِها البتوليّة من جهة، ولعملِ الرّوح القدس والكلمة فيها، من جهةٍ أخرى، إذ إنّ النّشيد يُظهِرُها "السفينةَ المذهبّة للروح القدس" و"الهيكلَ المقدَّس لحضور الكلمة" و"عرشًا مقدَّسًا للجالس فوق الشاروبيم".

٣. وساطةُ مريم وشفاعتُها

يختصِرُ النّشيد مضمونَ وساطةِ مريم كالآتي: **(١)** لأنّ عِطرَ عذريَّتِها **جَلَبَ** المغفرة و**جَذبَ** اللهَ ليكونَ فيما بيننا؛ **(٢)** لأنّ حبلَها البتوليّ في الفرح **رمَّمَ** ألَمَ حوّاء و**أنهى** الإدانة؛ **(٣)** الأهمّ من كلّ ذلك، أنّها أعطَتنا **المرمِّم**؛ **(٤)** مصالحة البشر مع الله من خلال حياتِها البتوليّة؛ **(٥)** بأمومتِها، أصبحت مريمُ الينبوعَ الفيّاض للنّعمة الإلهيّة؛ **(٦)** بأمومتِها على المؤمنين، أصبحت مريمُ المدافعةَ عنهم في وجهِ الشيطان والمقرِّبةَ إيَّاهم من الله. لقد أصبحت مريمُ مساعِدَةَ المؤمن في مسيرته لنيل خلاص الجسد والنّفس.

القسم الرابع
الأكاتستوس في الكتاب المقدّس

١) العهد القديم

١. السُلَّمُ السماويَّة

هذه السُلَّمُ الَّتي رآها يعقوب في الحلم، تستند في أسفلها إلى الأرض ورأسها يبلغ السماء (تك ٢٨: ١١-١٦) ومريم حقَّقَتها لأنّها تَنتَمي إلى الأرض بطبيعتِها البشريَّة وتسمو إلى الألوهيَّة بأمومتِها الإلهيَّة، وكما السُلَّمُ تربط السّماء بالأرض، هكذا العذراء تربط البشرَ بالله.

إنّ رؤيةَ سُلَّم يعقوب مُتَّصِلَةٌ بنصٍّ الإنجيل الرّابع ٣: ١٣-١٩: "فما مِن أَحَدٍ يَصعَدُ إلى السّماء، إلاّ الَّذي نَزَلَ من السَّماء، وهو ابنُ الإنسان... أنّ النُّورَ جاءَ إلى العالم...". فمريمُ هي السُلَّمُ الَّذي من خلالِه لن يَصعَدَ الملائكةُ بعد ولن يَنزِلوا، بل اللهُ شخصيًّا "بحدِّ ذاتِه" هو مَن سيَنزِل، ليُصعِدَ معه البشرَ، بين ارتفاع الملائكة وسُخْط الشّياطين. إنّها السلّمُ الَّتي ربطتِ الأرض بالسّماء، وأعادتِ العلاقةَ بين الخالق ومخلوقاتِه. إنّها السلّم الَّتي بها عاد ممكنًا ارتقاء ناسوتنا إلى مستوى الألوهة، بعد أن انحدرتِ الألوهةُ إلى مستوى النّاسوت.

السلام عليكِ يا سُلَّمًا سماويَّةً بها انحدر الإله
السلام عليكِ يا جسرًا ناقلاً الأرضيِّين إلى السّماء (البيت ٣).

وبالمعنى عينِه نَدعوها "جسرًا ناقلاً بالحقيقة من الموت إلى الحياة" (التسبحة الرابعة، ٢).

٢. العُلَّيقة الملتهبة (خر ٣: ١-٦)

إنّ رمزَ العلّيقة هذا أبصر فيه الآباءُ القدّيسون سرَّ مريم ابنةَ طبعِنا الضَّعيف. هي الكائنُ التُّرابيّ قد حلَّت فيها نارُ اللاهوتِ المتجسِّد، ذلك الَّذي تَخشى القوّاتُ السّماويّةُ أن تنظُرَ إليه قد عانقَته مريم ولم تحترق. وفي هذا الحدث رأى الآباءُ القدّيسون سبيلاً لتقديس المادّة والطبع البشريّ، شدّدوا على قدرة المادّة على استقبال الله والاتّحاد به من دون أن تتلفَها النَّارُ الإلهيّة. مريم العذراء، عُلَّيقةُ موسى الَّتي احتضنتِ اللهيبَ ولم تحترق، هي المثالُ الأوّل للكائن الأرضيّ السّائرِ نحو التألُّه، أي نحو حلول الله في هيكله الجسديّ والعقليّ والروحيّ، فصارت مريمُ القدوةَ لكلّ "صامت"، أي المتأمِّل الجمالَ الإلهيّ والسّاعيَ نحو التألُّه من دون أن يخشى الاحتراق.

رأى موسى على جبل حوريب، العُلَّيقةَ وهي تَتَوَقَّدُ بالنّار دون أن تحترق، هكذا مريمُ وَلَدَتِ الإله دون انثلامِ بتوليَّتِها، فحافظتْ عليها في أمومتِها، فجَمَعَتْ في ذاتِها بين ضدَّين: شرف الأمومة وسناء البتوليَّة:

السلام عليكِ يا غُصنًا يَحمِلُ بُرعُمًا لا يَذبُل" (البيت ٥)

السلام عليكِ يا من وفَّقتْ في ذاتِها بين ضدين

السلام عليكِ يا من قَرَنَتْ بين البتوليَّة والنِّفاس (البيت ١٥)

السلام عليكِ يا خِدرَ الزَّواج الَّذي بلا زرعٍ (البيت ١٩).

٣. تابوت العهد (خر ٢٥: ١٠؛ ٣٧: ١)

إنّ تابوتَ العهد الَّذي هو كناية عن صندوقٍ خشبيّ مزخرف صُمِّمَ خصِّيصًا كيما يحتوي لوحَي الوصايا اللَّذين أعطاهما الرَّبُّ لموسى على جبل سيناء (خر ٢٥: ١٢-١٨؛ ٣٢: ١٥-١٦) وقد كان يوضع أوّلاً في الهيكل ثمّ بعدئذٍ في قدس الأقداس، ويُرافق اليهود في تنقّلاتهم أو في حروبهم. إنّ هذا التابوت كان يعني بالنّسبة لشعب الله حضورَ الرَّبِّ بينهم، يقودُهم خارج أرض مصر عبر نهر الأردن (يش ٣: ٦) ويُعطيهم النَّصر في الغلبة (١صم ٥: ٧). تابوتُ العهد كان يحوي كلمةَ الله الَّتي أوصى بها الله موسى على الجبل، ومريم قد أضحت خِباءً لكلمةِ الله المتجسِّد الَّذي حلَّ فيها. لذلك، انتقل مع الآباء القدّيسين معنى كلمة الله من معنًى حرفيّ، مجموعة قوانين محفورة على صخرة، وأخذ معنًى أبعد، المعنى الصَّحيح، أي الله نفسه. وهكذا أضحت مريمُ تابوتَ العهد الجديد، العهدِ الَّذي قام بيسوع المسيح الله المتجسِّد، على العهد القديم القائم على وصايا من حجر.

لقد سُمِّيتْ مريمُ هكذا لأنّها حَوَتْ في أحشائها المسيحَ مُخلِّصَ البشر. فهي إناءُ حكمةِ الله وخِزانةُ عنايته:

السلام عليكِ لأنَّكِ تحملين حاملَ الكائنات (البيت ١)

السلام عليكِ يا مَسكِنَ الله الَّذي لا يَحويه مكان (البيت ١٥)

السلام عليكِ يا إناءَ حكمةِ الله

السلام عليكِ يا خِزانةَ عنايتِه (البيت ١٧)

السلام عليكِ يا تابوتًا مُذهَّبًا بالرّوح" (البيت ٢٣).

٤. المنّ السّماويّ

أعطى الله المَنَّ غذاءً لشعبه (خر ١٦)، ومريم أَتَتْ بالكلمة المتجسِّد وهو الخبزُ الحقيقيُّ النَّازلُ من السَّماء (يو ٦: ٢٢-٦٦):

السلام عليكِ يا أرضًا تؤتينا ثمرًا لا يَفسُد (البيت ٥)

السلام عليكِ يا غذاءً يَقومُ بدلَ المَنّ (البيت ١١)

السلام عليكِ يا شجرةً لذيذةَ الثَّمَرِ يَتَغَذى منها المؤمنون (البيت ١٣).

٥. حوّاء

وهي أُمُّ هابيل الَّذي قَتَلَهُ أخوه قايين ظلمًا (تك ٤: ٢-١٦)، والعذراء هي أُمُّ المسيح الَّذي قَتَلَهُ اليهود ظلمًا وحسدًا. وهنا نودّ أن نُلفِتَ الانتباهَ إلى ما قاله **يوحنّا الدمشقيّ** في مقارنته البديعة بين حوّاء القديمة وحوّاء الجديدة: "بمريم تحوَّل حزنُ حوّاء إلى فرح. قد قيل للأولى ستَلِدينَ بالوجع، وأمّا للثانية فقيلَ السلام عليك يا ممتلئةً نعمة. لتلك قيل ستكونينَ خاضعةً لرجلِكِ وللأخرى الرَّبّ معك. إنّ حوّاء، بسماعِها الحيّة، ارتكبتْ إثمًا مولدًا الموت، وأمّا مريم فبخضوعِها لله، قد تغلَّبتْ على الحيَّة الغاشمة، وجلبتْ عدم الموت".

السلام عليكِ يا مُنقِذةَ حوَّاءَ من الدُّموع (البيت ١).

٦. المنارة من الذهب (خر ٢٥: ٣١-٤٠، أح ٢٤: ١-٤)

إنّ المنارة الذهبيّة ترمز في العهد القديم إلى الشّعب العبرانيّ الَّذي يحمل النّور من خلال حضور الله في وسطه، إذ إنّ المنارة تمثِّل مسكن الله وهيكله. أمّا في العهد الجديد، فهي ترمزُ، قبل كلِّ شيءٍ، إلى **المسيح**، النّور الحقيقيّ الَّذي أتى إلى العالم ليُنيرَ كلّ إنسان (يو ١: ٩)، وهو مَن قال عن

نفسه في الإنجيل المقدّس: "أنا نورُ العالم، مَن يَتبَعْني لا يمشِ في الظّلام، بل يكون له نورُ الحياة" (يو ٨: ١٢)؛ إنّها ترمز أيضًا إلى **الكنيسة** (راجع رؤ ١: ٢٠) المستنيرة بالرّوح القدس والّتي يشبِّهُها المسيح بخمس عذارى حكيماتٍ حملن زيتًا في آنيتِهنَّ، وخرجن للقاء العريس (مت ٢٥: ١-١٣)؛ وهي أخيرًا ترمز إلى **العذراء الطّاهرة مريم** لأنّها أُمُّ النّور المعجز البيان، وهي أوّلُ خليقةً اتّحدت بهذا النّور الإلهيّ وأصبحت بكليَّتها إنسانةً ساطعةً بالإلهيّات.

السلام عليكِ يا مَن وَلَدَتِ النُّورَ ولادةً تُعجِزُ البَيان (البيت ٣)

السلام عليكِ يا عمودًا ناريًّا يَهدي الَّذين في الظَّلام (البيت ١١)

السلام عليكِ يا بَرقًا مُضيئًا للنّفوس

السلام عليكِ لأنَّكِ تُطلِعينَ النُّورَ الكثيرَ الضِياء (البيت ٢١).

٧. الفردوس الأرضيّ (تك ٢: ٨-٩؛ ٣: ١٧-١٨)

في مريم تَفَتَّحَتْ أزهارُ الفضائل وثمار القداسة، فهي الفردوس الَّذي تَسقيه مياهُ النِّعمة، ويسوع هو شجرةُ الحياة الَّذي نَبَتَ في حشا مريم، إذ إنّها [مريم] الخليقةُ الَّتي أدخلت إلى حضنها المختارين وجعلتهم متَّحدين بالله، وهذا هو معنى التألُّه في اللاهوت الشرقيّ:

السلام عليكِ لأنَّكِ تُنعِشينَ رَوضةَ النَّعيم (البيت ٥)

السلام عليكِ يا خادمةَ النَّعيمِ المقدّس

السلام عليكِ يا مَن يَجري منها اللَّبَنُ والعسَل (البيت ١١)

السلام عليكِ يا مَن بها فُتِحَ الفردوس (البيت ١٥).

٨. الصَّخرة (خر ١٧: ١-٨)

في مسيرة شعب الله من أرض العبوديّة إلى أرض الميعاد، نقصه الماء وكاد يهلك فتذمّر. وكانت كلمةُ الرَّبِّ إلى موسى أنِ اضرِبْ بعصاك الصَّخرة، فيخرجَ منها ماءٌ يروي الشّعب. من الصّخرة أعطى الله شعبَه الماء، ومن مريم أعطاه الحياة؛ من الصَّخرة أعطاه المياه الَّتي تروي الجسد وتقيه من الموت، ومن مريم أعطاه الميا الحيّةَ الَّتي تُحيي الجسدَ والرُّوح معًا، فلا يعود مَن يشربها يعطش.

السلام عليكِ يا صخرةً أَروَتِ العِطاشَ إلى الحياة (البيت ١٠)

السلام عليكِ لأنَّكِ تُجرِينَ النَّهرَ المُتَدَفِّق (البيت ٢١).

٩. أرض الميعاد (يش ٥)

إنّها أرضُ الميعادِ الحقيقيّة لجميع الشُّعوب الرّاغبة في معرفة الله، واختباره بالإيمان الشخصيِّ المَعيش، حيث اللقاءُ مع السيِّد المولود منها، وحيث أصبحتْ هي "الحليبُ والعسل" كتعبيرٍ مجازيٍّ للغذاء الروحيّ لكلِّ مَن يأتي إليه.

السلام عليكِ يا أرضَ الميعاد (البيت ١١).

١٠. الأرض الخصبة (تث ٨: ٧؛ ٣٣: ٢٨)

السلام عليكِ يا أرضًا تؤتينا ثمرًا لا يَفسُد

السلام عليكِ يا مَن أَنشأتِ الفَلاحَ المحبَّ البشر

السلام عليكِ يا حَقلةً مُنبتةً وَفرةَ الرأفات (البيت ٥).

١١. عروس الأناشيد (٢: ٢؛ ٣: ٦؛ ٤: ١-٢؛ ٧: ١٢-١٣؛ ٥: ٢؛ ٦: ١٠)

افرحي يا عروسة لا عروس لها.

١٢. المائدة الَّتي كان يُوضَعُ عليها خبزُ التَّقدمة (خر ٢٥: ٢٣-٣٠؛ أح ٢٤: ٥-٩)

السلام عليكِ يا مائدةً حافِلَةً بالغُفران (البيت ٥)

السلام عليكِ يا حياةَ الوليمةِ السِّرِّية (البيت ٢١).

١٣. سفينة نوح (تك ٦؛ ٧؛ ٨؛ ٩)

السلام عليكِ يا سفينةً للَّذين يَرومون خلاصًا (البيت ١٧).

١٤. المرأة الحكيمة

إنّ حكمة الله الَّتي تعمل في العالم كقدرةٍ وقوّةٍ وعناية، لمّا "حان ملء الزّمان" دخلت مسيرة التّاريخ كشخصٍ. وقد "ابتَنَت" حكمة الآب الأقنوميّة لها "بيتًا"، وهو جسد العذراء الطّاهرة الَّذي اتّخذه الكلمة. فالعذراء بنقاوتها وطهارتها الروحيّة والجسديّة، أصبحت أهلاً لأن تصير كنيسة الرّوح القدس وهيكله، وهذا ما يجعلها المرأة الحكيمة ذات المعرفة الإلهيّة.

السلام عليكِ يا مَن تَفوقُ علمَ الحكماء (البيت ٣)

السلام عليكِ يا إناءَ حكمةِ الله

السلام عليكِ يا من تُظهِرُ الحكماءَ بلا حكمة

السلام عليكِ يا مَن تَنتشِلُ من وَهدةِ الجهالة (البيت ١٧).

٢) العهد الجديد

لوقا ١: ٢٦-٣٥، ٣٩-٤١؛ ٢: ٣٥	الأكاثستوس
وفي الشَّهرِ السَّادس، أَرسَلَ اللهُ الملاكَ جبرائيلَ إلى مدينةٍ في الجليلِ اسمُها النّاصرة، إلى عذراءَ مخطوبةٍ لرجلٍ من بيت داود اسمُه يوسف، واسمُ العذراءِ مريم. فدَخَلَ إليها فقال: "إفرحي (السّلامُ عليكِ)، أيَّتُها الممتلئةُ نعمةً، الرَّبُّ معكِ... (لوقا ١: ٢٦-٢٨).	إنَّ الملاك المتقدِّمَ أُرسِلَ من السماء ليقرأَ السّلامَ على والدة الإله... السلامُ عليكِ يا سمةً للنِّعمة بهيَّة، السلامُ عليكِ يا سرورَ جميعِ الأجيال، السلامُ عليكِ يا قديسةً تفوق القديسين...
فداخلَها لهذا الكلامِ اضطرابٌ شديدٌ وسألَتْ نفسَها ما معنى هذا السَّلام (لوقا ١: ٢٩).	لما رأتِ القدّيسةُ ذاتَها في حالة النَّقاوة، قالت لجبرائيل بجرأةٍ: إنَّ مقالَكَ الغريبَ يبدو لنفسيَ عَسِرَ القَبول.
فقالَ لها الملاك: "لا تخافي يا مريم، فقد نِلتِ حُظوةً عند الله. فستَحمِلينَ وتَلِدينَ ابنًا فسَمِّيهِ يسوع. سيكونُ عظيمًا وابنَ العليِّ يُدعى، ويُوليهِ الرَّبُّ عرشَ أبيه داود، ويَملِكُ على بيتِ يعقوبَ أبدَ الدَّهر، ولن يكونَ لملكِهِ انقضاء (لوقا ١: ٣٠-٣٣).	فكيفَ تَذكُرُ حملاً مِن حَبَلٍ بلا زرعٍ... السلامُ عليكِ يا من بها يشرق الفرح، لأنَّكِ سُدَّة الملك، لأنَّكِ تحمِلين حامل الكائنات، يا حشا التجسُّد الإلهي، يا من بها يصير الخالق طفلاً، يا مُطّلِعَةً على القرار المعجز البيان، يا من أظهرتِ المسيح الرَّبّ المحبَّ البشر، يا مسكن الله الذي لا يحويه مكانٌ، يا بابَ السِّرِّ الجليل، يا مركبةً قدسيَّةً للرّاكب على الشروبيم، يا مَسكِنًا فخمًا جدًّا للجالس على السِّرافيم...
فقالتْ مريمُ للملاك: "كيف يكونُ هذا ولا أَعرِفُ	لما التمستِ العذراءُ أن تعلمَ ما لا يُعلَم،

رجلاً؟" (لوقا ١: ٣٤).	هَتَفَتْ نحو الرسول: قُل لي كيف يمكن أن يولدَ ابنٌ من أحشائيَ النقيَّة؟... السلامُ عليكِ يا فاتحةَ عجائبِ المسيح، يا مُرشِدةَ المؤمنين إلى العفّة، يا زهرةَ البتوليّة، يا إكليلَ العفّة، يا مَن أظهرت سيرةَ الملائكة، يا مَن قَرَنَتْ بين البتوليَّة والنفاس، يا عنوانَ البتولية، يا خِدرَ الزَّواجِ الَّذي بلا زرع.
فأجابَها الملاك: "إنّ الرّوحَ القدسَ سيَنزِلُ عليكِ وقدرةَ العَلِيِّ تُظلِّلُكِ، لذلكَ يكونُ المولودُ قُدُّوسًا وابنَ اللهِ يُدعى" (لوقا ١: ٣٥).	إنَّ قدرةَ العَلِيِّ ظَلَّلَتْ حينئذٍ الَّتي لم تَختبر زواجًا، لكي تَحبَل، فأظهرتْ أحشاءَها المُثمِرةَ حقلاً طيِّبًا لجميعِ الَّذين يَرومونَ أن يَجنُوا خلاصًا.
وفي تلكَ الأيَّام، قامَتْ مريمُ فمَضَتْ مُسرِعَةً إلى الجبلِ إلى مدينةٍ في يهوذا. ودَخَلَتْ بيتَ زكريَّا، فَسَلَّمَتْ على أليصابات. فلَمَّا سَمِعَتْ أليصاباتُ سلامَ مريم، ارتَكَضَ الجنينُ في بطنِها، وامتلأتْ من الرّوحِ القدس (لوقا ١: ٣٩-٤٢).	إنَّ البتولَ أَسرَعَتْ نحو أليصابات، وهي تَحمِلُ اللهَ في مستودعِها. فحالما عَرَفَ جنينُ هذه سلامَ تلك، فَرِحَ وشَرَعَ يَهتِفُ بارتكاضِه كأنَّما بنغماتٍ إلى والدة الإله...
متى ١: ١٨-٢١	
أمّا أصلُ يسوعَ المسيح، فكانَ أنْ مريمَ أُمَّه، لَمَّا كانت مَخطوبةً ليوسُف، وُجِدَتْ قبلَ أن يَتَساكنا حامِلاً من الرّوحِ القدس. وكانَ يوسُفُ زوجُها بارًّا، فَلَمْ يُرِدْ أن يَشهَرَ أمرَها، فعزَمَ على أن يُطَلِّقَها سِرًّا. وما نَوى ذلك	إنَّ يوسفَ العفيف شَعَرَ في داخلِه بعاصِفَةٍ من الأفكارِ المقلقة. فاضطربَ حين نَظَرَ إليكِ أنتِ البكر، وظَنَّ أنَّكِ مباشرةٌ خِلسةً يا مُنَزَّهَةً عن العيب. ولكن لَمَّا عَرَفَ أنَّ

حتّى تراءى له ملاكُ الرَّبِّ في الحُلمِ وقالَ له: "يا يوسُفُ ابنَ داود، لا تَخَفْ أن تأتِيَ بامرأتِكَ مريمَ إلى بيتِكَ. فإنَّ الَّذي كُوِّنَ فيها هو من الرّوحِ القدس، وستَلِدُ ابنًا فَسَمِّهِ يسوع، لأنّه هو الَّذي يُخَلِّصُ شعبَهُ من خطاياهم".	حَبَلَكِ من الرّوحِ القدس قال: هلِّلويا.
لوقا ٢: ٨-١٦	
وكانَ في تلكَ النّاحيةِ رُعاةٌ يَبيتونَ في البريَّة، يَتَناوبونَ السَّهَرَ في اللَّيلِ على رَعِيَّتِهم. فحَضَرَهم ملاكُ الرَّبِّ وأَشرَقَ مجدُ الرَّبِّ حَولَهم، فخافوا خَوفًا شديدًا... وانضَمَّ إلى الملاكِ بغتةً جمهورُ الجندِ السَّماويّ يُسَبِّحونَ الله فيقولون: "المجدُ لله في العُلَى! والسَّلامُ في الأرضِ للنّاسِ فإنّهم أهلُ رِضاه!".	سَمِعَ الرُّعاةُ الملائكةَ يُنشِدونَ لظُهورِ المسيحِ بالجسد،
فَلَمَّا انصرَفَ الملائكةُ عنهم إلى السَّماء، قال الرُّعاةُ بعضُهم لبعض: "هَلُمَّ بنا إلى بيتَ لحم، فنَرى ما حدث، ذاكَ الَّذي أخبَرَنا به الرَّبّ". وجاؤوا مُسرِعينَ، فوَجَدوا مريمَ ويوسُفَ والطِّفلَ مُضجَعًا في مذود.	فركضوا إليه كأنما إلى الراعي، فشاهدوه يرتع في حضن مريم، السّلامُ عليكِ يا عَجَبَ الملائكةِ الذائع الصِّيت، يا أُمَّ الحملِ والرّاعي...
متى ٢: ١-٩	
... إذا مجوسٌ قَدِموا أورشليمَ من المَشرقِ وقالوا: "أينَ ملكُ اليهودِ الَّذي وُلِد؟ فقد رأينا نجمَهُ في المشرق، فجِئنا لِنَسجُدَ له"... فلَمَّا سَمِعُوا كلامَ الملك ذهَبوا. وإذا النَّجمُ الَّذي رأَوه في المشرق يَتَقَدَّمُهم، حتّى بَلَغَ المكانَ الَّذي فيه الطِّفلُ فوقَفَ فوقَه.	لَمَّا رأى المجوسُ كوكبًا يُسَيِّرُه الله، اتَّبعوا ضياءَه واتَّخذوه كمصباحٍ يَبحَثون به عن الملكِ القدير. فلَمَّا بَلَغوا إلى مَن لا يُبلَغُ إليه فَرِحوا وهتفوا له: هلِّلويا.

فلَمَّا أبصروا النَّجمَ فَرِحوا فَرَحًا عظيمًا جدًّا. ودَخَلوا البيتَ فرأَوا الطِّفلَ مع أُمِّه مريم. فجَثَوا له ساجِدين، ثم فتحوا حقائبَهم وأهدَوا إليه ذهبًا وبَخورًا ومُرًّا.

... ثمّ أُوحِيَ إليهِم في الحُلمِ ألاَّ يَرجِعوا إلى هيرودس، فانصرَفوا في طريقٍ آخَرَ إلى بلادِهم.

وكان بعدَ انصرافِهم أنْ تراءى ملاكُ الرَّبِّ ليوسُفَ في الحلم وقال له: "قُمْ فَخُذِ الطِّفلَ وأُمَّهُ واهرُبْ إلى مصر...".

لوقا ٢: ٢٢-٣٤

ولَمَّا حانَ يومُ طُهورِهِما بحسبِ شريعةِ موسى، صعدوا به إلى أورشليم ليُقَدِّماهُ للرَّبّ. كما كُتِبَ في شريعةِ الرَّبِّ مِن أنّ كلَّ بكرٍ ذكرٍ يُنذرُ للرَّبّ... وكان في أورشليم رجلٌ بارٌّ تَقِيٌّ اسمُه سمعان، يَنتَظِرُ الفرجَ لإسرائيل والرّوحُ القدس نازلٌ عليه... حَمَلَهُ على ذِراعَيه، وباركَ الله، وقال: "الآنَ تُطلِقُ، يا سيّد، عبدَكَ بسلام، وَفقًا لقولِكَ. فقد رأَتْ عينايَ خلاصَكَ الَّذي أَعدَدتَهُ في سبيلِ الشُّعوبِ كلِّها، نورًا يَتَجلَّى للوثنيِّينَ ومجدًا لشعبِكَ إسرائيل".

أَبصرَ فِتيانُ الكَلدانيِّينَ في يَدَيِ البتولِ جابلَ البشرِ بيدِه. وفَقِهوا أنّه السيِّد وإنِ اتَّخذ صورةَ عبدٍ، فبادروا إلى إكرامِه بالهدايا...

لَمَّا غدا المجوسُ مُبَشِّرينَ لابسينَ الله، عادوا إلى بابلَ بعد أن أَتَمُّوا ما أُوحِيَ به إليهِم، وبَشَّروا الجميعَ أنَّكَ المسيح، مُهمِلينَ هيرودسَ كأحمقَ لا يَعرِفُ أنْ يُرنِّمَ: هلِّلويا.

لَمَّا أَشعَلتَ في مصر نورَ الحقيقة، أَقصَيتَ دَيجورَ الكَذِب، لأنَّ أصنامَها لم تَثبُتْ أمام قُوَّتِكَ أيُّها المخلِّص، فَهَوَت.

لَمَّا أزمعَ سمعان أن ينتقِلَ من هذا الدَّهرِ الحاضرِ الخدّاع، دُفِعتَ إليه كطفل، لكنَّهُ عَرَفَ أنَّكَ أيضًا إلهٌ كامل، فَدَهِشَ من حكمتِكَ الَّتي لا تُوصَف. صارخًا: هلِّلويا. "السّلامُ عليكِ يا مَن أُلبِسنا بها المجد".

القسم الخامس

الأكاتستوس في كتاب "حياة مريم" لمكسيموس المعترف

١) أصلُ كتاب "الحياة"

بإمكاننا توجيهُ أنظارِنا إلى أحداثٍ إلهيَّةٍ صَبَغَتْ حياةَ مريمَ الممتلةَ من الحبلِ البتوليّ حتّى الانتقال، القبرِ والمجد، بالإضافة إلى الأهميَّة الكبرى لوجود ذخائرها المقدّسة [ثوبها وزُنَّارِها] المحفوظةِ على التّوالي في معبدَين مريميَّين هما الفلاخرني وخلكوبْرَتيا في القسطنطينيّة. "فحياةُ مريم" هو عنوانُ كتابٍ لغتُه الأصليَّة اليونانيّة، مُتَرجَمٌ إلى اللغةِ الجورجيّة، على الجبلِ المقدّس آثوس، من الراهبِ أفثيميوس، بين الأعوام ٩٨٠-٩٩٠م، وهو الزّمنُ الَّذي يُحدِّدُ نشاطَهُ في آثوس. يَظهرُ ذلك بوضوحٍ في خاتمةِ الكتاب "أيُّها المسيح، ملكُ المجد، بشفاعةِ الَّتي وَلَدَتْكَ القدّيسةُ مريم البتول، إرحَم وخلِّصْ روحَ عبدِكَ الفقير أفثيميوس، الَّذي ترجَمَ هذا الكتابَ المقدّس لحياةِ العذراءِ الثيوطوكس، من اليونانيّةِ إلى الجورجيّة، لجبلِ آثوس". وهو محفوظٌ اليوم باللغة الجورجيّة فقط. رَقَدَ هذا الراهبُ في الرَّبِّ في العام ١٠٢٨م. لا نَملِكُ المخطوطَ الأصليَّ لهذا الكتاب، لكنّ نَسخةً مُدوَّنةً وصلَتْنا في العام ١٠٣٠م أي بعد مرور سنتَين على رُقاد الراهب أفثيميوس.

إنّ لهذا الكتابِ أهميَّةً استثنائيّة، إذ إنّه قد يُشكِّلُ شهادةً فريدةً للقرنِ السّادسِ الميلاديّ من زاوية تطوُّر العقيدة المريميّة، لأنّ من الممكنِ أنْ

يكونَ كاتبُه هو اللاهوتيُّ المُحلِّقُ في سماء الإلهيَّات، مكسيموس المعترف. فالنَّسخةُ الجورجيّةُ الَّتي تُنسَبُ للرّاهب أفثيميوس فقط، تؤكِّدُ أنّ كاتبَ "حياة مريم" هو مكسيموس المعترف، من خلال ما جاءَ في افتتاحيَّتِها: **"نشيدٌ ومجد، تقريظٌ ومديح لملكتنا الكليَّة القداسة، الطّاهرة والكاملة البركات الثيوطوكس، مريمَ الدّائمةِ البتوليّة، والَّتي لم تَمَسَّها يدٌ طوالَ حياتها، وهي مباركَةٌ منذ مولدِها وحتّى رُقادها، كُتِبَتْ من أبينا المبارَك مكسيموس الفيلسوف والمعترف"**؛ بالتّوازي، نَجِدُ افتتاحيَّةَ مخطوطٍ جورجيٍّ آخر "للحياة" يؤكِّدُ نِسبةَ هذا الكتاب إلى مكسيموس: **"حياةُ وتحوُّلُ القدّيسةِ الثيوطوكس والدّائمةِ البتوليَّةِ مريم منذ مولدِها وحتّى رُقادها، كُتِبَتْ من المبارَكِ مكسيموس المعترف. بارِكْنا أيُّها الآب"**. نَلحَظُ أنّ كِلا المخطوطَين متَّفقانِ في نسبة "الحياة" إلى مكسيموس المعترف.

٢) مَن هو مكسيموس المعترف؟

وُلِدَ مكسيموس في القسطنطينيّة عام ٥٠٨م، لعائلةٍ متقدّمة في الشرف والغنى، وقد تربّى تربيةً لائقةً ونجحَ في العلوم كافّة، وكان منذ صباه يضاهي أعظمَ علماء عصره، مما دفع الملكَ هرقل أن يختارَه أمينَ سرِّه الأوّل. هذه الكراماتُ البشريَّةُ والغنى لم تَرْوِ ظَمَأَ القدّيس مكسيموس، فتركَ القصرَ الملكيَّ وتركَ هذه الوظيفة بعد ثلاثة أعوام، إذ أفاضَ الله في قلبه نِعَمَه الإلهيَّة، وترهَّبَ في دير والدة الإله في "خريسوبوليس" قرب القسطنطينيّة، راغِبًا في أن يحيا الحياةَ الملائكيّة.

اختبرَ مكسيموسُ في الدّير جميعَ أنواع الصّيام والتقشّف، وكان يقضي معظمَ الليل في الصّلاة، وبعد عشرِ سنواتٍ أمضاها في الهدوئيّة، انتقلَ مع تلميذٍ له للعيش في دير قريبٍ في" كيزيكوس"، وهناك باشرَ كتابةَ أولى مؤلَّفاتِه عن الصّلاة والمحبّة المقدّسة. غير أنّ هجومَ الجيش الفارسيّ على القسطنطينيّة دَفَعَ الرهبانَ إلى الهرب، فذهب مكسيموسُ أوّلاً إلى كريت ثم إلى قبرص فقرطاجة (عام ٦٣٢م) وهناك قاومَ القائلينَ بطبيعةٍ واحدةٍ إلهيَّةٍ في المسيح.

أَمَرَ الإمبراطورُ بإلقاء القبض على مكسيموس، واتّهمَه برَميِ الشِّقاقِ في الكنيسة، فحُكِمَ عليه بالنّفي إلى "تراقيا" حيث البرابرة الوثنيون، فعانى كثيرًا في المنفى. بعدها أُحضِرَ مكسيموسُ أمام بطريرك القسطنطينيّة ومجمع الأساقفة، فوقفَ أمامهم ودافع عن الإيمان بطبيعتَين وإرادتَين بشريّةٍ وإلهيّةٍ في المسيح. فأهانوه وأسلموه لحاكم المدينة الَّذي أَمَرَ بجلده وقطع لسانه ويده اليمنى أيّ العضوَين الَّلذين بهما اعترف بإيمانه، ثم ساقه الجند مُدَمَّى في شوارع القسطنطينية وأودعوه قلعةً في أقاصي "القوقاز"، وبقي هناك إلى أن أسلم الروح في ٢١ كانون الثاني ٦٦٢م عن عمرٍ ناهزَ الثّانية والثّمانين.

٣) مقارنةٌ بين نصّ الأكاثستوس ونصّ الحياة

نصّ الأكاثستوس	النّصّ الجورجيّ "للحياة"

البيت الأول

١. السلامُ عليكِ يا من بها يُشرقُ الفرح.

٢. السلامُ عليكِ يا من بها تضمحلُّ اللعنة.

٣. السلامُ عليكِ يا تجديدَ دعوة آدم الساقط — **إنّها قيامةُ آدمَ المخلوع[١٠٠] "السَّاقط".**

٤. السلامُ عليكِ يا منقذةَ حوّاءَ من الدّموع. — **إنّها ماسحةُ دموعِ حوّاء[١٠١].**

إنّها مُعزِّيَةُ الحزانى.

٥. السلامُ عليكِ يا عُلوًّا لا تَسمو إليه أفكارُ البشر.

٦. السلامُ عليكِ يا عُمقًا لا تبلغُهُ حتّى أبصارُ الملائكة.

٧. السلامُ عليكِ لأنكِ سُدَّةُ الملك. — **إنّها عرشُ الملك.**

٨. السلامُ عليكِ لأنكِ تحملينَ حاملَ الكائنات. — **إنّها حاملةُ حاملِ الكلّ.**

٩. السلامُ عليكِ يا كوكبًا مُظهِرًا الشّمس.

١٠. السلامُ عليكِ يا حشا التجسّد الإلهي.

---

[١٠٠] بسقوطِه في معصيَة أوامرِ الله، وبطردِه من الفِردوس ونفيه إلى الأرض، خُلِعَ آدمُ عن عرشِ مملكةِ السَّماء الَّتي كان اللهُ قد أعطاه حقَّ التَّسلُّطِ عليها، رِعايتِها وتدبيرِها (تك ١: ٢٦، ٢٨؛ ٢: ١٩).

[١٠١] بما إنّ مريمَ هي والدةُ الحمل، فهي الَّتي أَنجَبَتْ مَن سيَمسَحُ الدّموعَ من عيونِ البشر، دموعِ الغربةِ والتَغَرُّبِ عن الله والهويّةِ الإلهيَّةِ – الإنسانيّةِ الحقيقيّة. وهنا، تلميحٌ إلى سفر الرؤيا: "لأنّ الحملَ الَّذي في وَسَطِ العرشِ سيَرعاهم وسيَهديهِم إلى ينابيعِ ماءِ الحياة، وسيَمسَحُ اللهُ كلَّ دمعةٍ من عيونِهم" (رؤ ٧: ١٧).

١١. السلامُ عليكِ يا من بها تَتَجدَّد الخليقة. **إنَّها تجديدُ العالمِ القديم.**

١٢. السلامُ يا من بها يَصيرُ الخالق طفلاً.

البيت الثالث

١. السلامُ عليكِ يا مطَّلِعةً على القرار المُعجزِ البيان.

٢. السلامُ عليكِ يا صمتًا للطّالبينَ بُرهانًا.

٣. السلامُ عليكِ يا فاتحةَ عجائب المسيح.

٤. السلامُ عليكِ يا رأسَ أوامره.

٥. السلامُ عليكِ يا سلَّمًا سماويَّةً بها انحدر الإله. **إنَّها السُّلَّمُ الَّذي نَصعَدُ به إلى السَّماء وهو ذاتُه الَّذي نَزَلَ منه الرَّبُّ إلى الأرض.**

٦. السلامُ عليكِ يا جسرًا ناقلاً الأرضيّين إلى السّماء. **إنّها الجسرُ الَّذي يقودُ المؤمنين من الأرضِ إلى السَّماء.**

٧. السلامُ عليكِ يا عَجَبَ الملائكة الذائع الصِّيت. **إنّها دَهشةُ الملائكة.**

٨. السلامُ عليكِ يا جرحًا للشياطين مثيرًا لنحيبهم. **إنّها جروحُ الشَّياطين، وهي الَّتي سَحَقَتْهم.**

٩. السلامُ عليكِ يا مَن وَلَدَتِ النُّور ولادةً تُعجز البيان.

١٠. السلامُ عليكِ يا مَن لم تُعلّم أحدًا أن يقولَ كيف.

١١. السلامُ عليكِ يا مَن تفوق عِلم الحكماء.

١٢. السلامُ عليكِ يا من تُنير أذهانَ المؤمنين.

البيت الخامس

١. السلامُ عليكِ يا غُصنًا يَحمِلُ بُرعُمًا لا يذبل. **إنّها جوهرُ الطّاعة والاستقامة "عدم الفساد".**

٢. السلامُ عليكِ يا أرضًا تؤتينا ثمرًا لا يَفسُد.	**إنّها شجرةُ الثِّمارِ الخالدة "الأبديّة، السرمديّة".**
٣. السلامُ عليكِ يا من أنشأتِ الفلاّح المُحبَّ البشر	**إنّها الَّتي أنشأتِ العاملَ المحبَّ "صديق" البشر.**
٤. السلامُ عليكِ يا من أنجبت غارس حياتنا.	**إنّها الَّتي أزهرَتِ الَّذي غَرَسَ الخلاص.**
٥. السلامُ عليكِ يا حقلةً منبتةً وفرة الرأفات.	**إنّها الحقلُ الَّذي أنبتَ السُّنبلةَ الَّتي تُثبِّتُ "تُرسِّخُ" القلوب.**
٦. السلامُ عليكِ يا مائدةً حافلةً بالغفران.	**إنّها المائدةُ الَّتي تَحمِلُ السَّعادةَ الأبديّة.**
٧. السلامُ عليكِ لأنَّكِ تنعشين روضة النعيم.	
٨. السلامُ عليكِ لأنَّكِ تهيِّئين ميناء النفوس.	
٩. السلامُ عليكِ يا عَرف الشفاعة المقبول.	**إنّها البَّخورُ المقدَّمُ لله لمساعدتِنا.**
١٠. السلامُ عليكِ يا استغفار كل العالم.	**إنّها دالَّةُ "شفيعةُ" العالم.**
١١. السلامُ عليكِ يا مرضاة الله على الأنام.	
١٢. السلامُ عليكِ يا دالَّة البشر لدى الله.	**إنّها سببُ انتعاشِ البشريَّةِ المائتةِ بقربِ الله.**

البيت السّابع

١. السلامُ عليك يا أمَّ الحمل والراعي.	**إنّها أمُّ الرّاعي الصَّالح.**
٢. السلامُ عليكِ يا حظيرة للأغنام النّاطقة.	**إنّها منزلُ الخرافِ النّاطقة.**
٣. السلامُ عليكِ يا سلاحًا لصدِّ الأعداء غيرِ المنظورين.	**هي الَّتي تَطردُ الأعداءَ غيرَ المنظورين.**

٤. السلامُ عليكِ يا مِفتاح أبواب الفردوس. **هي الَّتي فَتَحَتْ أبوابَ الفردوس.**

٥. السلامُ عليكِ لأنَّ ما في السماء يبتهج مع الأرض.

٦. السلامُ عليكِ لأنَّ ما على الأرض يطرب مع السماوات.

٧. السلامُ عليكِ يا فم الرسل الذي لا يصمت. **إنّها صوتُ الرسلِ الَّذي يفوقُ الوصف.**

٨. السلامُ عليكِ يا جُرأةً لا تُغلب للظافرين في الجهاد. **إنّها سَنَدُ التَّلاميذِ الَّذي لا يُقهَر.**

٩. السلامُ عليكِ يا سندًا وطيدًا للإيمان. **إنّها قُوَّةُ المسيحيّين وأصالتُهم الرّاسخة.**

١٠. السلامُ عليكِ يا سِمةً للنعمة بهيّة.

١١. السلامُ عليكِ يا مَن عُرّيَت بها الجحيم.

١٢. السلامُ عليكِ يا مَن أُلبسنا بها المجد.

البيتُ التّاسع

١. السلامُ عليكِ يا أمَّ النَّجم الَّذي لا يغيب. **إنّها مَنبعُ النُّورِ والعدل.**

٢. السلامُ عليكِ يا سنى النّهار السريّ. **إنّها فجرُ النّهارِ الَّذي لا ليلَ له.**

٣. السلامُ عليكِ يا مَن أطفأت أتون الخديعة.

٤. السلامُ عليكِ يا مَن تنير المطّلعين على سرِّ الثالوث.

٥. السلامُ عليكِ يا مَن أقصتِ الطّاغيّة العاتيَ عن سيادته.

٦. السلامُ عليكِ يا مَن أظهرت المسيح الرَّبَّ المحبَّ البشر. **إنّها الَّتي تُظهِرُ لنا المسيحَ المخلِّصَ صديقَ الإنسان.**

٧. السلامُ عليكِ يا مَن خلّصتنا من شعائر البربر. **إنّها الَّتي تُخلِّصُنا من ورطةِ كثرةِ خطايانا.**

٨. السلامُ عليكِ يا مَن أنقذتنا من حمأة الأفعال. **ونحن خُلِّصْنا بها من سيطرةِ شهواتِنا الكثيرة.**

٩. السلامُ عليكِ يا مَن أبطَلَتِ السُّجودَ للنّار.

١٠. السلامُ عليكِ يا مُنَجِّيَةً من لهيب الأهواء.

١١. السلامُ عليكِ يا مرشدة المؤمنين إلى العفّة.

١٢. السلامُ عليكِ يا سرور جميع الأجيال.

البيت الحادي عشر

١. السلامُ عليكِ يا نهوض البشر. **إنّها الَّتي تَرفَعُ البشر.**

٢. السلامُ عليكِ يا سقوط الأبالسة. **إنّها سقوطُ الشَّيطان والشّرّ.**

٣. السلامُ عليكِ يا مَن وطئت عزّة الضلال.

٤. السلام عليك يا مَن فضحت غشَّ الأصنام.

٥. السلامُ عليكِ يا بحرًا غرَّق فرعون العقلي.

٦. السلامُ عليكِ يا صخرةً أروتِ العِطاش إلى الحياة. **إنّها صخرةُ الحياة الَّتي تُنبِعُ الميلةَ الأبديّة، الَّتي لا تموتُ، إلى العطشى.**

٧. السلامُ عليكِ يا عمودًا ناريًا يهدي الذين في الظلام. **إنّها عمودُ النّورِ الَّذي يَهدي ويُضيءُ الظَّلام.**

٨. السلامُ عليكِ يا سترًا للعالم أوسع من الغمام.

٩. السلامُ عليكِ يا غذاءً يقوم بدل المنّ. **إنّها الجرنُ الَّذي يَحوي المَنَّ المتصاعِدَ إلى السَّماء.**

١٠. السلامُ عليكِ يا خادمة النعيم المقدس.

١١. السلامُ عليكِ يا أرض الميعاد. **إنّها أرضُ الميعاد.**

١٢. السلامُ عليكِ يا مَن يجري منها اللبن والعسل. **هي الَّتي أنبَتَتِ الحلاوة.**

البيت الثّالث عشر

١. السلامُ عليكِ يا زهرةَ عدمِ الفساد. **إنّها زهرةُ عدمِ الفساد.**
٢. السلامُ عليكِ يا إكليل العفّة. **إنّها تاجُ العفّة.**
٣. السلامُ عليكِ يا مَن أوضحت رمز القيامة.
٤. السلامُ عليكِ يا مَن أظهرت سيرة الملائكة. **إنّها نموذجُ الحياةِ الملائكيّة.**
٥. السلامُ عليكِ يا شجرةً لذيذة الثمر يتغذى منها المؤمنون.
٦. السلامُ عليكِ يا غرسةً ظليلةً يستظلّ بها كثيرون. **إنّها الشجرةُ كثيفةُ الظّلِّ الَّتي يستظلُّ بها كثيرون.**
٧. السلامُ عليكِ يا مَن حملتْ للضَّالينَ هادِيًا. **إنّها الوالدةُ الَّتي خلَّصتِ البشريَّةَ من عبوديّةِ مرشدِ الخاطئين.**
٨. السلامُ عليكِ يا مَن وَلَدَتْ للمأسورين فادِيًا.
٩. السلامُ عليكِ يا مستعطفة الديّان العادل. **إنّها نَجدَتُنا أمام القاضي العادل.**
١٠. السلامُ عليكِ يا مسامحة الخطأة الكثيرين. **هي الَّتي مَحَتْ صكَّ خطايانا.**
١١. السلامُ عليكِ يا حُلّة دالَّةٍ للعراة. **إنّها ثيابٌ للَّذينَ تَعَرَّوا من كلِّ خير.**
١٢. السلامُ عليكِ يا حنانًا يفوق كلَّ حبّ.

البيت الخامس عشر

١. السلامُ عليكِ يا مسكن الله الذي لا يحويه مكان. **إنّها حاويةُ الله الَّذي لا يُحتوى.**
٢. السلامُ عليكِ يا باب السّرِّ الجليل. **إنّها بابُ السِّرِّ الكبير.**
٣. السلامُ عليكِ يا نبأً لغير المؤمنين ملتبسًا.
٤. السلامُ عليك يا فخرًا للمؤمنين لا التباس فيه. **إنّها المجدُ الَّذي لا شكّ فيه للمؤمنين.**
٥. السلامُ عليك يا مركبةً قدسيةً **إنّها العرشُ المقدّسُ لذاكَ**

للراكب على الشروبيم. **الجالسِ على الشيروبيم.**

٦. السلامُ عليك يا مسكنًا فخمًا جدًّا للجالس على السّرافيم. **إنّها المسكِنُ الممجَّدُ لذاك الرّاكبِ على السيرافيم.**

٧. السلامُ عليكِ يا مَن وفّقت في ذاتها بين ضدّين. **إنّها جاذبةُ الملائكةِ والبشرِ معًا.**

٨. السلامُ عليكِ يا مَن قرنت بين البتوليّة والنِّفاس. **إنّها جَمَعَتْ بين البتوليَّةِ والولادة، إذ إنّها بتولٌ منذ الأصل، طاهرةٌ بلا دنس وأمُّ العمّانوئيل.**

٩. السلامُ عليكِ يا مَن بها انحلّت المعصية. **بها اضمحلَّتِ اللعنة.**

١٠. السلامُ عليكِ يا مَن بها فُتح الفردوس. **بها فُتِحَ الفردوس.**

١١. السلامُ عليكِ يا مفتاح ملكوت المسيح. **إنّها مفتاحُ الملكوت.**

١٢. السلامُ عليكِ يا رجاء الخيرات الأبدية. **إنّها مُسبِّبَةُ الخيراتِ الأبديّة.**

البيت السّابع عشر

١. السلامُ عليكِ يا إناء حكمة الله. **إنّها إناءُ حكمةِ الله.**

٢. السلامُ عليكِ يا خزانة عنايته. **إنّها كنزُ عنايتِه.**

٣. السلامُ عليكِ يا مَن تُظهِر الحكماء بلا حكمة.

٤. السلامُ عليكِ يا مَن تُعجز البلغاء عن النّطق.

٥. السلامُ عليكِ لأنك حمّقت مهرة المباحثين.

٦. السلامُ عليكِ لأنّ مؤلّفي الأساطير قد حُقّروا بك.

٧. السلامُ عليكِ يا مَن تُقطِّعُ أشراكَ الأثينائيّين.

٨. السلامُ عليكِ يا مَن تملأ شِباك الصيَّادين.

٩. السلامُ عليكِ يا مَن تنتشِل من وهدة الجهالة.

١٠. السلامُ عليكِ يا مَن تُنير كثيرين بالمعرفة.
١١. السلامُ عليكِ يا سفينةً للّذين يرومون خلاصًا.
١٢. السلامُ عليكِ يا ميناءَ المُبحرينَ في الحياة.

البيت التّاسع عشر

١. السلامُ عليكِ يا رُكنَ البتوليَّة. **إنّها ركنُ البتوليّة.**
٢. السلامُ عليكِ يا باب الخلاص. **إنّها بابُ الحياة.**
٣. السلامُ عليكِ يا سببَ تجديدِ جبلتنا العاقلة. **إنّها أساسُ تجديدِنا.**
٤. السلامُ عليكِ يا قيِّمةً على الجودة الإلهيَّة. **إنّها سببُ الرّحمةِ الإلهيَّةِ نحو البشر.**
٥. السلامُ عليكِ لأنّكِ أعدتِ ولادةَ مَن حُبِلَ بهم في العار.
٦. السلامُ عليكِ لأنَّك أعدتِ الصَّواب إلى المسلوبي الصَّواب.
٧. السلامُ عليكِ يا مَن عطَّلتْ عملَ مُفسِدِ النّفوس.
٨. السلامُ عليكِ يا مَن ولدت زارع النَّقاوة.
٩. السلامُ عليكِ يا خِدرَ الزواج الَّذي بلا زرع.
١٠. السلامُ عليكِ يا مَن تُصالِحُ المؤمنين مع الرّبّ.
١١. السلامُ عليكِ يا مربيةً صالحةً للعذارى.
١٢. السلامُ عليكِ يا مُزيِّنةً للعرسِ نفوسَ القدِّيسين.

البيت الحادي والعشرون

١. السلامُ عليكِ يا شُعاع الشمس العقليّة. **إنّها شعاعُ الشَّمسِ غيرِ المرئيّة.**
٢. السلامُ عليكِ يا شِهاب الضياء الذي لا يَغرُب. **إنّها شعاعُ النّورِ الَّذي لا يَنطَفِئ.**
٣. السلامُ عليكِ يا برقًا مُضيئًا للنفوس. **إنّها النّورُ الَّذي يُضيءُ النُّفوس.**
٤. السلامُ عليكِ يا مَن تُرعِّبُ الأعداء كالرَّعد. **إنّها الرَّعدُ الَّذي يُرعِّبُ الأعداء ويُخيفُ الشَّياطين.**

٥. السلامُ عليكِ لأنَّكِ تُطلعين النور الكثير الضِّياء.
٦. السلامُ عليكِ لأنَّك تُجرين النهر المُتدفِّق. **هي الَّتي تُفجِّرُ ينبوعَ الحياة.**
٧. السلامُ عليكِ يا مَن تُصوِّر رمز البركة.
٨. السلامُ عليكِ يا مَن تُزيل وَصمة الخطيئة.
٩. السلامُ عليك يا مَطهرةً تُنقّي الضمير. **هي المَغطَسُ الَّذي يُنقِّي الأفكار.**
١٠. السلامُ عليكِ يا كأسًا تُمزَج فيها البَهجة. **إنّها الكأسُ المملوءُ فَرَحًا.**
١١. السلامُ عليكِ يا شَذا طيب المسيح.
١٢. السلامُ عليكِ يا حياة الوليمة السِّرِيَّة.

البيت الثالث والعشرون

١. السلامُ عليكِ يا تابوتًا مذهَّبًا بالرّوح. **إنّها العرشُ المختارُ من الرّوحِ القدس.**
٢. السلامُ عليكِ يا كنزًا للحياة لا يَنفد.
٣. السلامُ عليكِ يا تاجًا كريمًا للملوك الأتقياء. **إنّها الإكليلُ "التاجُ" الكريمُ للملوكِ خادمي الله.**
٤. السلامُ عليكِ يا فخرًا أَثيلاً للكهنة الوَرِعين. **إنّها شرفُ وزخرفةُ رؤساءِ الكهنة الفاضلينَ والقدّيسين.**
٥. السلامُ عليكِ يا خِباءَ الله الكلمة. **هي خيمةُ كلمةِ الله.**
٦. السلامُ عليكِ يا قديسةً تفوق القدّيسين. **هي أقدسُ القدّيسين وهي فوقَ كلِّ قداسة.**
٧. السلامُ عليكِ يا بُرج الكنيسة الَّذي لا يتزعزع. **إنّها السُّورُ الصَّامِدُ للكنيسةِ الكاثوليكيّة "الجامعة".**
٨. السلامُ عليكِ يا سور المملكة الَّذي لا يُرام. **إنّها سورُ مدينةِ المؤمنين، المُتَعَذِّرُ بلوغُهُ، الَّتي قالَ فيها داود** "يقودُني

إلى المدينةِ الصَّعبة" (مزمور ٥٩: ١١)

وهي جامعةُ المؤمنين القادمينَ من تَجَمُّعِ الوثنيّين.

٩. السلامُ عليكِ يا مَن بها تُرفَعُ شارات الظَّفر.

١٠. السلامُ عليكِ يا مَن بها تُدحَر الأعداء.

١١. السلامُ عليكِ يا شفاء جسدي. **هي الَّتي تَشفي أوهانَنا.**

١٢. السلامُ عليكِ يا خلاصَ نفسي. **هي الرجاءُ والخلاصُ لنفوسِنا.**

البيت الرّابع والعشرون

أيَّتُها الأمُّ الجديرةُ بكلِّ مديح **يا جميعَ مادحي أمِّ الله**

يا مَن وَلَدَتِ **الَّتي أعطَتِ العالَمَ**

قدّوسَ القدّيسينَ **قدّوسَ القدّيسين**

الكلمةَ **كلمةَ الله**

تقبَّلي تقدمتَنا هذه **تقبَّلي بتضحيةٍ تقدمةَ طلباتِ خدَّامِكِ**

ونجِّينا أجمعين من كلِّ بليّة **واحفظينا من كلِّ مُصيبةٍ وتجربة**

وأنقذي من العقوبةِ الآتية الهاتفين: **وخلِّصينا من العذاباتِ الأبديّة**

هلِّلويا

واجعلينا أهلاً

في الحياةِ دون انتهاءِ الأعمالِ الصَّالحة

من جهةِ خيراتِ الحياةِ الأبديّة

بنعمةِ المسيح ابنِكِ وإلهِكِ

الَّذي يليقُ به كلُّ مجدٍ

آمين.

الخاتمة

بعد كلِّ ما تقدّم من تحليلٍ تشريحيٍّ للنَّشيد الأكثر شيوعًا في الليتورجيّة البيزنطيّة اليوم "الأكاثستوس"، فإنّنا نؤكِّدُ أنّ بُنيةَ النّشيد، عقيدتَه، جوَّهُ الليتورجيّ... جميعَ هذه العناصر تَضَعُنا أمام حقيقةٍ تاريخيّةٍ – عقائديَّةٍ واحدة هي أنّ الأكاثستوس كُتِبَتْ حالاً، وبكلّ تأكيد، بعد مجمع خلقيدونية الَّذي انعقدَ في العام ٤٥١م. فمناسبةُ كتابته جاءتْ كاحتفالٍ كنسيٍّ بالثيوطوكس "والدة الله" في **سرِّ الكلمة المتجسِّد** ("كاملٌ في الألوهيّة، وهو نفسُه كاملٌ في الإنسانيَّة؛ لكنّه ابنٌ وحيدٌ في طبيعتَين وبطبيعتَين، متَّحِدَتَينِ في شخصٍ واحد هو المسيح" كما جاءَ في مجمع خلقيدونية الإيمانيّ والعقائديّ") وفي **سرِّ الكنيسة، العروس السَّماويّة للكلمة المتألِّق الجمال. فالبتولُ الثيوطوكس تشترِكُ في الحقيقة، بطريقةٍ غيرِ قابلةٍ للانفصال** (سرمديّة) **في السِّرِّ الخلاصيِّ للمسيح**، إذ إنّها **الأيقونةُ المكتمِلَةُ للكنيسة عروس الحمل**، الموصوفة في سفر الرؤيا ١٩ و٢١. فَسِرُّ العرس السيِّديّ، الَّذي بموته الاختياريِّ الطَّوعيّ، طَهَّرَ وضَمَّ إلى نفسه الكنيسةَ – العروس من خلال دَمِهِ المُهَراق، وَجَدَ في مريمَ اكتمالَه.

وعليه، فإنّي أختمُ هذا الفصل بمقطعَين من لاهوت الآباء، هما:

الأوّل، ما جاءَ على لسان اللاهوتيّ **بول إفدوكيموف** وهو يعلِّقُ على سرّ مريم في البشريَّة: "ليستْ مريمُ امرأةً كسائرِ النساء، بل هي **المرأةُ المُقبلةُ** وقد رُمِّمَتْ بكارةُ أمومَتِها. **فالبشريَّةُ قاطبةً تَلِدُ الله في مريم**: فلذلكَ مريمُ هي حوَّاءُ (حياة) الجديدةُ. وعِنايَتُها الوالديَّةِ التي كانت تَحضُنُ الطفلَ يسوع، إنما تَحضُنُ الآنَ

العالَمَ وكلَّ كائنٍ بشريّ. فالكلماتُ التي أُرسِلَت على الصَّليبِ إلى الأُم: "يا امرأة هوذا ابنُكِ"، وإلى يوحنا: "هي ذي أُمُّكَ"، إنما تـُنَصِّبُها في هذه الكرامة، كرامةِ الشَّفاعةِ الوالديَّة ... إنتقالُ العذراءِ يُوصِدُ أبوابَ الموت، فتَختُمُ على العدم ختماً بمهرِهِ من عَلٍ، الإله/الإنسان، ومن أسفل، الخليقةُ الجديدةُ الأولى النَّاهضةُ من الموتِ والمؤلَّهة"[١٠٢]:

والثاني، ما جاء على لسان **غريغوريوس بالاماس** الَّذي رأى في عظاته المريميّة في والدة الإله شخصًا مخلوقًا جمع في ذاته كلّ الكمالات المخلوقة وغير المخلوقة، وتحقيقًا مُطلَقًا لجمال الخليقة، يقول: "لَمّا أراد الله أن يخلق صورة الجمال المطلق ويُظهرَ بوضوحٍ للملائكة والبشر قدرة فنِّه، **صنع مريم جميلة جدًّا حقًّا**. لقد **جمع فيها كلّ الجمالات** الجزئيّة الَّتي وزّعها على بقيّة الكائنات المخلوقة وجعلها زينة كلّ الكائنات المنظورة وغير المنظورة. لا بل جعلها مزيجًا من كلّ الكمالات الإلهيّة والملائكيّة والبشريّة، **وجمالاً ساميًا مجمّلاً العالَمين**، ومُرتقيًّا من الأرض إلى السّماء وحتّى متجاوزًا السّماء: **إنّها باكورة الكنيسة الممجَّدة**"[١٠٣].

إنها حقًّا الخليقةُ المؤلَّهة، يَتَعانَقُ في وَجهِها، السَّماويُّ والبشريُّ؛ إنّها نموذجُ الخليقة الَّتي تجلّت فيها الألوهيّة، بواسطة المسيح؛ إنّها الإكتمال الأسمى لمسيرة الخليقة الإيمانيّة نحو التحوّل في المسيح:

إنّها مريمُ البتولُ الثيوطوكس.

---

[١٠٢] مشير عون، **الإيقونة بهاء وجهك**، جامعة الرّوح القدس-الكسليك، ٢٠٠٤، ص٢١٥.

[١٠٣] فلاديمير لوسكي، **اللاهوت الصّوفي لكنيسة الشرق**، ص١٦١-١٦٢.

الخاتمة العامّة

بعد كلِّ ما تقدّمَ عرضُه في هذه الدراسة، نَخلُصُ إلى القول، إنّ شخصيَّةَ العذراءِ مريم هي شخصيَّةٌ أساسيَّةٌ في سرِّ الكلمةِ الإلهيِّ المتجسِّد وفي تاريخِ الخلاصِ بِرُمَّتِه، بدءًا من وعدِ الله لحوّاء بأنّ من نسلِها سيأتي مَن سيَسحَقُ رأسَ الحيّة، الَّذي تَحقَّقَ في البتولِ الطّاهرة، الَّتي أَنبَتَتْ لنا غارِسَ حياتِنا، لَمَّا بَلَغَ مِلءُ الزّمان، كما وَصَفَ بولسُ الرسول هذا الحدثَ الخلاصيَّ في رسالته إلى أهل غلاطية ٤: ٤-٧. وما هو ملءُ الزّمان هذا إلاّ تحقيقُ انتظار زمن المواعد، **دخولُ "حضورِ الله" في " أرضِ النّسيان" (مز ٨٨: ١٣)، انبلاجُ النَّهارِ في عتمةِ الليل، بلوغُ نهرِ الحياةِ صحراءَ موتِنا.** من هنا، أصبحتْ مريمُ حوّاءَ الجديدةَ – الَّتي أَعطَتنا الفرحَ بدلاً من الحزن، والحياةَ عِوَضًا عن الموت الَّذي كنّا في حَوزتِهِ أَرِقَّاءَ للخطيئة – بمجانيَّةِ الإيمانِ والطّاعة: "أنا أَمَةُ الرَّبّ، فليكنْ لي بحسبِ قولِك" (لو ١: ٣٨، أُنظُر أيضًا بالمقابل تك ٣: ١ الَّذي يُقدِّمُ لنا شخصيَّةَ حوّاء القديمة).

فدَورُ مريم في سرِّ العهد والتجسُّد وشخصيَّتُها الخلاصيَّة يَتَلَخَّصانِ بجُملتهما بالكلمة المؤلَّفَة من ثلاثة أَحرُفٍ، ذات المفعول الخلاصيِّ، والَّتي من خلالها بدأَ مُخَطَّطُ الله بالاكتمال: إنّها كلمةُ مريمَ للملاك جبرائيل في مشهد البشارة في المدينة المقدّسة النّاصرة، حين أَعلَنَتْ مريمُ ولاءَها وخُضوعَها الاختياريِّ بكلمة **"نعم"**. فعندما قالتْ مريمُ "نعم"، تَدَخَّلَ الرّوحُ ليَربطَ بين "الكلمة" وال"نعم"، بين الطّاقة الإلهيَّة والطّاقة الإنسانيَّة، بين العطاء

والقَبول. هذا "العهدُ" الَّذي تمّ أخيرًا بين "الكلمة" والبشر، روحُ الآب صانعُه. ففي الخلق الأوّل، كلُّ ما هو كائنٌ "دُعِيَ من العدم إلى الوجود". أمّا في هذا "الخَلق" الَّذي ابتدأ بـ "نعم" مريم، فإنّ الَّذي هو مولودٌ من الآب منذ الأزل، يُجبَلُ من أرضٍ حيَّة، من كيان أُمِّه. ففي هذا الخلق الجديد، كلُّ حَبَلٍ هو حَبَلٌ عُذريّ. ففي تَجَسُّد الكلمة، ليست مريمُ مكانًا جامدًا، ولكنّ كيانَها الشّخصِيَّ مُقَدَّمٌ، موهوبٌ، مَبذولٌ للرّوح القدس، الَّذي جَعَلَها تُجَسِّدُ في شخصها الخلاصيِّ **العنصرَ الأولى**، العنصرةَ الخفيَّة، في النّاصرة. فأنْ يكونَ الحَبَلُ بيسوعَ عُذريًّا، فذلك مُنتَهى البَداهة، فكلُّ ما فيه يَشعُّ **مجّانيّةً وحريّة**: من حُبِّ الآب، إلى قَبولِ الابن، إلى اقتبال مريم، إلى الرّوح القدس.

في هذا السِّياق، يُمكِنُنا اقتِباسُ ما قالَه **إيريناوس** († حوالي ٢٠٢م) عن شخصيَّة مريم وعملها كحوّاءَ جديدةٍ، تَستَعيدُ عملَ حوّاءَ القديمة، بقوله: "كما أنّ يدَ الله خَلَقَتْ آدمَ من **أرضٍ عذراء**، كذلك لَمَّا جَمَعَ كلمةَ الله الإنسانَ في شخصِه، وُلِدَ من مريمَ العذراء. وهكذا إلى جانِبِ حوّاء، ولكن على خِلافِها، قامتْ مريمُ بدورٍ في عَمَلِ الجَمعِ هذا الَّذي هو عملُ خلاصِ الإنسان، لَمَّا حَبِلَتْ بالمسيح. حواءُ أغواها الشَّرُّ وعَصَتِ الله. أمّا مريمُ فاستَسلَمَتْ لطاعةِ الله وصارتْ الحاميةَ عن حوّاءِ العذراء. إنّ حوّاء، وهي بَعدُ عذراء، كانت سببَ الموتِ لها وللجنسِ البشريِّ بأسرِه. أمّا مريمُ العذراء، فبطاعتِها صارتْ لها وللجنسِ البشريِّ بأسرِه سببَ خلاص. من مريمَ إلى حوّاء، هناك إعادةٌ للمسيرةِ عينِها، إذ ما من سبيلٍ لحلِّ ما تمَّ عقدُهُ إلاّ بالرجوع باتّجاهٍ معاكِسٍ لفكِّ الحِبالِ الَّتي تمَّ عَقدُها. لذلك يبدأُ لوقا نَسَبَ يسوعَ ابتداءً من الرَّبِّ ويعودُ إلى آدم (لو ٣: ٢٢-٣٨)، مُظهِرًا أنّ الحركةَ

الحقيقيَّةَ لا تَسيرُ من الأجدادِ إليه، بل منه إلى الأجداد، **وَفقَ الوِلادةِ الجديدة في إنجيل الحياة.**

هكذا أَبطَلَتْ طاعةُ مريمَ مَعصِيَةَ حوّاء. ما عَقَدَتْهُ حوّاءُ بعدمِ إيمانِها، حَلَّتْهُ مريمُ بإيمانِها. ولِمَحْوِ الضَّلالِ الَّذي لَحِقَ بالَّتي كانت مخطوبةً، العذراءَ حوّاء، حَمَلَ الملاكُ البشارةَ الجديدةَ الحقَّةَ إلى الَّتي كانت مخطوبةً، العذراء مريم. حوّاءُ ضَلَّتْ بكلامِ ملاكٍ (الشّيطان)، واختَبَأَتْ من وَجهِ الله بعد أن عَصَتْ كَلِمَتَهُ. أمّا مريمُ فبعدَ أن سَمِعَتْ من الملاكِ (جبرائيل) البُشرى الجديدة، حَمَلَتِ اللهَ في أحشائِها لأنّها أَطاعَتْ كلمتَهُ. إذا كانت الأولى عَصَتِ الله، فالثّانيةُ رَضِيَتْ بأنْ تُطيعَهُ. وهكذا صارتِ العذراءُ مريم المحاميةَ عن العذراءِ حوّاء. وكما رَبَطَ الموتُ الجنسَ البشريَّ بسببِ امرأةٍ، كذلك خُلِّصَ الجنسُ البشريُّ بواسطةِ امرأةٍ"[١٠٤].

وعليه، فإنّنا نؤكِّدُ أنّ مريمَ هي امرأةُ العهدِ الجديد بامتياز "حوّاء الجديدة"، وهي بالتّالي، أُمُّ شعبِ الله الجديد والإسكاتولوجيّ، الكنيسة المقدّسة، الَّتي هي أيقونتُها. إنّها باختصارٍ، المرأةُ المُلتَحِفَةُ بالشَّمس، شمس المسيح الكلمة، الشَّارق من الآب قبل كوكب الصُّبح، والمولود في آخر الأزمان من الأُمِّ الَّتي لم تَعرِفْ زواجًا، يا أُمَّ النُّور الَّذي لا يَغرُب، تَشَفَّعي في خلاص نفوس عبيدكِ. آمين.

---

[١٠٤] مجموعة باحثين، **تاريخ الفكر المسيحيّ**، المكتبة البولسيّة، ٢٠٠١، ص٣١٣-٣١٤.

الملحق

(١) أوريجانس

إنّ أوريجانس يُعتبر مفكِّرًا ولاهوتيًّا كبيرًا مرّ كالشّهاب في سماء الكنيسة المقدّسة. إلاّ أنّه حُرِمَ بسبب بعضٍ من تعاليمه ولا سيّما نظريّة الوجود السّابق للأنفس، حيث أصدر الإمبراطور يوستنيانوس سنة ٥٤٣م مرسومًا يحرم فيه أوريجانس. فوقّع هذا المرسوم البطاركة ومعظم أساقفة فلسطين. وقد حرمه أيضًا المجمع المسكونيّ الخامس المنعقد سنة ٥٥٣م، مُعلِنًا وجود عقائد هرطوقيّة في كتاباته. على الرغم من ذلك، فإنّ مؤلَّفاتِه تَشهد على أنّها عملُ عالمٍ وفيلسوفٍ وأخصّائيٍّ في فقه اللغة وفي تفسير الكتاب المقدّس ولاهوتيٍّ ومتصوّف. إنّ البابا لاوم الثالث عشر، في كلامه عن الكتاب المقدّس، لا يتردّد في إعطاء أوريجانس المحلّ الأوّل، الَّذي يعود له من بين مفسِّري الكتاب المقدّس في عصر الآباء في الشّرق.

من أقواله المأثورة، أقتبس ما قاله عن الفصح، إذ إنّه "يرى ثلاثة أنواع من الفصح: الفصح اليهوديّ، والفصح المسيحيّ، والفصح السّماويّ. فالفصح يعني العبور، ومن ثمّ يَحسُن بنا أن نتذكّر أنّ المسيح يَعبُر ليقودَنا معه في عبوره من الموت إلى الحياة (عب ١٠: ١٩). ثمّة إذن ثلاثة عهودٍ: العهد القديم والعهد الجديد والعهد النّهائيّ؛ وثلاثة شعوب: إسرائيل، والكنيسة، وجماعة الملكوت. وعلى هذه المجموعات الثلاث يبني أوريجانس معاني الكتاب المقدّس الثلاثة: الظّلّ (العهد القديم)، والصّورة (العهد الجديد)، والحقيقة (الإنجيل الأبديّ)"[١٠٥].

---

[١٠٥] مجموعة بلحثين، **تاريخ الفكر المسيحيّ**، ص٤٠٧-٤٠٨.

(٢) القدّيس يوحنّا الدمشقيّ

وُلِدَ في دمشق نحو سنة ٦٦٠م من إحدى كبريات الأُسر المسيحيّة. وكان أبوه الوجيه سرجون بن منصور يتولّى إدارة بيت المال عند الفتح الإسلاميّ. تثقّف يوحنّا ثقافةً عاليةً مُتقَنة. فدرس خصوصًا الفلسفةَ اليونانيّة واستشهد بها في كتاباته، وطوَّعَها في ما بعد لإيضاح العقائد المسيحيّة. وبعد أن تُوفِّيَ والدُه، صار ابنُه يوحنّا كاتبًا لأمير البلد، متقدِّمًا عنده، صاحبَ سرِّه وجهره وأمره ونهيه. تركَ يوحنّا كلَّ شيءٍ وراءه إثرَ سماعِه صوتًا داخليًّا كان يُناديه إلى مكانٍ آخر، فغادر مسقط رأسه برفقة قزما أخيه بالتبنّي متَّجهًا نحو القدس. فزارا الأماكن المقدّسة، ثمّ قصدا دير مار سابا. سامَه يوحنّا بطريرك أورشليم كاهنًا بعد سني الابتداء، وعكف من ثمّ على حياة نُسكٍ أشدّ وتقشّفٍ متزايد، وانصرف إلى وضع تلك المؤلَّفات البليغة الَّتي انتشرت في شتّى أنحاء العالم... كتب الدمشقيُّ أعمالاً عقائديّة كان أهمّها كتاب "ينبوع المعرفة" يتطرّق فيه إلى البُعد الفلسفيّ والتّاريخيّ لعلم اللاهوت وعقائد الكنيسة كالثّالوث الأقدس، التجسّد، الأسرار، العقيدة المريميّة... وأعمالاً جدليَّةً دفاعيَّةً ضدّ نسطوريوس وبدعة محطّمي الإيقونات... رقد بالرَّبّ في العام ٧٤٩م. تُعيِّد له الكنيسةُ الملكيّةُ الكاثوليكيّة في الرابع من شهر كانون الأوّل من كلّ عام.

(٣) نيقولاوس كابازيلاس

وُلِدَ في مدينة تسالونيكي عام ١٣٢٢م. حصَّل تعليمه المسيحيّ على يد المتروبوليت دوروثيوس فلاتيوس، متروبوليت تسالونيكي من عام ١٣٧١ الى ١٣٧٩، وأسّس دير "الضّابط الكلّ" وهو لا يزال موجودًا الى يومنا هذا ويعرف بدير "فلاتادون". دخل مدرسة الفلسفة في القسطنطينيّة وبرع في فنّ الخطابة والكتابة،

حتّى إنّ بعض النقّاد المعاصرين يعتبرون كتاباته تضاهي كتابات اليونانيّين القدماء من جهة اللغة والبلاغة. كان القديس نيقولا أحد أعوان الإمبراطور يوحنّا السادس. تقول بعض المصادر بأنّه دُعِيَ ليكون خلفاً لخاله نيلوس كاباسيلاس متربوليت تسالونيكي (١٣٦١-١٣٦٣م)، إلاّ أنّه بَقِيَ علمانيًّا. وهذا دليل على أهميّة دور العلمانيّ في الكنيسة.

(٤) بروكلوس بطريرك القسطنطينيّة

إنّه تلميذ القدّيس يوحنّا الذهبيّ الفم. وقد رُقِّيَ إلى الكرسيّ القسطنطينيّ سنة ٤٣٤م في عهد الإمبراطور ثيودوسيوس الصّغير. وجَّه إلى الأُمَّة الأرمينيّة رسالةً مسهبةً في المعتقد الأرثوذكسيّ، داحضًا أضاليل نسطوريوس وأتباعه. واستقبل في أعظم حفاوة وتمجيد رُفات معلّمه الذهبيّ الفم، يوم نُقِلَ إلى العاصمة في ٢٧ كانون الثاني سنة ٤٣٨م. انتقل إلى الحياة الأبديّة سنة ٤٤٦م. تُعيِّد له الكنيسة الملكيّة الكاثوليكيّة في العشرين من شهر تشرين الثاني من كلّ عام.

(٥) المدراش

إنّ تفسير الماضي على ضوء الاهتمامات الحاضرة، يبدو طاهرًا، في شكلٍ من الأشكال، منذ كتاب الأخبار (أخ١، أخ٢). ولكنّ هذه الظّاهرة واضحة بشكلٍ خاصٍّ لدى حكماء المدارش الَّذين واجهوا اهتماماتٍ وصعوباتٍ عديدةً في أيّامهم. ما توقّف الحكماء فقط عند التوراة معتبرينها خبرَ وحيٍ إلهيٍّ في الماضي، بل رأَوا فيها نصًّا يتوجّه إلى النّاس في الزّمن الحاضر، مع تساؤلاتهم واهتماماتهم. وما يؤمّن الآن هذا التّفسير للنصوص البيبليّة، هو النهج المدراشيّ الَّذي يحاول أن يكتشف المدلولات ويستخلصها دارسًا تسلسل بعض الأحداث والوصايا في

الكتب المقدّسة. يرى الشرّاح المعاصرون أنّ سياق آية أو كلمة يحدّد المعنى. **أما مدوّن المدراش فلا يرى الأمور بهذا المنظار. فكلّ كلمة، وكلّ آية، يمكن أن تفسَّر بمعزل عن سياقها**. مثلاً، في مز ٢٢: ٧ "أنا دودة لا إنسان، يعيّرني البشر وينبذني الشعب"، يعبّر المرتّل عن خبرته الخاصّة. أما المدراش فيعتبر أنّ الآية تشير إلى احتقار الأمم لإسرائيل : "فكما أنّ الدودة هي الخليقة الأكثر احتقارًا، هكذا اسرائيل هو الأكثر احتقارًا بين الأمم .ولكن كما أنّ فم الدودة هو العضو الوحيد المنظور، كذلك فم اسرائيل (بفضل الصلاة) يستطيع أن يلغيَ قراراتِ الشؤم الّتي أعلنتها الأمم في شأنه" (مدراش مز ٢٢: ١٨).

(٦) المستاغوجيَّة

هي كلمةٌ يونانيّةٌ تعني أمرَين: الأوّل، إفهامُ السِّرِّ وكشفُ الأمورِ المخبَّأة؛ والثّاني، هو أنّ كُلاًّ منّا يَلِجُ إلى معرفةِ الله بواسطةِ كشفِه الميستاغوجيّ (يقول **غريغوريوس النيصيّ**: "كشفُ سرِّ التجسُّدِ في البشارة صارَ للعذراء بميستاغوجيَّةِ جبرائيل") أي إنّها **المَهمَّةَ الَّتي تقودُ المؤمنين إلى داخلِ السِّرِّ المُحتَفَلِ به، في حالةٍ من الاستمراريَّة، المواظِبَةِ والمُثابِرَةِ في النموِّ الروحيّ**، من خلال **إعادةِ إحياءِ الأعمالِ الخلاصيَّة الَّتي تَجِدُ اكتمالَها في الأسرار، في شرحِ الرّموز، الطّقوس، الصَّلوات، المعاني الحقيقيَّةِ الَّتي تَحتَويها كلمةُ الله وفي الاحتفالاتِ في السّنةِ الليتورجيّة**. فالمستاغوجيَّةُ هي جزءٌ من اختبارِ السِّرِّ المُتَلَقّى لمرةٍ واحدةٍ وللأبد، والَّذي يُؤثِّرُ في وجودِ المؤمنين برمَّتِه. فالسِّرُّ يتضمّنُ إعلانَ أو كشفَ التَّدبيرِ الخلاصيِّ الَّذي كان اللهُ قد تَرَكَهُ لنا مَخفيًّا لقرون، حيث كَشَفَهُ لنا عندما تمَّ ملءُ الزّمان بواسطةِ ابنِه الوحيد لنُصبِحَ شركاءَ في الطَّبيعة الإلهيَّة، مُخَلَّصينَ بالنِّعمة ومُفتَدِينَ بدم الحمل: "فأَطلَعَنا على سرِّ مشيئتِه، أي ذلك التَّدبيرِ الَّذي ارتَضَى أن يُعِدَّهُ في نفسِهِ منذ

القِدَم، لِيَسيرَ بالأزمنةِ إلى تمامِها، فيَجمَعَ تحت رأسٍ واحد، هو المسيح، كلَّ شيء: ما في السَّماواتِ وما في الأرض. وفيه أيضًا جُعِلْنا وَرَثَةً، وقد كُتِبَ لنا، بتدبيرِ ذاكَ الَّذي يَفعَلُ كلَّ شيءٍ كما تُريدُهُ مشيئتُه، أن نكونَ مَن سَبَقَ أن جَعَلوا رجاءَهم في المسيح للتَّسبيحِ بمجدِهِ. وفيه أنتم أيضًا سَمِعتُم كلمةَ الحقّ، أي بشارةَ خلاصِكم، وفيه آمنتُم فخُتِمتُم بالرّوحِ الموعودِ، الرّوحِ القدس، وهو عربونُ ميراثِنا، إلى أن يَتِمَّ فداءُ خاصَّتِه، للتَّسبيحِ بمجدِه" (أف ١: ٩-١٤)؛ "فمُنِحنا بهما أثمنَ المواعيدِ وأعظَمَها، لتَصيروا بها شركاءَ الطَّبيعةِ الإلهيَّةِ في ابتعادِكم عَمَّا في الدُّنيا من فسادِ الشَّهوة" (٢بط ١: ٤). يقولُ * **غريغوريوس النزينزي**: "الإنسانُ هو الخليقةُ الَّتي تَلَقَّتْ النِّظامَ بأن تُصبِحَ إلهًا"؛ * **باسيليوس الكبير** يقول: "لقد أصبحنا على مِثالِ المسيح، إذ إنّ المسيحَ قد صارَ مثلَنا؛ نحن صِرنا آلهةً بواسطتِهِ، لأنّه هو نفسُه صارَ بشرًا لأجلِنا"؛ * **البابا الخلقيدونيّ ليون الأوّل** يؤكِّدُ في قراءتِه للأنثرولوجيّةِ المسيحيَّةِ للآباء اليونان، في عِظةٍ احتفاليَّةٍ عن الميلاد، يقول: "إعلَم، أيُّها المسيحيّ، أنّ شَرَفَ مَنزِلَتِكَ تكمنُ في اشتراكِكَ في الطَّبيعةِ الإلهيَّة. لأجلِ ذلك فإنّكَ لا تستطيعُ أن تعودَ إلى دَناءةِ الماضي والسلوكِ غيرِ اللائق... بسرِّ المعموديَّةِ تحوَّلْتَ إلى هيكلٍ للرّوحِ القدس". فالمواعِظُ الَّتي أُلقِيَتْ في القرن الرّابعِ الميلاديّ من قِبَلِ الآباءِ * **كيرلّس الأورشليميّ** († ٣٨٧م)، * **أمبروسيوس أسقف ميلانو** († ٣٩٧م) * **ويوحنّا فم الذهب** († ٤٠٧م) حول المعموديَّة، التَّثبيت (الميرون) والافخارستيَّا، سُمِّيَتْ مواعِظَ ميستاغوجيَّة، لأنّها تُطلِعُ المعتمِدين على المضامينِ السِّرِّيَّةِ لهذه الأسرار الَّتي تَجعَلُ الإنسانَ **إلهيَّ الوجود**. فالكنيسةُ، الأُمُّ المعلِّمة، قد أَسَّسَتْ، على التوالي، طقوسَ الأسرارِ كزمنِ نعمةٍ، وسَمَّتْها **السنةُ الليتورجيَّة**، لأنّ الإنسانَ، باتِّباعِها وفهمِ معناها، يحيا مراحلَ حياتِه الروحيّة. هكذا الفصح، عيدُ الأعياد، فهو

ليس احتفالاً بموتِ وقيامةِ السيِّد فقط، بل هو أيضًا ذكرى المعموديَّةِ الَّتي تندَمِجُ دائمًا في معموديَّةِ المسيح. **فهدفُ مستاغوجيَّةِ الأسرار هو دخولُ المؤمنين في حياةِ النِّعمة، ظهورُ الحياةِ الإلهيَّة وبدايةُ الحياةِ الجديدةِ في المسيح.**

بناءً على كلِّ ما تقدّم نُلخِّصُ أنّ **المستاغوجيَّة هي مسيرةٌ نحو بلوغِ الاكتمال والقداسة بواسطةِ الأسرارِ المقدّسة**: إنّها، وبحسب الطقسِ البيزنطيّ، **الليتورجيَّةُ الإلهيَّة، القدَّاسُ الإلهيّ في شَقَّيه: إنّها عملُ الكنيسةِ المستاغوجيِّ الَّذي يقودُ المؤمنين إلى داخلِ سرِّ الله والإنسان، وهي**، في الوقتِ عينِه، **عملُ الله الَّذي يَخرجُ من سِرِّهِ ليكونَ حاضرًا للإنسان**؛ وهي أخيرًا، **إتِّباعُ المسيرةِ داخل السِّرِّ المرئيِّ مع المسيح وفي المسيح لأجل مجد الآب.**

(٧) مدرسةُ الإسكندريَّة وتفسيرُ الكتاب المقدّس

إنّ مدرسةَ الإسكندريَّة ترتكزُ في تفسيرها للكتاب المقدّس على**"الروحيَّةِ الرّمزيّة"** (القراءة الألّيغوريّة) وعلى **"الفكر الأفلاطونيّ"** (البحث فيما وراء الطّبيعة) في اللاهوت المسيحيّ. فقد صارَ مقبولاً القول إنّ الحقيقةَ توجدُ فقط في الرّوح وكلّ ما يرتبطُ بالواقعِ التّاريخيّ إنّما هو ظِلالٌ للحقيقة. وعليه، لكي نفهمَ الحقيقةَ في الكتاب المقدّس، يجب أن نتجاوزَ الصّياغةَ الكلاميّة وأن نأتيَ إلى عالمِ الرّوح، وهذا من الممكنِ حدوثُه فقط باستخدامِ طريقةِ التّفسيرِ الاستعاريِّ (الرّمزيّ) الَّتي تُنقذُنا من عبوديَّةِ الحرف. كذلك كانت **مدرسةُ هليل اليهوديَّةُ** بقيادةِ معلِّمِها **الفيلسوف فيلون** بالاسكندريّة، تُجيزُ الاجتهادَ والتَّأويلَ، وقد استخدمتِ التَّفسيرَ الرَّمزيَّ في تفسير العهد القديم، لاكتشافِ معانٍ فلسفيَّةٍ وأخلاقيَّةٍ من خلال الرموز، ولذا، تَبَنَّتْ مدرسةُ الاسكندريَّة التَّفسيرَ الرّمزيّ. فقد استخدمَ **القدّيسُ اكليمنضوسُ** هذا النّوعَ من التّفسير، وشكَّلَ

العلاّمةُ أوريجانوسُ نِظامَهُ ووضعَ قواعدَه. ويُعتبَرُ اكليمنضوسُ أوَّلَ مَن قدَّمَ نظريَّةَ الرَّمزيَّة، ولقد حاولَ تبريرَ استخدامِه الطريقةَ الرّمزيّة، فقال: **"يُخفي الكتابُ المقدّسُ المعنى لأسبابٍ كثيرةٍ، وهدفُه أن يكونَ موضِعَ بحثٍ منّا ولكي نسعى على الدّوام لاكتشاف كلمات الخلاص"**. يؤكِّد أوريجانوس أنّ الكتاب المقدّس موجَّه كلّه نحو خلاص الإنسان، ولذلك له، على غرار الإنسان: **جسد** (المعنى الجسديّ = التّاريخ)، و**نفس** (المعنى النّفسي = الأخلاق) و**روح** (المعنى الروحيّ = الرّمز أو الارتقاء إلى المعنى الروحيّ).

(٨) مدرسةُ أنطاكية وتفسيرُ الكتاب المقدّس

اعتَمَدَتْ مدرسةُ أنطاكية في تفسيرها للكتابِ المقدّس على **"النَّظريَّة التَّاريخيَّة الحرفيّة"** (القراءة التيبولوجيّة). وكردٍّ فعلٍ على مدرسة الإسكندريَّة، قام **لوكيانوسُ في القرن الرّابع الميلاديّ** بتأسيس مدرسة أنطاكية، لِتَقِفَ في مواجهة مدرسة الاسكندريَّة الرَّمزيَّة، فكرَّسَتْ طاقتَها للتَّفسير الحرفيِّ أو التّاريخيِّ. وقد حَمَلَتْ هذه المدرسةُ أسماءَ رجالٍ عظام، نذكرُ منهم **مار افرام السّريانيّ، القدّيس يوحنّا فم الذهب والعلاّمة ترتليانوس**. نَمَتْ مدرسةُ أنطاكية وازدهرتْ تحت تأثير **فلسفةِ أرسطو** الَّذي جعلَ العقلَ الحَكَم المُطلق، انطلاقًا من أنّ كلَّ نظريّةٍ أو عقيدةٍ أو سواها لا يُثبتُ صحَّتَها المنطقُ، فهي مرفوضةٌ لديه، تحت تأثير **مدرسةِ شماي اليهوديّة** الَّتي كانت تُحافِظُ بشدَّةٍ على النَّصِّ الحرفيّ ورفضِ التَّأويل. وفقًا لهذه الطّريقة، يحوي الكتابُ المقدّس الإعلانَ الإلهيّ، لكنّ هذا الإعلانَ مكتوبٌ حسبَ قوانينِ الكتابة، ولذا، لكي نفهمَ محتوى هذا الإعلان، نتحرَّكُ مُستخدمينَ القوانينَ الكتّابيّةَ أي أن نتساءلَ ماذا يعني الكاتبُ بهذا القول؟ ونحاولَ أن نفهمَ هذا لغويًّا وتاريخيًّا، إذ إنّ التَّفسيرَ النَّظريَّ لا يُساوى بالحرف، ولكنّه يبحثُ عن

المعنى العميقِ في الحرف وليس المعنى المَخفيَّ الَّذي أرادَتْهُ مدرسةُ الإسكندريّة. فرغمَ أنّ المدرسةَ الإنطاكيَّةَ لم تَكتَفِ بالنصِّ التّاريخيّ، بل تَخَطَّتْهُ إلى ما يَحملُ من معانٍ ورموز تتَّضِحُ وتَظهَرُ جَلِيًّا من خلال تجسُّدِ الله الكلمة واعتلانِه للبشر كيما على ضوئِه تُفهَمُ كلُّ الخفايا. إلاّ أنّها ظَلَّتْ مُحافِظةً على صِدقيَّةِ معنى النصِّ التّاريخيّ كحدثٍ حقيقيٍّ تمَّ في مسيرةِ الخلاص. وفي صدقيَّتِه رمزٌ إلى حدثٍ خلاصيٍّ آخر مُزمِعٍ أن يَتِمَّ في العهد الجديد. وهكذا، رغم تاريخيَّةِ حياةِ موسى مثلاً، الَّذي قادَ شعبَ الله من أرضِ العبوديَّةِ إلى أرضِ الميعاد، أضحى رمزًا وصورةً ستَتَحَقَّقُ نهائيًّا بواسطةِ المسيح الَّذي يقودُ شعبَ الله من عبوديَّةِ الخطيئة إلى حريَّة أبناء الله.

(٩) الملامحُ الأساسيَّة في التَّفسير الآبائيّ للكتاب المقدّس

إنّ الآباءَ ومن خلال اهتمامهم بالجانب الروحيّ في كتاباتهم وتفاسيرهم، عَمَدوا إلى الوصول إلى هدفٍ سامٍ ألا وهو الدّخولُ إلى شركة الأمجاد في المسيح يسوع. فالإنسان بكونه صورة الله ومثاله قادرٌ بالرّوح القدس لا أن يتفهَّمَ الحقيقةَ الإلهيَّةَ فقط، بل وبالأكثر أن يدخُلَ في شَرِكَةِ الحياة الإلهيَّة من خلال المعرفة، الحكمة، الحقّ، القداسة، الوداعة والحبّ. **فلم يُقدِّمْ لنا الآباءُ دراساتٍ أكاديميَّةً للكتاب المقدّس، إنّما قدَّموا لنا من خلال حياتهم الكنسيَّة تفسيرًا نابعًا عن إيمانٍ شخصيٍّ.** وهم يَعلَمونَ أنّ الكتابَ المقدّسَ ليس كتابًا حرفيًّا ولا هو كتابٌ رمزيّ، وإنّما هو كتابٌ لاهوتيّ، يحمِلُ الجانبَ الحرفيَّ – التّاريخيّ مع الجانبِ الرّمزيّ – الروحيّ، وبالتّبعيَّةِ جاءتْ تفاسيرُهم في أغلبها ليست بالحرفيّةِ تمامًا ولا بالرّمزيَّةِ تمامًا، وإنّما بالاثنين معًا. فالسيِّدُ، على سبيلِ المثال، عندما أعلنَ عن الحيَّةِ النُّحاسيَّةِ الَّتي رَفَعَها موسى النبيُّ في البريَّةِ كرمزٍ للصَّليب، لم يُنكِرِ الحدثَ القديم (يو ٣: ١٤؛ راجع أيضًا عد ٢١: ٤-٩)؛ وعندما تكلَّمَ بولسُ الرسول عن هاجرَ وسارة على

أنّهما رمزٌ لجبل سيناء وأورشليم، لم يُلْغِ وجودَهما القديم (غل ٤: ٢٤-٢٧). بهذا المنهج جاءتْ كتاباتُ الآباء وهي ترى في آدم، ملكيصادق، يونان، موسى وخيمة الاجتماع، الهيكل، الأعيادِ والطّقوس والشَّريعة، إعلاناتٍ عن شخص السيِّد المسيح وعمله الخلاصيّ.

(١٠) البطريرك جرمانوس الأوّل

وُلِدَ جرمانوس في القسطنطينيّة بين سنتَي ٦٣٠ و٦٥٠م ولا يمكنُ تحديدُ سنة ميلاده بأكثر دقّة. إنّه سليلُ عائلةٍ نبيلة ونسيبٌ للإمبراطور هيراقليوس (٥٧٥-٦٤١م). كان أبوه يوستنيانوس من كبار المسؤولين في الإدارة الإمبراطوريّة، ومن نبلاء العاصمة، إلى أنِ اتُّهِمَ بقتل الإمبراطور كونستانس وحُكِمَ عليه بالموت بأمر الملك قسطنطين الرّابع ابن كونستانس (٦٦٨-٦٨٥م). وحُكِمَ، في الوقت نفسه، على ابنِ القاتل بسبب جرمِ أبيه بالحرمانِ من القدرةِ على الإنجاب، وإنّما أُبقِيَتْ له ممتلكاتُه. وتَسَبَّبَ هذا الوضع بحَمل جرمانوس على الانخراط في الحالة الإكليريكيّة، والتحقَ بإكليروس كنيسة الحكمةِ الإلهيَّة (آيا صوفيّا) كاتدرائيَّة العاصمة. وبصفته رجلاً مثقَّفًا استطاع أن يلعب دورًا هامًّا في حياةِ الكنيسة. وفي المجمع المسكونيّ السّادس (٦٨٠-٦٨١م) الَّذي عالج تعليمَ أصحاب المشيئة الواحدة، ظَهَرَ جرمانوس وعُدَّ من أهمّ لاهوتيّيه. بعد ذلك انتُخِبَ متروبوليتًا لمدينة سيزيكوس وهي كرسيٌّ تابعٌ للقسطنطينيّة. وقدِ اشتهرَ كواعظٍ وشارحٍ للكتابِ المقدّس وكان نَشِطًا على الصعيدَينِ الكنسيِّ والسياسيّ. ولهذا انتُخِبَ بطريركًا للقسطنطينيّة في العام ٧١٥م. رَفَضَ في العام ٧٣٠م توقيعَ مرسوم محطّمي الأيقونات، فعُزِلَ جرمانوس عن كرسيِّه. رَقَدَ بالرَّبِّ في العام ٧٣٣م في منزله العائليّ الكائن في حيّ بلوتينيوم. تَحتفِلُ الكنيسةُ البيزنطيّةُ بعيده في الثاني عشر من شهر أيّار.

(١١) البطريرك سرجيوس

هو أسقفٌ يونانيٌّ، أصبحَ بطريركَ القسطنطينيّة في ٦١٠/١٠/٣م. في ٦١٠/١٠/٥ قامَ بتتويج هيراقليوس الأوّل إمبراطورًا على البيزنطيّين، وزوَّجَه، في الوقتِ نفسِه، من فابيا الَّتي اتَّخذتِ اسمَ إفذوكيّا. خبيرٌ سياسيٌّ ودينيّ بامتياز، وقد كان المساعِدَ الأساسيَّ واليدَ اليُمنى للإمبراطورِ البيزنطيّ هيراقليوس لحوالي الثلاثينَ عامًا. بَقِيَ على كرسيِّ القسطنطينيّةِ حتّى وفاتِه في العام ٦٣٨م.

(١٢) جاورجيوس أسقف بيسيدية

هو **شاعرٌ بيزنطيٌّ** وصديقُ البطريرك سرجيوس الأوّل بطريركِ القسطنطينيّة والإمبراطور هرقليوس. كان شمّاسًا وقيِّمًا على الأواني المقدّسة لكنيسةِ الحكمةِ المقدّسة "آيا صوفيا" في القسطنطينيّة. كُتِبَتْ أعمالُه في الأساسِ باللغة اليونانيّة مع ترجمةٍ باللغةِ اللاتينيّة. لقد كانت باكورةُ أعمالِه ثلاثةَ أناشيدَ تَصِفُ الحملاتِ العسكريَّةَ الَّتي قامَ بها الإمبراطور هيراقليوس ضدّ الفرس في العام ٦٢٢م (في هذه الحملة أَعادَ هيراقليوس ذخيرةَ خشبةِ الصَّليب الَّتي كان الفرسُ قد سرقوها قبل بضعِ سنواتٍ من القدس)؛ الحصارَ غير المُجْدي للقسطنطينيّة على يد البرابرة الآفار في العام ٦٢٦م والَّذي وَقَعَ في غياب الإمبراطور وجيشه، حيث صُدَّ هذا الحصارُ بمساعدة مريمَ البتول؛ وأخيرًا، نجاحاتِ هيراقليوس في مواجهةِ الفرس حتّى خلع واغتيال كسرى الثّاني في العام ٦٢٨م. كَتَبَ أيضًا قصيدةً تعليميَّةً تتمحورُ حول "كوزمولوجيَّة خلق العالم" (علم الكونيّات: علمٌ يبحثُ في أصل الكون وبُنيته العامّة وعناصره ونواميسه)؛ مقالةً حول "فراغ الحياة"؛ عملاً جدليًّا ضدّ البطريرك سيفيرو الأنطاكيّ ومونوفيزيَّته؛

أخيرًا، كتبَ قصيدتَين مُقتضبتَين حول معبدِ والدةِ الله في القسطنطينيّة، قيامةِ المسيح واسترجاعِ خشبةِ الصَّليب.

(١٣) رومانوس المرنم

لا نعرفُ الكثيرَ عن **القدّيس رومانوس**، ولكنّنا نعرفُ أنّه وُلِدَ في مدينة حمص وصار شمّاس كنيسة بيروت، ثم انتقل إلى مدينة القسطنطينية في أيّام الإمبرطور أناستاسيوس الأوّل والبطريرك أوفيميوس (٤٩٠-٤٩٦م). كان، منذ نعومةِ أظفارِه، مُشتعِلاً بحبِّ الله، سالكًا في الفضيلة، أمينًا على خدمة والدة الإله، مثابرًا على طقوسِ الكنيسة. رغبتُه في تمجيدِ والدة الإله كانت جامحة، لكنّ مواهبَه ومَقدرتَه الصَّوتيّةَ كانت دون طموحاتِه. وحَدَثَ، مرّةً، خلال سهرانة عيد الميلاد المجيد، في كنيسة بلاشيرن في القسطنطينية، أنْ ظهرتْ له والدةُ الإله وفي يدِها درجٌ ناولَتْه إيّاه ليأكلَه. وحالما ذاقَه ملأتْ حلاوةٌ فائقةٌ فمَه فصَعِدَ على المنبر وراح يُرتِّل بصوتٍ ملائكيٍّ النَّشيدَ المعروفَ لوالدة الإله: "اليوم البتول تَلِدُ الفائقَ الجوهر، والأرضُ تُقرِّبُ المغارةَ لِمَن هو غيرُ مقترَبٍ إليه. الملائكةُ مع الرّعاة يُمجِّدون، والمجوسُ مع الكوكب في الطّريقِ يسيرون، لأنّه قد وُلِدَ من أجلنا صبيٌّ جديد، الإلهُ الَّذي قبل الدهور". ومنذ ذلك الحين تَدَفَقَتْ موهبةُ الرُّوحِ القدس فيه واستمرتْ إلى يوم رُقادِه. وقد أخرج عددًا هائلاً من الأناشيد غطّى معظمَ أعيادِ السنة الليتورجية. ورومانوس هو مبدعُ الأناشيد المعروفة بالقنداق. والقنداق مجموعةٌ ممّا يُسمَّى بالأبيات يتراوح عددُها بين العشرين والأربعة والعشرين بيتًا، يتضمَّنُ كلَّ بيتٍ فيها عددًا من الطروباريات. يُقالُ إنّ القدّيس رومانوس أنتجَ ألفًا من هذه القناديق، لم يبقَ منها اليوم إلا ثمانون. ومن القناديق المنسوبةِ إليه مديحُ والدة الإله الَّذي اعتادتِ الكنيسةُ إنشادَه، خلال فترة الصَّوم

الكبير من السنة. يُذكَرُ أنّ القدّيس رومانوس هو أوّلُ من اعتاد أن يضعَ حرفَ (T) باليونانية قبل اسمه، والحرف يشير إلى كلمة (تابينوس) الّتي تعني "الحقيرَ" أو "الذليل". هذه العلامةُ ذاتُها اعتمدَها الأساقفةُ فيما بعد، فجاءتْ بشكلِ صليبٍ صغير. في صلاة المساء الخاصّة بعيده، ترتِّلُ له الكنيسةُ الأنشودةَ المعبِّرةَ التّالية: "يا أبانا المكرَّم رومانوس، لقد صرتَ مبدأً للخير وعلّةً للخلاص، ولما وَضعتَ أناشيدَك الملائكيّة، أثبَتَّ، في الحقيقة، قداسةَ سيرتِك. فابتهل إلى المسيح الإله أن يحفظَ مرتِّليكَ من التَّجارب والأخطار". رَقَدَ القدّيسُ رومانوس في الرَّبّ، في مدينة القسطنطينية، شمّاسًا في الكنيسة العظمى، في العام ٥٣٠ للميلاد.

(١٤) معبد الفلاخرني

لقد عُرِفَ معبدُ الفلاخرني في كلِّ الأوقاتِ بأنّه المكانُ المميَّزُ لتقديمِ التّكريمِ لمريم في بيزنطيا. هناك، كانت تُوضَعُ الأيقوناتُ العجائبيَّةُ لوالدةِ الله، وهناك أيضًا، حُفِظَ أثرٌ مقدَّسٌ ثمينٌ هو ثوبُ العذراء مكوَّنٌ من قطعةٍ طويلةٍ من النّسيج، تُغطِّي رأسَ وجسدَ النّساء كمِعطَف حتّى الرُكبتَين. إنّه لباسُ الشمّاسات اللواتي وَقَفنَ أنفسَهُنَّ لخدمةِ الرَّبِّ الإله والعذارى، حيث أصبحَ الثّوبَ النموذجيّ لوالدةِ الله والنّساء القدّيسات. لقد حُفِظَ هذا الثّوبُ في صندوقٍ شفَّافٍ في كنيسةِ الفلاخرني، ولأجلِ هذا السبب، أصبحتِ الكنيسةُ تُدعَى **"كنيسةَ الصُّندوقِ المقدّس"**. إنّ وجودَ ثوبِ العذراء في القسطنطينيّة جَعَلَ القسطنطينيِّينَ يؤمنونَ بأنّ **مريمَ هي البتولُ المُنقِذة** و**"البتولُ الزّائرة، المراقبة والمُشرفة على"**. وقد نُقِشَ هذا العنوانُ على العُملةِ والأختامِ البيزنطيّةِ ابتداءً من **القرن العاشر الميلاديّ**.

(١٥) ثيودورس "Teodoro Sincello"

المتقدِّم بين الكهنة في كنيسة الحكمةِ المقدّسة في القسطنطينيّة. معروفٌ من خلال حديثَين وصلا إلينا: الأوّل، عند نقلِ ثوبِ العذراء المكتَشَفِ في أورشليم، على يدي غالِيوس وكانديدوس (وهما من طبقةِ النبلاء والأشراف)، اللَّذينِ أحضراه إلى القسطنطينيّة، وقد وُضِعَ بجانبِ معبد الفلاخرني؛ والثّاني، لمناسبةِ تحريرِ القسطنطينيّة من الفرس في العامّ ٦٢٦م. إنّ كلمة "Sincello" تعني السّكرتير الخاصّ والنّائب العامّ، وهو مرافِق المطران أو البطريرك، وقد يكون أيضًا الخليفة المتوقَّع لواحدٍ من هذين المنصبَين الكنسيَّين.

(١٦) كيرلّس الإسكندريّ

وُلِدَ نحو سنة ٣٨٠م وهو ابنُ أخت ثيوفيلس أسقف الإسكندريّة († ٤١٢). حصَّل على ثقافةٍ كلاسيكيَّةٍ مدنيَّةٍ ودينيّةٍ واسعة وعميقة، وأتقنَ، إلى جانب اليونانيّة الأنيقة، اللغة اللاتينيّة. في ١٧ تشرين الأوّل سنة ٤١٢، خَلَفَ كيرلّس خالَه ثيوفيلس على كرسيِّ الاسكندريَّة لمدّة اثنتَين وثلاثين سنة. لقد كان القدّيس كيرلّس الاسكندريّ، في مطلع القرن الخامس الميلاديّ، ملفان التجسُّد، حيث قال: **"كلمة الله الآب وُلد من عذراء دُعِيَت إلى أن تكون وسيطة فتلد بالجسد مَن كان متَّحدًا بالجسد عمّانوئيل هو الله؛ والَّتي وَلدت الإله الَّذي ظهر لأجلنا يجب أن تُدعى والدة الإله"**.

(١٧) الإمبراطورة بلخاريا

القدّيسةُ بلخاريا هي أختُ الإمبراطورِ البيزنطيّ ثيودوسيوس الصّغير. شاركتْ في الحكمِ مع أخيها وقد كانت شديدةَ الحماسِ للإيمانِ الأرثوذكسيّ. لَعِبَتْ

دورًا بارزًا في اجتماعِ المجمعِ المسكونيِّ الثّالث المنعقِد في أفسس في العام ٤٣١م الَّذي أبسلَ نسطوريوس. أَنفَقَتْ أموالَها على الفقراء وعلى بناءِ الكنائسِ والمستشفياتِ والمياتِم والأديرة. هي الَّتي شيَّدتْ كنيسةَ فلاخرني (بلاشيرن) الشَّهيرةَ في القسطنطينيّة على اسم والدة الإله. وقد وَجَدَتْ رُفاتَ القدّيسينَ الشُّهداءَ الأربعينَ في سبسطية. بعد وفاة أخيها ثيودوسيوس، تزوَّجتْ مركيانوس وحَكَمَتْ معه. كما أنّه في أيَّامِها انعقدَ المجمعُ المسكونيُّ الرَّابع في خلقيدونيا في العام ٤٥١م. رَقَدَتْ في الرَّبِّ في العاشر من أيلول من العام ٤٥٣م.

(١٨) الفلسفة الأبيقوريّة

أسَّسَها الفيلسوفُ اليونانيّ الوثنيّ أبيقور في العام ٣٠٦ ق.م في أثينا. الفلسفةُ عند أبيقور لا تَخرجُ عن إطار التَّحرُّرِ من المخاوف والانشغالاتِ الَّتي يُمكِنُ أن تُعرَضَ لأيٍّ كان، في أيِّ مكانٍ وزمان. وللوصول إلى السّعادة، يَصِفُ أبيقور "دواءً رباعيًّا" يَتَمَثَّلُ في التحرُّر من أربعة أشياء: **(١) تحرير بني البشر من الخوف من الآلهة**. يقول الأبيقوريّون أنّ الألوهة إمّا أنّها تريد أن تقضيَ على الشّرور ولكنّها لا تستطيع، أو أنّها تستطيع ولا تريد، أو أنّها لا تستطيع ولا تريد، أو أنّها تريد وتستطيع. إذا كانت تريد ولا تستطيع، فهي عاجزةٌ والألوهةُ لا يمكنها أن تكون كذلك. إذا كانت تستطيع ولا تريد، فهي غيورةٌ والألوهة لا يمكنها أن تكون غيورة. وإذا كانت لا تريد ولا تستطيع، فهي غيورةٌ وعاجزة وبالتّالي، فهي ليست ألوهة. أمّا إذا كانت تريد وتستطيع، وهو الشيءُ الوحيد الجدير بالألوهة، فمِن أين إذن تأتي الشّرور إلى الوجود ولماذا لا تقضي عليها؟؛ **(٢) تحرير بني البشر من الخوف من الموت**، انطلاقًا من المبدأ القائل: "حين نكونُ نحن لا يكونُ الموت، وحين يَكونُ الموتُ لا نكونُ نحن"؛ **(٣) البرهنة على أنّ حدودَ اللذةِ مُتاحة**،

بمعنى سهولة الوصول إلى اللذة ذاتِها. فهي المعيارُ الَّذي يُقيِّمُ به الأبيقوريُّ الخيرَ والرَّفضَ والقبول، فالإنسانُ يَسعى إلى اللذة ويتفادى الألم. ولا يجب فهمُ اللذة على أنَّها الشهوانيّةُ والشَّبَق، إذ إنّها تَخضَعُ للحساب الدقيق والحذر؛ **(٤) البرهنة على أنه لا يمكن بلوغ الحدود القصوى للألم.** بمعنى أنّه، أي الألم، مؤقتٌ ووجيز. وفي هذا الإطار يقول أبيقور: "لا تَستَديمُ في الجسدِ الآلامُ، وتلك القصوى تَبقى الوقتَ الأقل، ولا يَستمرُّ أيَّامًا طويلةً ذلك التألُّمُ الذي لا يفوقُ اللذةَ الجسديَّةَ إلا قليلاً، بل على العكس من ذلك الأمراض الطويلة لها من اللذة في الجسدِ أكثرُ من الأوجاع".

(١٩) الفلسفة الرِّواقِيَّة

هي مدرسةٌ فلسفيَّةٌ تأسَّستْ في العام ٣٠٨ قبل الميلاد في أثينا، تأسَّسَتْ هذه الفلسفة من قِبَلِ زينون الفينيقيِّ الأصل وجاء اسمُ الفلسفةِ الرِّواقيَّةِ من كلمة الرِّواق (الموجود في هياكل أثينا القديمة) أيّ المكانُ الَّذي كان يَجتمعُ فيه الفلاسفةُ والشعراءُ وقد كان يُمثِّلُ أيضًا مكانًا لممارسةِ المحاورةِ والتَّعليم. يَقسِمُ زينونُ فلسفتَه إلى ثلاثةِ أقسامٍ وهي: **(١) المنطق:** يَقسِمُ الرِّواقيّونَ المنطِقَ إلى قسمَين رئيسيَّين: الأوّل هو الديالكتيك، والثّاني هو الخطابة؛ **(٢) الفيزياء أو الطَّبيعيّات؛ (٣) الأخلاقيّات:** يُفرِّقُ الرِّواقيّون بين نوعَين من الأخلاق: الأخلاق النّظريَّة، وهي الَّتي تُحقِّقُ الفضيلةَ على صورتِها العليا، أي أن يَعلَمَ المرءُ قوانينَ الطّبيعة؛ والأخلاق الشَّعبيَّة أو العمليَّة، وهي الَّتي يُحاولُ بها الإنسانُ التَقَرُّبَ من المَثَلِ الأعلى للفضيلة الرِّواقيَّة. من أقواله [زينون] الشّهيرة: "لقد خُلِقَ لنا أُذنان وفمٌ واحدٌ، كي نَنصتَ كثيرًا ونَتكلَّمَ قليلاً".

المراجع

١. البابا يوحنّا بولس الثّاني، ***أمّ الفادي، رسالة عامّة في الطوباويّة مريم العذراء في حياة الكنيسة عبر مسيرتها على الأرض***، منشورات اللجنة الأسقفيّة لوسائل الإعلام، لبنان، ١٩٨٧.

٢. ***العذراء القديسة (موسوعة مريمية جامعة)***، مجموعة باحثين، صدرت بمناسبة السنة اليوبيلية المريمية، مطبعة دير المخلص، جون ـ لبنان، ١٩٥٤.

٣. ***المجمع المسكوني الفاتيكاني الثاني ـ الوثائق المجمعية***، نقلها إلى العربية يوسف بشارة، وعبده خليفة، وفرنسيس البيسري، طبعة ثانية منقحة، مطابع يوسف وفيليب الجميل، البوشرية ـ لبنان، ١٩٨٤.

٤. بسترس، كيرلس سليم (المطران)، ***مريم العذراء أمّ ربّنا يسوع المسيح***، اللاهوت المسيحي والإنسان المعاصر، الجزء الرابع، سلسلة الفكر المسيحي بين الأمس واليوم رقم (١٣)، منشورات المكتبة البولسية، طبعة أولى، جونية ـ لبنان، ١٩٩٣.

٥. ***تاريخ الفكر المسيحيّ عند آباء الكنيسة***، مجموعة باحثين، منشورات المكتبة البولسيّة، طبعة أولى، ٢٠٠١.

٦. توريان، ماكس، ***مريم أمّ الرّبّ ورمز الكنيسة***، نقله إلى العربية الأب خليل رستم، طبعة ثالثة، دار المشرق، بيروت ـ لبنان، ١٩٩٨.

٧. دانيال، روسو، ***الإيقونة بهاء وجهك***، نقله إلى العربيّة مشير باسيل عون، منشورات جامعة الرّوح القدس-الكسليك، ٢٠٠٤.

٨. دوبره لاتور، أوغسطين (الأب)، ***خلاصة اللاهوت المريمي***، نقله إلى العربية الأب يوسف قوشاقجي، دار المشرق، بيروت ـ لبنان، طبعة ثانية، ١٩٩٢.

٩. كوربون، جان (الأب)، ***ليتورجية الينبوع***، نقله من الفرنسيّة جورج الياس عازار، منشورات النّور، ١٩٩٣.

١٠. لوسكي، فلاديمير، ***بحث في اللاهوت الصوفيّ لكنيسة الشرق***، تعريب نقولا أبو مراد، منشورات النور، لبنان، ٢٠٠٠.

١١. نجم، بيار (الأب)، ***مريم العذراء في فكر القدّيس أفرام السريانيّ***، منشورات جامعة سيّدة اللويزة، ٢٠٠٤.

12. Balthasar, H. Urs von, *Light of the word*, Ignatius press, 1993.

13. ----------, *The Marian face of the Church*, Herder, 1977.

14. Barbaglio, G., *La Spiritualità del Nuovo Testamento*, Edizioni Dehoniane Bologna, 2002.

15. Baukham, R. J., *The Theology of the book of Revelation*, Cambridge university press, 1993.

16. Beale, G. K., *The Book of Revelation*, NIGTC, Grand rapids, Michigan/Cambridge, U.K., 1999.

17. Beckwith, I. T., *The Apocalypse of John*, New York: Macmillan, 1999.

18. Brown, E. R., *An introduction to the Gospel of John*, New York, Doubleday, 2003.

19. ----------, *Mary in the New Testament*, Paulist press, New York, 1978 .

20. Dodd, C. H., *The interpretation of the Fourth Gospel*, Cambridge university press, 1992.
21. Farrer, A., *A Rebirth of images: The making of St. John Apocalypse*, Boston: Beacon, 1963.
22. Feuillet, A., *Johannine studies*, New York: Alba, 1964.
23. Hendriksen, W., *The Gospel of John*, London, 1964.
24. Johnson, A. F., *Revelation, the expositor's Bible commentary*, XII, Grand rapids: Zondervan, 1981.
25. Koester, Craig R., *Symbolism in the Fourth Gospel*, Fortress press, Minneapolis, 2003.
26. Leon-Dufour, X, *Lettura dell'evangelo secondo Giovanni*, San Paolo, 1990.
27. McHugh, J., *The Mother of Jesus in the New Testament*, London, 1975.
28. Santer, M., *The Authorship and Occasion of Cyril of Alexandria's Sermon on the Virgin*, Berlin, 1975.
29. Schnackenburg, R., *The Gospel according to St. John*, volume 3, Crossroad, New York, 1982.
30. Taylor, M., John *the different Gospel*, Alba house, New York, 1983.
31. Toniolo, E., *L'inno Acatisto, monumento di teologia e di culto mariano nella chiesa bizantina*, Academia Mariana Internazionale, Roma, 1972.
32. ----------, *Numeri e simboli nell'inno Akathistos alla Madre di Dio*, Ephemerides Liturgicae 101, 1987.

الفهرس العامّ

الافتتاحيَّة ٣

المقدّمة العامّة ٧

الفصل الأوّل

مريم: مسيرةُ إيمانٍ نحو القيامة، قراءةٌ بيبليَّة

المقدِّمة ١١

١) وعدُ اللهِ بالخلاص (سفر التكوين الفصول ١-٣) ١٢

١. الإنسان أيقونة الله: الصّورة والمثال ١٢

٢. الإنسان في حريّة الاختيار ١٥

٣. وعد الله بالخلاص ١٦

٢) مريم أُمُّ العِمّانوئيل "نبوءة أشعيا" (٧: ١٤) ١٧

٣) الحبل العجائبيّ بوالدة الإله وميلادها ١٧

٤) مريم خادمةُ السِّرِّ الإلهيّ (لوقا ١: ٢٦-٣٨) ٢٠

١. مريمُ في فكر الله (لو ١: ٢٦-٣٣) ٢١

٢. بتوليَّةُ مريم (لو ١: ٣٤) ٢٢

أ. إنجيل متّى ١: ١٨-٢٥ ٢٣

ب. إنجيل لوقا ١: ٣٤ ٢٤

ت. بتوليّة مريم الدّائمة في الفكر البروتستانيّ الإنجيليّ ٢٥

ث. بتوليّة مريم الدّائمة في لاهوت الكنيسة الجامعة ٢٦
٣. مريمُ عروسُ الرُّوحِ القدس (لو ١: ٣٥-٣٦) ٢٧
٤. مريمُ خادِمَةُ السِّرِّ الإلهيّ (لو ١: ٣٨) ٣٣
٥) مريم تابوتُ العهد الجديد (لو ١: ٣٩-٥٦) ٣٥
٦) مريم الأمّ "الميلاد" (متى ١: ١٨-٢٥؛ لو ٢: ١-٢٠) ٣٩
٧) مريم المربيَّة والمرافِقة (لوقا ٢: ٢٢-٤٠، ٤١-٥٢) ٤٤
٨) مريم الشَّفيعة (يوحنا ٢: ١-١١) ٤٦
١. العرس بين العهد القديم والعهد الجديد ٤٦
٢. مَن هو عريس قانا وعروسه؟ ٤٨
٣. مريم في عرس قانا الجليل ٤٩
٩) مريم، أمّ الكنيسة "الصّليب" (يوحنا ١٩: ٢٥-٢٧) ٥٦
١٠) مريم، القلبُ النَّابضُ للجماعة الأولى (أع ١: ١٤) ٥٨
١١) انتقال والدة الإله بالنّفس والجسد إلى السّماء ٥٩
١٢) مريم، المرأةُ الملتَحِفَةُ بالشَّمس (رؤ ١٢) ٦٢
١. رمزيّة سفر الرؤيا ٦٣
أ. البُعد الماضي المنصرم ٦٣
ب. البُعد المستقبليّ ٦٤
ت. رمزيّة الأعداد ٦٤
ث. هل من غايةٍ ليوحنّا من استعمال الرموز في كتابه؟ ٦٦

٢. بُنية سفر الرؤيا ٦٧
٣. موقع الفصل ١٢ وأقسامه الرئيسيّة ٧٠
٤. الخصائص اللاهوتيّة للفصل ١٢ وشخصيّاته ٧١
أ. المرأة المُلتَحِفَة بالشّمس ٧١
ب. التّنّين ٧٩
ت. الطّفل الذكر ٨٣
الخاتمة ٨٥

الفصل الثاني

مريمُ في سِرِّ الصَّليب: أمومةٌ روحيَّة (يوحنّا١٩: ٢٥-٢٧)

المقدّمة ٨٩
القسم الأوّل: مسيرةُ الآلام، انكِشافٌ لحبِّ الله الأسمى للبشريَّة ٩٢
١) هيكليَّةُ رواية الآلام بحسب الإنجيل الرّابع ٩٣
٢) بُنيَةُ روايةُ الآلام – الجزء الثّالث (يوحنّا١٩: ١٦ب-٤٢) ٩٣
٣) رسالةُ الآلام، إكتِمالُ عمل يسوعَ الخلاصيّ على الصَّليب ٩٤
٤) لاهوتُ الآلام بين اليوحنّاويّة والإزائيَّة ٩٩
القسم الثّاني: المريماتُ، تلميذاتُ المصلوب المُخلِصات (يو ١٩: ٢٥) ١٠١
١) الصَّليب، رمزُ مَلَكِيَّةِ المسيح ١٠١
٢) المريمات، تلميذاتُ المصلوب المُخلِصات ١٠٢
١. مريم، أُمُّ يسوع ١٠٣

٢. شخصيَّة مريم المجدليّة ١٠٦
القسم الثّالث: مريمُ في سرِّ الصَّليب، أُمومةٌ روحيَّة (يو ١٩: ٢٦-٢٧) ١٠٨
الجزءُ الأوّل: أُمومةُ مريم بين المسيحانيّةِ والإكليزيولوجيَّة (آ ٢٦-٢٧أ) ١٠٨
١) مريمُ عند أقدام الصَّليب، رمزُ الكنيسة ١٠٨
٢) ساعةُ المجد بين قانا والصَّليب: خلقٌ جديد ١١٠
٣) مريمُ، حوّاءُ التّكوين الجديد و"ابنةُ صهيون" ١١٣
٤) مريمُ، فرحٌ مسيحانيٌّ وانتظارٌ اسكاتولوجيّ ١١٨
٥) مريمُ في سرِّ العهد ١٢٠
الجزءُ الثّاني: مريمُ، عَطِيَّةُ يسوع إلى الكنيسة (آ ٢٧ب) ١٢٢
القسم الرّابع: رثاء مريم لوحيدها عند أقدام الصَّليب ١٢٩
الخاتمة ١٣٠

الفصل الثالث

الثيوطوكس مريم في ميستاغوجيَّة الليتورجيَّا البيزنطيَّة

المقدّمة ١٣٥
القسم الأوّل: الأكاثستوس، تاريخ ولاهوت ١٣٩
١) هل تحتفل الأكاثستوس بعيدٍ مريميٍّ محدَّد؟ ١٣٩
٢) هل الأكاثستوس نشيدٌ مريميٌّ أم هو نشيدٌ كريستولوجيٌّ؟ ١٤٠
٣) مَن هو مؤلِّفُ الأكاثستوس؟ ١٤١
٤) فرضيَّاتٌ حول تاريخيّةِ تأليف الأكاثستوس ١٤٤

٥) كنيسةُ القسطنطينيّة، كنيسة الثيوطوكس بامتياز ١٤٥
٦) أحداثٌ عجائبيَّةٌ مُذهِلةٌ رافقت الأكاثستوس ١٥٠
٧) مواضيعُ تجاهلَها مؤلِّفُ الأكاثستوس ١٥٢
٨) الأكاثستوس، قراءةٌ تحليليّةٌ ورمزيَّة ١٥٦
٩) موضوعُ الأكاثستوس الجوهريّ ١٥٩
القسم الثّاني: ينابيعُ الأكاثستوس ١٦٠
١) الكتابُ المقدّس ١٦٠
٢) مجمعُ أفسس (٤٣١م) ١٧٠
- لقب "والدة الله" قبل مجمع أفسس ١٧٧
٣) مجمعُ خلقيدونية (٤٥١م) ١٧٩
٤) باسيليوس السلوقيّ († ٤٦٨م) ١٨٠
القسم الثّالث: بُنيةُ الأكاثستوس ولاهوتُها ١٨٢
١) البُعد التّاريخيّ ١٨٣
٢) البُعد العقائديّ والإكليزيولوجيّ ١٩٥
٣) مريمُ في سرِّ المسيح وسرِّ الكنيسة ٢٠٩
٤) الأكاثستوس، ملخَّصُ اللاهوت المريميّ ٢١٢
١. سرُّ مريم ٢١٢
٢. مريم في سرِّ الكلمة المتجسِّد ٢١٢
أ. سرّ الكلمة العامل في البشريَّة المُحتَضَرَة ٢١٣

ب. سرّ الكلمة العامل في الكنيسة المرمَّمة ٢١٥
١. مريم منذ نشأة الكنيسة ٢١٥
٢. مريم وشعب الله: حاجُّونَ إلى الوطنِ الأُمّ ٢١٦
٣. مريم والعذارى ٢١٦
٤. مريم والمؤمن ٢١٨
٥. مريم والجماعةُ الدينيّةُ والسياسيَّةُ للإمبراطوريّة المسيحيّة ٢١٨
القسم الرّابع: الأكاثستوس في الكتاب المقدّس ٢٢١
١) العهدُ القديم ٢٢١
٢) العهدُ الجديد ٢٢٨
القسم الخامس: الأكاثستوس في كتاب "حياة مريم" ٢٣٢
١) أصلُ كتاب "الحياة" ٢٣٢
٢) مَن هو مكسيموس المعترف؟ ٢٣٣
٣) مقارنةٌ بين نصِّ الأكاثستوس ونصِّ الحياة ٢٣٥
الخاتمة ٢٤٥
الخاتمة العامّة ٢٤٧
الملحق ٢٥٠
المراجع ٢٦٥
الفهرس العامّ ٢٦٨